

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

معهد الحضارة الإسلام
قسم اللغة والدراسات القرآنية

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية
قسنطينة

شعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري «دراسة فنية»

رسالة لنيل درجة الماجستير
في الأدب العربي

إشراف :
د: حسيني علي رضوان

إعداد الطالبة :
زينب بوصبيحة

السنة الجامعية 1415 هـ - 1995 م

الإهداء

إلى التي احتضنتنا شرقا وغربا ...

فلم تراعنا حدودها ...

ولم تكلفنا إلا بتشريف ديننا ...

وتآلف قلوبنا وتعاوننا ...

على الحب والخير ...

إلى ذلك المفهوم الغائب

أمتي الإسلامية

أهدي هذا العمل المتواضع

قائلة ما قاله تعالى :

«وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ»

صدق الله العظيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة الأمير عبد الله الثاني للعلوم الإسلامية

المقدمة

المقدمة :

لازال دارس الأدب العربي يلاحظ فراغا كبيرا في رفوف المكتبة الأندلسية، رغم الجهود المبذولة من طرف بعض الباحثين والدارسين في مجالي التحقيق والدراسة، ومع ذلك تظل تلك المحاولات قليلة وناقصة، لأنها انصبّت على بعض جوانب الأدب الأندلسي بينما بقي أعظم جانب منه مهمّشاً، ألا وهو الجانب الروحي، الذي يُعدّ عصب الأمة وشريان حياتها. ويتمثل هذا الجانب في شعر الزهد، هذا الفن الذي لم يحظ بعناية الباحثين والدارسين - في حدود علمي - إلاّ بالقليل من الدراسات التي تناولته من الناحية التاريخية. بل حتى المتخصصين في دراسة الأدب الأندلسي والمؤرخين له، عندما يتناولون هذا الجانب يشيرون إليه بإشارات سريعة. فهذا الدكتور إحسان عباس في كتابه : «تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، وتاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين» قد أشار بسرعة إلى شعر الزهد، وذهب في كتابه الأول مذهباً فيه إجحاف في حق شعراء الزهد في الأندلس، إذ قال : بأن قارئ هذا الشعر يحسّ بشخصية أبي العتاهية في أفكاره ومعانيه، مع أن تلك المعاني والأفكار مستقاة من الدين الإسلامي الخفيف، ومتلونة بصبغة البيئة الأندلسية، مما يدل على أنها ملاحظة عابرة، تفتقر إلى الموضوعية والدقة العلمية التي تفرض علينا التأمّني في إصدار الأحكام.

أما في الكتاب الثاني فقد تحدث عن - شعر الزهد - بشيء من التفصيل وقسمه حسب مصادره إلى قسمين : قسم يصدر عن الفلسفة، وقسم يصدر عن الورع والتقوى. إلاّ أنه اكتفى بالإشارة إلى بعض الشعراء وسكت عن بعضهم وأعظمهم، وأرسخهم قدما في هذا الفن، أمثال : ابن حزم، والحميدي، وأبو الوليد الباجي والطرطوشي وأحمد بن يحيى عيسى الإلبيري، وغيرهم ممن سيكشف عنهم هذا البحث إن شاء الله.

أما غرسية غومس في كتابه : «الشعر الأندلسي» والذي حاول من خلاله أن يعرفنا بالشعر الأندلسي، مبيّنا مراحل تطوره وخصائصه، فقد أشار باستحياء إلى شعر الزهد، بينما استفاض في الحديث عن شعر الحب والجمال والخمرة والوصف..

وكذا الدكتور جودت الركابي في كتابه : «في الأدب الأندلسي»، لم يعط هو الآخر شعر الزهد حقه من الدراسة، مثل ما فعل مع شعر الطبيعة والموشحات.. وغيرها من المواضيع التي تحظى دائما باهتمام الدارسين والمتخصصين.

أما الدكتور مصطفى الشكعة في كتابه : «الأدب الأندلسي : موضوعاته ومقاصده»، فقد أشار إشارة سريعة إلى شعر الزهد، وعده ظاهرة تطرّف في بلاد الأندلس المليئة بالمتعة - على حد تعبيره - ناسيا أن تلك البيئة بيئة إسلامية، والزهد فيها أمر ضروري. أما الدكتور بطرس البستاني في كتابه : «أدباء العرب»، فقد كان موضوعيا، إذ عدّ فنّ الزهد في الشعر الأندلسي أمرا ليس عجيبا، لأن البلد إسلامي. ويظل ذلك مجرد إشارة سريعة، لا تروي ظمأ الدارس، ولا تعطي ذلك الفن حقه، في التعريف به وبأعلامه الذين لا تقل مكانتهم عن مكانة إخوانهم في المشرق. وظل هذا الموضوع مهمشا، ليست له دراسة مستقلة، وبقيت مادته في بطون الكتب لم ينفذ عنها غبار التناسي.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة - رغم صعوبة دربها - لتكشف عن جانب من جوانب الشعر الأندلسي، هذا الشعر الذي يمثل شخصية المسلم الملتزم، وينم عن قيم روحية وأدبية رفيعة جدية بالدراسة والعناية.

ولأهمية هذا الشعر، ولكون مادته مادة بكر لم تحظ بعد بالتأليف والتصنيف والدراسة، وجدتني أحاول جاهدة جمع ما تبعث منه في المصادر والمراجع، محاولة تصنيفه وتبويبه، ليكون ديوانا لشعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري.

كما أرجو أن يكون هذا البحث بداية لبحوث أخرى مستقبلا في هذا الميدان، تخصص فيها دراسات فنية لشعر كل شاعر على حدة، لأن لكل شاعر سماته وخصائصه التي يتميز بها عن غيره.

وقد كانت مسيرة البحث طويلة وشاقة لأن معظم الدواوين مفقودة والمادة الأدبية متفرقة في المصادر المختلفة، فتطلب ذلك مني مجهودا كبيرا وصيرا طويلا، لاستخراج الأشعار وجمعها وتبويبها.

ومن أهم المصادر التي اعتمدت عليها في جمع المادة الأدبية : كتاب الذخيرة لابن بسام، الذي أفادني كثيرا، لأنه ذكر مجموعة من الشعراء وجملة من أشعارهم، وكتاب : نفع الطيب للمقري، وكتاب الخريدة للأصفهاني، هذا إلى جانب كتب التراجم التي تعنى هي الأخرى بذكر آثار المترجم لهم مثل كتاب : وفيات الأعيان لابن خلكان، والصلة لابن بشكوال، وكتاب المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، وغيرها من الكتب التي تعنى برواية الأخبار والأشعار.

أما في الدراسة الفنية فقد استفدت بوجه خاص من كتابي العمدة لابن رشيق، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني.

أما المراجع الحديثة فقد يسرت لي الدرب وأعانتني على تخطي الصعاب، ومن أهم تلك المراجع : كتاب الصورة الأدبية للدكتور مصطفى ناصف، وكتاب بناء القصيدة في النقد العربي القديم للدكتور يوسف حسين بكار، وغير ذلك من الكتب التي سيرد ذكرها في قائمة المصادر والمراجع.

وقد اقتضت طبيعة البحث أن أتبع المنهج التكاملي لملاءمته للدراسات الأدبية، وجمعه بين مناهج البحث المتعددة، من تأريخ واستقراء ووصف وتحليل، مما يعدّ عدّة للباحث في الأدب. وقد قسمت الموضوع إلى : مقدمة وأربعة فصول وخاتمة وذيلته بالفهارس العامة : فهرس الآيات - فهرس الأشعار - قائمة المصادر والمراجع وفهرس الموضوعات.

1- الفصل الأول : جعلته توطئة للبحث، وتناولت فيه الحديث عن المعالم العامة للحياة في الأندلس، خلال القرن الخامس الهجري، من الناحية السياسية، والاجتماعية والاقتصادية والفكرية. وقدمت من خلاله ملاحظات أساسية وسريعة عن تلك الحياة لارتباطها بالظاهرة الأدبية، لأنّ الأدب ابن بيته وعصره.

2- وفي الفصل الثاني : تحدثت عن الزهد ونشأته، وأسبابه ومصادره، بصفة عامة، وفي الأندلس خلال القرن الخامس بخاصة.

3- وفي الفصل الثالث : تحدثت عن شعر الزهد في القرن الخامس الهجري بالأندلس، وقسمته حسب مواضيعه إلى ثلاثة أقسام رئيسية :

1- طاعة الله والتوبة إليه.

2- التحذير من الدنيا وفتنها.

3- ذكر الموت والقبور.

وبينت من خلال هذه المباحث مدى ارتباط هذه الموضوعات بالفكر الإسلامي.

4- وأما الشّصل الرابع : فخصّصته للدراسة الفنية، والتي حاولت من خلالها الوقوف على خصائص هذا الشعر وسماته من خلال استقرائه وتحليله، متناولة أهمّ عناصره : من حيث بناء القصيدة وأوزانها وقوافيها. ثم تطرّقت إلى اللغة والأسلوب، للوقوف على معجمهم الشعري وأهمّ روافده.

ثم تناولت جانب التصوير الفني، والذي أفضى بنا إلى أنّ صورهم في - معظمها - حسية تقليدية، تعبر عن عصرهم وبيئتهم وثقافتهم.

5- وختمت البحث بخلاصة مركّزة ضمّنتها أهمّ النتائج التي توصلت إليها خلال البحث.

وأخيراً أرجو أن أكون قد وفّقت إلى ما صبوت إليه من عرض الموضوع وكشف جوانبه ودراسته واستخلاص نتائجه، وأن يكون فيه ما يفيد دارسي الأدب الأندلسي، ولا أشك في أنّ إعادة النظر فيه، والبحث عن دواوين شعرائه وتحقيقها سيغني هذا الموضوع ويملاً ثغراته.

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة، إلّا أن أتوجّه بالشّكر والامتنان إلى كل من ساهم في مساعدتي من قريب أو بعيد في إعداد هذا البحث. وأخصّ أستاذي المشرف: الدكتور/ حسيني علي رضوان.

ومدير جامعة الأمير عبد القادر الأستاذ الدكتور: رابح دوب، والأساتذة الأفاضل الذين لم ييخلوا علي بكتبهم وملاحظاتهم القيمة وقتهم الثمين.

جامعة الأميرة
الفصل الأول
لمحة عن الحياة العامة
في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري

- الحياة السياسية.

- الحياة الاجتماعية والاقتصادية.

- الحياة الثقافية والفكرية.

الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

الحياة السياسية :

لقد شهد القرن الخامس الهجري في الأندلس نهاية الدولة الأموية، ونهاية الحكم الواحد، وانقسام البلاد، وتعدد الحكام، الذين اختلفت أجناسهم، وتعددت أهواؤهم، واشتد الصراع بينهم، وكثرت الفتن والاضطرابات والتناقضات في جميع المناحي⁽¹⁾، وبخاصة في السياسة والفكر، والحياة الاجتماعية، وعُرف حكام هذه الحقبة بملوك الطوائف.

قيام دويلات الطوائف :

لقد « قام الطوائف بعد انقراض الخلائف وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالي بالجهات، واقتسموا خطنها، وتغلب بعض على بعض، واستقل أخيرا بأمرها منهم ملوك، واستفحل أمرهم، وعظم شأنهم، ولاذوا بالجزى للطاغية أن يظاهر عليهم أو يبتز ملكهم، وأقاموا على ذلك برهة من الزمان حتى قطع إليهم البحر ملك العدو صاحب مراکش أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني⁽²⁾، فخلعهم وأخلى منهم الأرض⁽³⁾».

1- انظر : دائرة معارف القرن العشرين، لمحمد فريد وجدي، دار الفكر - بيروت - ط2/1979م، ج1، ص657، ومنجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، محمد أمين - مط. السعادة - الخانجي، مصر، ط1؛ 1907م، مج9، ص75.

2 - يوسف بن تاشفين، أبو يعقوب الصنهاجي اللمتوني الحموري، عاش بين سنتي [410 - 500 هـ] وشمل سلطانه المغرب الأقصى والمغرب الأوسط، وجزيرة الأندلس. عرف بمجزمه وضبطه لمصالح مملكته. انظر : تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية، لمحمد عبد الله عنان، ط2، 1970، مكتبة الخانجي - القاهرة - مصر، ص225. والأعلام : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين لخير الدين الزركلي. دار العلم للملايين - بيروت - مج8، ط5، 1980م، ص222.

3 - نفع الطيب من غصن الأندلس للمقري، أحمد بن محمد التلمساني، تحقيق: محمد صبحي الدين عبد الحميد دار الكتاب - بيروت - مج1، ص438.

وقد كثر عدد دويلات الطوائف حتى إنه ليصعب علينا ضبطها، وضبط مُددها(1)، لأن عددا من ملوكها تولى مدناً مختلفة وفي أزمنة مختلفة، وكانوا خلال ذلك يتزعمون المدن من بعضهم بعض، كما استولى على بعضها الآخر النصارى. وسنحاول فيما يأتي أن نتطرق إلى أشهر هذه الدويلات، ونعرض طرفاً من أخبارها وصراعتها :

دولة بني عباد :

وهي دولة عربية، يعود نسب ملوكها إلى بني لخم، وأصلهم من جند حمص الداخلين إلى الأندلس. وقد قامت هذه الدولة بإشبيلية بعد انهيار الدولة الأموية في نهاية المائة الرابعة للهجرة.

ومؤسسها هو محمد بن عباد قاضي المدينة، سنة 414 هـ - 1023م، الذي استطاع أن يتغلب على حاكمها آنذاك القاسم بن حمود، ويطرده خارج المدينة بمساعدة رئيس الجند ابن زيري، فصار الحكم لابن عباد، الذي اعتمد في قيام دولته على تأييد الشعب والثغاة حوله، وخاصة بعد طرده للبربر من البلاد.

وما إن توطدت له الأركان حتى استبد بالحكم، وجند الجند(2)، واقتنى السلاح واشترى العبيد، وتعدت أطماعه في الحكم حدود مملكته إلى ناحية الغرب لخلق هذه الأخيرة من المنافسين الأقوياء، فاستطاع الاستيلاء على لبلبة وإمارة ولبة، وجزيرة شلطيّش، وإمارة شتمرية وباجة وأركش ومورور، ورندة وقرمونة.

وقوي الصراع بينه وبين بني حمود وشيعتهم من البرابرة، وبات كل منهما يخشى الآخر على نفسه، فتحالف ابن عباد مع البرازلي صاحب قرمونة، إحدى حصون إشبيلية من الشرق، ودرّ عليه هذا التحالف قوات من الجند ساعدته على قتال بني الأفضس والاستيلاء على مدينة باجة.

1 - تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط1، 1981، مج4 ص386.
2 - تاريخ ابن خلدون، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، 1983م، مج4، 337، 338، 339.

لكنه ما فتىء أن شعر بالخطر الذي يهدده من طرف الحموديين، وبخاصة بعد استيلاء يحيى بن حمود على قرمونة، وكثرت تهديدات الحموديين له باسترجاع إشبيلية، فاستعان ابن عباد هذه المرة بالحيلة والدهاء إذ أعلن ظهور هشام المؤيد⁽¹⁾

وكان ذلك في أواخر سنة [426 هـ - 1035م] ليدهض دعوى الحموديين في الخلافة بظهور الخليفة الشرعي، واستبدَّ أبو القاسم بالأمر إلى أن هلك سنة [433 هـ - 1042م]⁽²⁾ فتولى الحكم بعده ولده عباد الملقب بالمتعصد، وعرفت المملكة في عهده ازدهارا ورقيا في الجانب العمراني والفكري والأدبي، رغم الصراعات العظيمة التي كانت بينه وبين خصومه من البربر، وعلى رأسهم باديس بن حبوس ملك غرناطة. واشتدت حروبه، وحقق انتصارات عظيمة على ملوك الطوائف، واستطاع أن يستولي على الكثير من ممالكهم⁽³⁾.

واتسعت مملكته على جسر من الغدر، وبجر من الدماء، وظلت نار الحرب مشتعلة بينه وبين باديس بن حبوس إلى أن هلك سنة 461 هـ - 1069م، وولي الحكم بعده ابنه المعتمد بن المعتصد، الذي سار على نهج أبيه في توسيع مملكته، وخاض هو الآخر سلسلة من الحروب، إلا أنه لم يكن محبا للدماء كوالده، ليليه إلى الأدب والشعر، واشتهاره بالقريض أكثر من اشتهاه بالسياسة، ومع هذا فقد استولى على قرطبة سنة 463 هـ - 1071م، وقهر كثيرا من ملوك الطوائف واستولى على ممالكهم، وسطعت إشبيلية في عهده، وكادت أن تعيد مجد قرطبة الذهب⁽⁴⁾.

1 - هشام المؤيد بالله : ابن الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر. ولي الحكم بعد أبيه سنة 366 هـ وهو يومئذ غلام. فتغلب على تدبير ملكه حاجبه المؤيد أبو عامر بن عبد الله بن محمد عبد الله بن أبي عامر. انظر : طبقات الأمم ص 88. والمغرب في حلى المغرب ج 1 ص 193، 194، 195.

2 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، لمحمد عبد الله عنان، ط 1، 1960م. مطب. لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ص 60، 53.

3 - تاريخ ابن خلدون، ص 336-341. ص 4.

4 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، لمحمد عبد الله عنان ص 60.

وظل المعتمد متزجعا على عرش إشبيلية إلى أن تغلب عليه يوسف بن

تاشفين، وساقه أسيرا إلى أغمات سنة 484هـ - 1096م(1).

دولة بني جهور :

وقامت هذه الدولة بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة، ومؤسسها هو أبو الحزم جهور بن محمد بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي المغافر بن أبي عبيدة الكلبي(2). وقد كان وزيرا في الدولة العامرية وشهد الفتنة، ولم يدخل فيها وتفرغ للمملكة وترتيب الأمور. عرف بسداد الرأي، والحكمة مما جعله يحظى بمكانة مرموقة في الأوساط الشعبية التي رشحته لرئاسة الدولة، فترجع على عرش قرطبة الغراء سنة 422هـ - 1031م، وما إن اعتلى كرسي العرش حتى جمع حوله القادة والزعماء وتحدث باسمهم، وكان يرجع إليهم في الأمور الهامة، ولا يصدر القرارات إلا باسمهم، وهكذا اتخذ سياسة رشيدة قوامها الشورى، وعُرفت حكومته بحكومة الجماعة(3) ولحكومته وتواضعه لم ينتقل من داره إلى قصر الخلافة، بل ظل مقيما بالدار التي كان بها قبل توليه الحكم. وإلى جانب فضله وتواضعه عامل الناس بالحسنى والرفق، فكان يعود المريض، ويخرج للصلاة، فأحبه الناس وساد الأمن والاستقرار في ربوع مملكته، وغدت ملاذا للزعماء اللاجئين والرؤساء المخلوعين(4)، أمثال عبد الله بن سابور صاحب أشونة(5) من أعمال الغرب حينما انتزعها منه ابن الأفطس صاحب بطليوس. وكانت حكومته تبسط سلطانها على جيان وأبيدة وبياسة أرجوانة

1 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب - لأبي الفلاح عبد الحمى بن العماد (ت 1089م)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، نشر دار الأفاق الجديدة - بيروت - ج4، ص312، (د - ت).

2 - تاريخ ابن خلدون، ج4، ص439.

3 - تاريخ إسبانيا الإسلامية [كتاب أعمال الأعلام في من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الإسلام] للسان الدين ابن الخطيب، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال، ط2، 1956م. دار المكشوف - بيروت - لبنان، ص146.

4 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، لمحمد عبد الله عنان، ص20-30.

5 - المرجع نفسه، ص30.

وأندو حجار. وظل الأمر إليه حتى خاطبهم ابن عباد محمد بن إسماعيل مدعياً أن هشام المؤيد عنده بإشبيلية، فخطب له بقرطبة مدة من الزمن، وحاول ابن عباد دخول قرطبة إلا أن أهلها رفضوه.

وظل ابن جهور في الحكم إلى أن توفي سنة 435هـ (1) - 1044م، وخلفه ابنه الوليد الذي حاول في بداية الأمر انتهاج طريق أبيه لكنه حاد عنه، وحاول الاستبداد بالحكم، فتسمى بذي السياتين المنصور بالله، والظاهر بفضل الله، وخطب له على المنابر، وبعد وفاته استبدَّ بالحكم ولده عبد الملك، وسجن أخاه عبد الرحمان - منافسه في الحكم - وتقرَّب من المعتمد بن عباد، واستعان به على ردِّ خطر بني ذي النون، لكن ابن عباد امتدَّت يده بعد ذلك إلى قرطبة فأخذها، ونفى ابن جهور إلى جزيرة شلطيّش (2)، وبذلك انتهت دولة الجهاورة بعد حكم دام أربعين سنة، وأصبحت قرطبة تابعة للمعتمد بن عباد سنة 462 هـ - 1070م (3).

الدولة العامرية :

كانت من أشهر دويلات الطوائف، أقامها الموالي العامريون أيام الفتنة البربرية الكبرى، وذلك بمبايعتهم للمنصور عبد العزيز بن عبد الرحمان الناصر بن أبي عامر بشاطبة سنة 411هـ (4) - 1020م، واستطاع العامريون أن يضعوا أيديهم على كثير من المقاطعات. وتعاقب على الحكم عدد كبير منهم، وكان من أشهرهم، مجاهد العامري، الذي استقلَّ بدانية (5) والجزائر الشرقية (ميورقة - ومنورقة - ويابسة) وغزاً

1 - تاريخ ابن خلدون مج 4، ص 343.

2- شلطيّش : مدينة بالأندلس قرب مدينة لبلبة، عاُ صفة جزيرة الأندلس للحميري ص 110.

3- دول الطوائف : عبد الله عنان، ص 20 - 30.

4- تاريخ ابن خلدون، مج 4 ص 348.

5- دانية : مدينة على البحر، كثيرة الخيرات. أنجبت عددا كبيرا من العلماء والكتّاب والشعراء أيام مجاهد العامري وابنه إقبال الدولة علي. انظر : المغرب في حلي المغرب ج 2 ص 400.

سردانية وسواحل إيطاليا، وكون أسطولا قويا مكّنه من السيطرة على غربي البحر الأبيض المتوسط(1)، وكذلك كان الفتى خيران الصقلي العامري الذي حكم المرية، وانتقلت منه إلى زهير الصقلي العامري، وعرفت مملكتهم الازدهار العلمي والأدبي.

دولة بني الأفتس :

قامت ببطليوس غرب الأندلس، وحكمها أيام الفتنة ابو محمد عبد الله بن مسلمة التحجبي المعروف بابن الأفتس(2)، الملقب بالمنصور، والذي استولى على الأمر سنة 413هـ - 1022م.

وولي بعده ابنه المظفر أبو بكر، وكان من أعظم ملوك الطوائف، وكانت له وعليه حروب مع ابن ذي النون وابن عباد. ولما هلك المظفر سنة 460هـ - 1068م، تولى الأمر بعده ابنه المتوكل أبو حفص عمر بن محمد المعروف بساجدة، وفي عهده سقطت بطليوس بأيدي المرابطين سنة 488هـ - 1094م. وكانت هذه الدولة دولة متحضرة نهضت بها العلوم والفنون.

دولة بني هود :

قامت في سرقسطة، وهم من أسرة عربية يعود نسبهم إلى الأزدي، وكان منذر بن مطرف بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن هاشم التحجبي هو مؤسسها، وتلقب بالمنصور، وظل الحكم فيهم وراثيا.

واشتهر من ملوكهم يوسف المؤمن، الذي كان عالما وله تأليف مثل الاستهلال(4)، وتولى الحكم بعده المستعين الذي كانت على يده وقعة وشقة، التي هلك فيها نحو عشرة آلاف من المسلمين. وطال حكمهم لأنهم كانوا في شمالي الأندلس يعيدون عن دولتي المرابطين والموحدين.

1 - في التاريخ العباسي والأندلسي، لأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية - بيروت - ط 1972م ص 467.

2 - بطليوس بالأندلس من إقليم ماردة. انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص 93.

3 - تاريخ ابن خلدون، مج 4 ص 244 - 345.

4 - الاستهلال : وردت في نفع الطيب : الاستكمال، وهو كتاب في الرياضيات.

وقد كثرت بين أمراء بني هود الصراعات على الحكم، كما كثرت حروبهم مع ملوك الطوائف، ومع الإسبان من جهة ثانية، إلى أن غلب عليها الطاغية فيما غلب عليه من شرق الأندلس(1).

دولة بني ذي النون :

قامت في طليطلة(2) على يد مؤسسها إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن بن سليمان بن ذي النون، وأصله من قبائل هواراة إحدى بطون البرانس. تغلب على حصن أفلنتين زمن الفتنة البربرية سنة 409هـ - 1016م. وكانت طليطلة يد يعيش بن محمد يعيش، ولما هلك سنة 427هـ - 1036م آلت طليطلة إلى إسماعيل الظافر فتوسعت المملكة، وامتدت إلى جنجاللة من عمل مرسية(3). وبعد وفاته تولى الحكم ابنه المأمون أبو الحسن يحيى، الذي عظم سلطانه بين ملوك الطوائف، فغزا بلنسية وأخذها من يد المظفر بن المنصور بن أبي عامر. كما استولى على قرطبة وملكها من يد ابن عباد بعد أن قتله.

ومن جهة أخرى كانت بينه وبين الطاغية مواقف مشهورة.

وما زالت مملكته قوية عظيمة إلى أن توفي، وتولى الأمر من بعده حفيده القادر بن يحيى بن إسماعيل بن المأمون يحيى بن ذي النون، وكان الطاغية ابن أذفونش(4) قد استفحل أمره، وقويت شوكته فضايق ابن ذي النون حتى تنازل له عن طليطلة سنة 478هـ - 1075م مقابل مساعدته على أخذ بلنسية، واستولى عليها وحكمها حتى قتل سنة 481هـ.

1 - دول الطوائف، محمد عبد الله عنان، ص 350 - 351.

2 - طليطلة : بالأندلس مركز لجميع بلاد الأندلس، مدينة عظيمة، كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق سنة 93هـ. وسقطت بيد النصارى سنة 478هـ. انظر : الروض المعطار في خبر الأقطار للحموي ص 393. وصفة جزيرة الأندلس عن كتاب الروض المعطار، ص 130.

3 - تاريخ ابن خلدون، مج 4، ص 345 - 346.

4 - الطاغية ابن الأذفونش : هو ألفونسو السادس، ملك قشتالة تولى الملك بعد وفاة والده فرديناند. انظر : تاريخ العرب، لمحمد أسعد طلس - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، ص 252، (د.ت).

وأما الدولة الزيرية :

فقد قامت بغرناطة وإلبيرة، وهي دولة بربرية. أسسها زاوي بن زيري بن مناد سنة 403هـ - 1013م. وقد كانت بينه وبين مجاهد العامري حروب فهزمه ابن زيري سنة 420هـ - 1029م، وقتل المرتضى المرواني، وغنم كثيرا من الأموال، وعندما رحل إلى القيروان استخلف ابنه على غرناطة، ثم ملكها ماكس بن زيري. ثم صار الحكم لباديس بن حبوس الصنهاجي، الذي تولى الحكم سنة 429هـ - 1046م، واستطاع أن يُوسّع حدود مملكته حتى بلغت أطرافها ما بين كورتي بسطة وجيان، إلى باب مالقة واستجة وما تحت ذلك من إقليم قرطبة(1).

ومن أخطاء باديس هو أنه استوزر كاتب أبيه وكاتبه إسماعيل بن النغلة اليهودي(2)، الذي مكن لليهود، وبنى لهم الدور والقصور، واستطال على المسلمين. ولما مات إسماعيل خلفه ولده يوسف، وكان خطره على المسلمين أشد من خطر أبيه مما أثار سخط الرعية، وكانت نكبته واليهود سنة 459هـ - 1067م(3)، فقد قتل وخلق كبير من قومه، بفضل قصيدة نظمها شاعر إلبيرة أبو إسحاق ومطلعها :

أَلَا قُلْ لِيَصْنَهَا جَاءَ أَجْمَعِينَ *** بُدْرُ النَّدِيِّ وَأَسْدُ الْعَرِينِ(4)

وقد توفي باديس في السنة نفسها، وولي بعده الحكم حفيده المظفر بن بلكين إلى أن خلع من طرف المرابطين سنة 483هـ - 1090م(5).

- 1 - تاريخ إسبانيا الإسلامية [أعمال الأعلام] للسان الدين بن الخطيب ص 230.
- 2 - ابن النغلة: إسماعيل بن يوسف بن النغلة اليهودي، استوزره باديس بن حبوس، وقرب منه ابنه يوسف. ولما ثارت صنهاجة وقتلت إسماعيل هرب "يوسف" إلى إفريقية. انظر ترجمته في : أعمال الأعلام ص 264، والإحاطة 270/1، والنفح 652/2، وابن خلدون 161/4، والبيان المغرب 264/3. ويلاحظ أن ابن الخطيب جعل "يوسف" هو المقصود بخلاف ابن سعيد وابن خلدون وابن عذاري، وهم الأصح لقرب عهدهم منه.
- 3 - تاريخ ابن خلدون، مج 4، ص 364. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري ج 3، ص 275.
- 4 - أعمال الأعلام، لابن الخطيب، من ص 231 إلى 233، وديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 89.
- 5 - تاريخ ابن خلدون، مج 4، ص 346.

وأما المرية فقد كانت لبني صمادح، وبنو برزال حكموا قرمونة، وفي أركش بنو خزرون...

ولقد كان الخلاف والصراع بين هذه الدويلات على أشده على الصعيد الداخلي، أما من الخارج فما فتىء الخطر الأجنبي يهدد الدولة الإسلامية بالأندلس حتى انتهى أمرها، واستُؤصِلت جذورها على يد إسبانيا المسيحية، التي استطاعت أن توحد قواها، بفضل الملك القشتالي ألفونسو السادس (الأذفونش) ملك قشتالة، ذلك الرجل الطموح الذي وحد مملكة قشتالة ومملكة ليون، وبسط نفوذه على الممالك الإسبانية الشمالية، واحتل طليطلة قلب الدولة الإسلامية سنة 478هـ - 1085م. ومن ثم استطاع أن ييسط نفوذه على المدن والقرى والضياح المجاورة(1).

وهكذا كان سقوط طليطلة كارثة عظيمة على المسلمين في الأندلس. فقد فقدوا بفقدانها أراضي شاسعة امتدت حتى جبال قرطبة، وسمى الإسبان المنطقة الجديدة المختلة باسم : قشتالة الجديدة.

وأحس الأندلسيون بخطر الضياح، فعبر عن ذلك الشاعر الأندلسي محمد عبد الله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال بقوله :

حُتُوا رَوَّاحِلَكُمُ يَا أَهْلَ أُنْدَلُسٍ *** فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْعَلَطِ

السُّلُكُ يُنْثَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى *** يَسْلُكُ الْجَزِيرَةَ مَثُورًا مِنَ الْوَسْطِ

وَمَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ عَوَاقِبَهُ *** كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَطِ(2)

ورغم ذلك لم يتحد ملوك الطوائف لمواجهة الخطر المسيحي، بل ظلوا على حالهم من التفرق والتنافس فيما بينهم، وبادروا إلى استرضاء ألفونسو السادس، فدفعوا له الجزية، وأرسلوا له الهدايا الثمينة. كل ذلك لم يكن يرضي ألفونسو أو يحد من أطماعه، بل ازداد تطلعا إلى الاستيلاء على المدن الإسلامية، وأخذ يتحين الفرص

1 - تاريخ العرب، لمحمد أسعد طلس، ص252. ومجلة العربي : 1/1985 العدد : 315، طليطلة مدينة

الثقافة والترجمة. لسيمون الحايك، ص64.

2 - نفع الطيب، للمقري، مج4 ص352.

لتحقيق حلمه في الاستيلاء على إشبيلية وقرطبة اللتين كانتا بيد ابن عباد، ولما أحس المعتمد بالخطر الذي يهدد بلاد المسلمين، استعان بالمرابطين ودعا يوسف بن تاشفين لتخليص الإسلام والمسلمين من الخطر المسيحي⁽¹⁾، الذي أحاط بهم في الجزيرة، فاجتاز هذا الأخير العدو، ونزل بالجزيرة الخضراء واستطاع أن يكون جيشا عظيما من القوات الإسلامية بالأندلس، وكلل اتحادهم بالنجاح، واستطاع المرابطون أن يتغلبوا على القوات المسيحية، وعرفت هذه المعركة في التاريخ بمعركة الزلاقة⁽²⁾.

الأندلس بعد الزلاقة :

بعد الزلاقة، التي حققت للمسلمين النصر العظيم، رجع يوسف بن تاشفين إلى المغرب تاركا فرقة عسكرية مكونة من ثلاثة آلاف من المقاتلين المرابطين تحت إمرة المعتمد بن عباد، الذي استطاع بعد ذلك أن يستعيد كثيرا من المدن مثل : إقليش وفونكة ووُبدة، واتجه بعد ذلك إلى مرسية.

ولم يكد يمضي عام على هزيمة الفونسو السادس، حتى بدأ يستعيد قوته، ونقل نشاطه إلى شرق الأندلس الذي كان ممزقا سياسيا عكس الغرب الذي كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما : مملكة إشبيلية وبطليوس وتدعمهما قوة المرابطين. وهكذا لم تكن معركة الزلاقة ضربة قاضية للعدو، الذي جمع قوته وراح يتحكم من حصن لبيط بالقرب من لورقة على قواعد شرق الأندلس، ولما استفحل

1 - تاريخ ابن خلدون، مج4 ص341، والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عناري، ج3، تحقيق: إ. ليفي بروفنسال. دار الثقافة - بيروت - (د.ت)، ص243.

2 - معركة الزلاقة : بطحاء الزلاقة من إقليم بطليوس من غرب الأندلس، فيها كانت المعركة الشهيرة بين المسلمين بقيادة يوسف بن تاشفين والطاغية أذفونش بن فرذند و كان ذلك سنة 479هـ - 1086م، وقد فتك يوسف وجنده بالأذفونش الذي لجأ بأعجوبة من الهلاك. انظر : صفة جزيرة الأندلس للحميري ص83. وتاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، لحمدي عبد المنعم محمد حسين ص58. والروض المعطار في خبر الأقطار للحميري ص287.

خطره، استنجد أهل الأندلس مرة أخرى بيوسف بن تاشفين، فدخل الجزيرة الخضراء سنة 481هـ - 1088م. وكتب من هناك إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى الجهاد، فلبوا النداء ولحق به تميم بن بلكين أمير مالقة والمعتصم بن صمادح والأمير عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة، والمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف إلا ابن الأفطس صاحب بطليوس. واتجهت تلك الحشود إلى حصن لبيط، و ضربوا حوله حصارا دام أربعة أشهر(1)، وفي هذه الأثناء حدث انشقاق في قوات المسلمين، بسبب خيانتهم لبعضهم واتصالهم بنصارى إسبانية. وتقايسوا في الدفاع عن أراضيهم، واستغل ألفونسو ضعفهم وتفرقتهم ووجه نحو الحصار قوات جرارة فاضطر ابن تاشفين للانسحاب، وعاد إلى المغرب بعد تأكده من أن الجهاد يجب أن يكون أولا للقضاء على ملوك الطوائف، ليأمن غدرهم وطعنهم له من الخلف.

وشجعه على ذلك فتاوي الشيوخ التي وصلتته من المشرق والمغرب، والذين أجازوا له التخلص من ملوك الطوائف.

واجتاز للمرة الثالثة مضيق جبل طارق سنة 483هـ - 1090م(2)، وبدأ عمله بعزل أمير عبد الله بن بلكين صاحب غرناطة لتواطئه مع ألفونسو السادس، ثم عزل تميم بن بلكين صاحب مالقة، وأرسلهما إلى أعماط معززين بالأغلال، إلى أن توفيا بسجنهما.

وفي عام 484هـ - 1091م، خرجت قواته للقضاء على ملوك الطوائف، وألقي القبض على المعتمد بن عباد، ونفاه إلى أعماط، وظل بسجنه إلى أن توفي عام 488هـ - 1095م(3).

1 - تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، لعمادي عبد المنعم محمد حسين ص 60 - 61.

2 - تراجم إسلامية : شرقية وأندلسية، لعماد عبد الله عنان، ص 232.

3 - نفع الطيب للمقري، ج 1، ص 438 - 439.

وانتهى عهد ملوك الطوائف، لتقوم دولة المرابطين، وتعيد للإسلام
والمسلمين العزة والمجد(1) في الأندلس إلى حين.

و أخيراً يمكننا القول : إن هذا العصر مر بمراحل ثلاث :

1- المرحلة الأولى : وهي التي عرفت تلك المحاولات المتكررة لإنقاذ الأندلس وإعادة
الخلافة الأموية وانتهت سنة 422هـ - 1031م.

2- المرحلة الثانية : هي مرحلة البناء الداخلي، إذ قامت كل دويلة ببناء نفسها
وتوسيع ملكها منافسة غيرها في العمارة والأدب، وانتهت هذه
المرحلة بسقوط طليطلة عام 478هـ - 1085م.

3- المرحلة الثالثة : هي المرحلة التي دق فيها ناقوس الخطر بسقوط طليطلة مفتاح
الأندلس من الجهة الشمالية، وتلا ذلك السقوط استدعاء المرابطين
بقيادة يوسف بن تاشفين الذي استطاع كبح جماح الأذفونش وحث
من أطماعه بانتصاره في معركة الزلاقة : 479هـ - 1086م.

ثم طمع ابن تاشفين في الاستيلاء على الأندلس والقضاء على ملوك
الطوائف المتناحرين، فاستولى عليها الواحدة بعد الأخرى، ولم يترك منها سوى دولة
بني هود في سرقسطة، وبلنسية التي كانت بيد القنيطور. وامتدت دولتهم حتى سنة
495هـ - 1002م(2).

الحياة الاجتماعية والاقتصادية :

لقد كان المجتمع الأندلسي في هذا القرن يتكون من عناصر مختلفة الأجناس والأهواء،
والديانة، فمن عرب وبربر، إلى صقالبة وإسبان مسيحيين ومسلمين، ويهود(3).

-
- 1- تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين لحمدي عبد المنعم حسين، ص 6261.
 - 2- تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام في من بوع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام) للسان الدين
ابن الخطيب السلماني، تحقيق، إ. ليفي بروفنسال، ط2، ص 241 وما بعدها، (د.ت).
 - 3- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، للأحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية ط7، 1984م، ج4
ص 70.67.

فأما العرب فقد دخلوها فاتحين بمساعدة البربر، وقد اختلط هؤلاء الفاتحون بالسكان الأصليين عن طريق الزواج والمصاهرة، مما أدى إلى ظهور جيل جديد عرف بالمولدين.

وأما الأسر الإسبانية فمنها من اعتنق الإسلام، ومنها من ظل على نصرانيته. كما كان الصقالبة يشكلون طبقة اجتماعية عظيمة، لعبت دورا هاما في الحياة السياسية والاجتماعية، ولاسيما في مدينة قرطبة(1).

وينحدر هؤلاء الصقالبة من أصل أجنبي وصلوا إلى الأندلس عن طريق الأسر، فهم إذن عبيد إما أسيروا في الغارات على الشواطئ الأوروبية، وإما عبيد اشتراهم النخاسون من فرنسا وإيطاليا وغيرهما لياعوا في أسواق الرقيق في الأندلس. واتخذ من هذه الفئة الحراس والجند، وقد استطاع بعضهم أن يتحرر من العبودية، ويشغل مكانا لائقا ومنصبا عاليا في الحياة الاجتماعية والسياسية، وكان منهم أصحاب الأراضي والضياع، وتهذبت طباعهم فكان منهم الشعراء والأدباء والمؤلفين، وأبرز كتابهم أبو عامر(2) أحمد بن غرسية.

كما ضمت قرطبة عددا كبيرا من اليهود، والذين كانوا يمتحنون تجارة العبيد وبيع أدوات الزينة. وتقلد بعضهم المناصب العالية في الدولة، وأمعنوا في التكبر والوقاحة، وشاركوا في المؤامرات الدنيئة ضد الكيان الأموي، وكان منهم الكاتب الوزير إسماعيل ابن النغرلة وابنه يوسف، اللذان استطاعا أن يحظيا بثقة حبوس بن ماكس بن زيري ملك غرناطة، فقلدهما أمور الدولة.

1 - في التاريخ العباسي والأندلسي، لأحمد مختار العبادي، دار النهضة العربية - بيروت، ط1972، ص366.367.368.

2 - أبو عامر : أحمد بن غرسية الكاتب، من نصارى البشكنس من الشمال الغربي الإسباني، سبي صغيرا، وتعهده صاحب دانية بالتربية والتعليم، ونشأه على الإسلام والعربية، حتى بذ أهل زمانه في الفصاحة. وأشهر ما كتبه : رسالة حاول فيها أن يعلي من شأن قومه، وينفض من قيمة العرب.

ورغم هذا الاختلاف بين الأجناس والأهواء، فإن لمة صفة مشتركة ظلت تجمع هذه العناصر ببعضها وتميزها عن غيرها، وكيف لا والرجل الأندلسي معروف بأنافته، وحسن هندامه، وحبه للهو والموسيقى والغناء(1)، وهو مع ذلك حسن التدبير، محب للعلوم والفنون، كما ألهمته تلك الأرض الكريمة الطيبة صفة الحب، فأحب دينه وتعصب له، وأحب بلاده وارتبط بها ونسب إليها(2)، فلقب هذا بالباجي، وذلك بالقرطبي وذلك بالطرطوشي وهكذا..

وإذا كان تعصبهم للدين أحرس الألسنة، فإننا نرى تساهلا في الحياة وبخاصة إذا لم يمس ذلك الجانب الدين والسياسة (الحكم)، مما أدى إلى انتشار اللهو وانغماس الناس عامتهم وخاصتهم في المجون، فعمت مجالس اللهو البلاد، وساءت الأخلاق، وأفسدت الراحة النفوس، وهان عليها قبول الصدمات والهوان، وظهر فيهم الشعور بحب النفس والأثرة، فاستنجدوا بأعدائهم، واستعدوهم على إخوانهم بسبب الطمع والجشع الذي استعبدتهم. ولا شك أن زواجهم بالأجنبيات وميلهم إلى الترف وانغماسهم في اللهو كانوا من العوامل الهدامة التي أضعفت فيهم روح الإسلام، وفطرتهم على الخنوع. فهذا المعتمد بن عباد - مثلا - يتزوج من جاريتة اعتماد الرميكية وينفق الأموال الطائلة لإرضائها، وخير دليل على ذلك هذه القصة التي تروي لنا « أنها رأت ذات يوم بإشبيلية نساء البادية يبعن اللبن في القرب، وهن رافعات عن سوقهن في الطين فقالت له : أشتهي أن أفعل أنا وجواري مثل هؤلاء النساء. فأمر المعتمد بالنعير والمسك والكافور وماء الورد وصُير الجميع طينا في القصر، وجعل لها

1 - نفع الطيب للمفري، مج 1 ص 223.

2 - المصدر نفسه، ص 217.

قربا وحبالا من إبريسم، وخرجت هي وجواربها تخوض في ذلك الطين»(1)، وسواء كانت هذه الحادثة وقعت كما هي أو مغال فيها، فإن تنافس الملوك في بناء القصور وتزيينها بالحدائق الغناء، التي أنفقت فيها الأموال الطائلة أمر لا مرأى فيه، وكل ذلك دفعهم إلى إئثار كاهل الرعية بالضرائب لجمع الأموال قصد إشباع رغباتهم وإرضاء أهوائهم.

كما حظيت المرأة في هذا المجتمع بحرية كبيرة، فشاركت في مجال العلم والأدب، وكان لها حظ وفير فيهما، وهي ميزة فاق بها الأندلس غيره من أصقاع الإمبراطورية الإسلامية آنذاك. وقد ذكر المقرئ عددا من الشاعرات الأندلسيات الجيديات، نذكر منهن : الشاعرة الأميرة التي عرفت بأدبها وجمالها، ولادة بنت المستكفي، وأم الكرم(2)، بنت المعتصم بن صمادح صاحب المربة، ونزهة بنت القلاعي(3)، ومهجة بنت التياني القرطبية(4)، ومعظمهن شاعرات ماجنات. كما كان من بين النساء الملمات المؤدبات وقد تخرج ابن حزم على أيديهن(5).

ورغم انتشار اللهو ومجالسه الحافلة بالجوارب والقيان، فإن القيم الأخلاقية والدينية التي توطدت في النفوس، ظلت قائمة في هذا المجتمع، حافظت على بقاء الوجه الآخر المحافظ، والذي تمثل في ظهور شعراء وأدباء دعوا إلى التعفف، وقبحوا المعصية، ورغبوا الناس في الدار الآخرة.

- 1 - نفع الطيب للمقرئ، مجد 1 ص 440.
- 2 - أم الكرم : دعاها المقرئ أم الكرام، هي شاعرة معروفة بالنباهة والذكاء. نظمت الموشحات أيضا. انظر المغرب لابن سعيد مجد 2، ص 202.
- 3 - نزهة بنت القلاعي : شاعرة ماجنة، كثيرة النواذر، ترجم لها : الضبي في البنية ص 530، والمقرئ في نفع الطيب، جد 2، ص 635.
- 4 - مهجة بنت التياني القرطبية : كان والدها يبيع التبن، شاعرة عرفت بالجمال. ترجم لها المقرئ 633/2 وابن سعيد في المغرب مجد 1 ص 143.
- 5 - طوق الحمامة لابن حزم، تحقيق : فاروق سعد، منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ص 18، (د - ت).

الناحية الدينية :

لقد كان أهل الأندلس على صلة وطيدة بالأحكام الشرعية⁽¹⁾، عملوا على تطبيقها والالتزام بها. وكانت الحروب المتوالية مع الطاغية عاملا أساسيا بعث في نفوسهم الحمية جيلا بعد جيل، حتى أدركوا أن بقاءهم في الأندلس لا يتحقق إلا ببقاء الإسلام.

وهذا ما دفع المعتمد بن عباد إلى الاستعانة بابن تاشفين، وقال مقولته المشهورة : « أفضل أن أرعى الجمال في إفريقيا على أن أرعى الخنازير في قشتالة»⁽²⁾.
الناحية الاقتصادية :

كانت الأندلس غنية بمواردها الطبيعية،⁽³⁾ كثيرة الأنهار والأشجار، طيبة التربة، كريمة لا تبخل على أهلها بشيء، مما ساعد العرب على أن ينشئوا بها حضارة جديدة وعظيمة، فاهتموا بالزراعة والصناعة، كما اهتموا بالعمارة، حتى اتصلت المدن بالقرى واختلطت البساتين بالمزارع. وقد جسد أبناء الأندلس ذلك الجمال الخلاب في مؤلفاتهم ورسائلهم، وتفننوا في نظم القصائد الغراء للتغني بجمالها الساحر. ومما قيل في وصفها أنها : «.. كريمة البقعة، بطبع الخلق، طيبة التربة... منبجسة العيون الثرار، منفجرة بالأنهار الغزار... فواكهها تنصل طول الزمان فلا تكاد تعدم...»⁽⁴⁾.

ولقد كانت مدنها غنية بالفواكه والثمار، « فبالمالقة التين الذي يضرب المثل بحسنه، ويجلب حتى للهند والصين»⁽⁵⁾. أما باطن الأرض فكان غنيا بالمعادن الطبيعية «.. وبناحية لورقة من عمل تدمير يكون حجر اللازورد الجليد، وقد يوجد في

1 - نفع الطيب للمقري - مج1، ص204، 206.

2 - المصدر نفسه ص 205.

3 - الروض المعطار للحميري، ص6، 25، 27، 28. ومعجم البلدان لياقوت الحموي ط1، 1906م. مط.

السعادة - مصر القاهرة - مج6، ص42.

4 - نفع الطيب للمقري، مج1، ص140.

5 - الملصق رقم 1.

غيرها، وعلى مقربة من حصن لورقة من عمل قرطبة معدن البلور.. ومعادن الشبوب والحديد والنحاس بالأندلس أكثر من أن تحصى». و «بكورة أشبونة المتصلة بشنترين معدن التبر»(1). كل ذلك ساعد على قيام الصناعات فكانت بعض المدن مراكز للصناعة، فالمرية اقتصت بصناعة المنسوجات الفنية التي كانت تنافس المنسوجات البغدادية(2)، وبخاصة «صناعة الخبز وكل ما يعمل من الحرير»(3).

وظلت الحياة الاقتصادية مزدهرة في عهد الطوائف، وانتشرت الزراعة لخصب الأرض، وكثرت الصناعات وتطورت الحرف، وبلغت درجة رفيعة من الجودة والإحسان. واشتهرت المنسوجات على مختلف أنواعها، وانتشرت الصناعات النحاسية والحديدية، وصناعة الزجاج والفخار والحلي، والأسلحة والورق، والحياسة. وكثر عدد الحرفيين وبلغت التجارة الداخلية والخارجية شأوا كبيرا بفضل الموقع الاستراتيجي الذي تحلته الأندلس.(4).

الحياة الثقافية والفكرية :

لقد ازدهرت الثقافة في القرن الخامس الهجري رغم الضعف السياسي والاجتماعي، بسبب تنافس ملوك الطوائف في الميدان الحضاري. مما في ذلك الجانب الفكري(5)، فراح كل واحد منهم يعمل على جعل عاصمته أعظم وأحسن من غيرها، فشجعوا الثقافة، واستقطبوا رجال العلم والأدب، وأغدقوا عليهم الهدايا والجوائز السنوية.

1 - نفع الطيب للمعري، ص152.

2 - الفن الإسلامي في إسبانيا، تأليف : مانويل جوميث مورينو، ترجمة : لطفى عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية للناليف والترجمة، ط1968م، ص316.

3 - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، مج2 ص163.

4 - طوق الحمامة لابن حزم، ص14.

5 - انظر : في الأدب الأندلسي، لجودت الركابي - ط3. دار المعارف - مصر - ص55. وكتاب : منحهم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ل محمد أمين الخالجي، مج9، ص75.

هذا إلى جانب الحرية والتساهل الذي عرفته الحياة الاجتماعية، الذي

كانت له آثاره السيئة على الأخلاق، إلا أنه ساعد على تطور الآداب وازدهار العلوم، وغدت الأندلس سوقا نافعا للعلم، وكعبة لرجال الأدب والفكر، يومها الطلاب من كل جهة للتزود بالثقافة الإسلامية، والارتشاف من مناهل العلم والأدب. ولم يكن هذا الازدهار(1)، الأدبي، والتطور العلمي طفرة من طفرات الحياة، بل كان ثمرة غرسها الأمويون، وعلى رأسهم عبد الرحمن الناصر وولده الحكم في القرن الرابع، وخمّدت جذوتها أيام الفتنة، وما إن جاء عصر الطوائف حتى سطعت أنوارها، وأشرقت شمسها تحت رعاية وعناية هؤلاء الملوك(2)، الذين كانوا هم أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء، فالعتمد بن عباد ملك إشبيلية كان شاعرا وكاتباً، يقدر العلم ويجلّ أصحابه، وقد اجتمع ببلاطه ما لم يجتمع عند غيره من الملوك، وممن ضمهم بلاطه : الأعلم الشتمري أبو الحجاج يوسف بن عيسى المتوفي (476هـ - 1083م)، وقد كان عالماً بالنحو واللغة، واسع الحفظ وجيد الشعر، له شروح كثيرة أهمها : شرح شعر الشعراء الستة، كما شرح ديوان الحماسة لأبي تمام، وشرح أبيات الجمل للزجاجي(3).

وكذلك المظفر بن الأفتس صاحب بطليوس الذي كان شاعرا وعالما مؤرخا. حرص على جمع الكتب حتى تكونت لديه مكتبة عظيمة، ومن بين العلوم التي اشد حرصه عليها : علم النحو، واللغة والشعر، وثوادر الأخبار وعيون التاريخ، وجمع ذلك في كتاب سماه : المظفري في خمسين مجلدا(4).

-
- 1 - انظر كتب الأعلام في تنوينها بسعة علم أدهاء القرن الخامس الهجري. مثل كتاب : وفيات الأعيان لابن خلكان. ج2 وج3، وأزهار الرياض ج3 ص101، وقلائد العقيان، ص115، 215، 218.
 - 2 - تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، لعبد العزيز سالم، ط1، 1969م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - لبنان، ص180، 181.
 - 3 - تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت - ط1، 1981م، مج4، ص636.
 - 4 - نفع الطيب للمقري، مج1، ص441.

وقد كان ابنه المتوكل أيضا صاحب باع طويلة في النظم والنثر(1). وأما المعتصم بن صمادح صاحب المرية، فقد كان يُعَدُّ من العلماء والشعراء. كان شديد الحرص على العلم، وعقد له مجالس المذاكرة، ويجلس يوما في كل جمعة للفقهاء والخواص، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث(2).

وقد لزمه فحول الشعراء كابن الحداد، وابن بليطة، والسميسر والبطليوسي وابن عمار شاعر المعتمد، ويعد عصره العصر الذهبي للعلوم والآداب.

وكان للشعر في بلاطه ازدهار ورواج، وقصده فحول الشعراء وفضلوا بلاطه على بلاط ابن عباد نفسه، وكان بيته بيت علم وأدب، نظم أبناؤه الشعر وأجادوا صناعته وأشهرهم : رفيع الدولة وأبو جعفر أحمد وعز الدولة، وابنته أم الكرم(3)، أيضا كانت من الشاعرات المجيدات في الأندلس.

وكان حرص ملوك الطوائف على أن تكون قصورهم متديبات زاهية عاملا هاما في ظهور نخبة من العلماء والكتاب والشعراء، استطاعوا أن يكونوا قادة للفكر الأندلسي، والإسلامي بصفة عامة(4).

العلم والعلماء :

لقد ازدهرت العلوم في ظل ملوك الطوائف، وأخذ الناس يحفظ وافر منها، وأولوا عناية كبيرة للعلوم التي تتصل بالقرآن الكريم، تلك العلوم التي أطلقوا عليها اسم : العلوم الشرعية أو النقلية، وتشمل هذه العلوم : الفقه وعلم التفسير وعلم القراءات وعلم الحديث، والنحو واللغة والبيان، وعلم الكلام والأدب وغيرها.

1 - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد المغربي، تحقيق : شوقي ضيف. دار المعارف - مصر - ط3 (د.ت)

ج1، ص364، ونفح الطيب للمقري، ج1، ص422.

2 - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، ج1، ص364.

3 - أم الكرم : من الشاعرات المجيدات، نظمت الموشحات. انظر : نفح الطيب ج6 ص 180، المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد ج2، ص202.

4 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبد الله عنان، ص408.

ومع ذلك لم يفرطوا في العلوم الأخرى، والتي أخذها العرب عن غيرهم من الأمم، تلك العلوم المعروفة لديهم باسم : علوم العجم، أو العلوم القديمة أو الدخيلة، والتي أطلقوا عليها اسم : العلوم العقلية، وتمثل في : الفلسفة والهندسة والتاريخ، والجغرافيا وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء، والرياضيات وغيرها(1).

لقد أبحروا في هذه العلوم بكل جرأة، فنبغ منهم علماء أفذاذ شهد التاريخ على تقدمهم وسموهم الفكري والعلمي، أمثال : ابن حزم الفقيه الأديب الشاعر (ت456هـ) صاحب كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل.

كما أنجب هذا العصر الفقيه أبو الوليد الباجي (ت474هـ) قرين ابن حزم في غزارة المادة العلمية وسعة المعرفة، وكان عالما تشد إليه الرحال، ومن الذين تخرجوا على يده العالم الجليل الطرطوشي(2) صاحب كتاب سراج الملوك.

وقد جمع علماء هذا العصر بين مختلف العلوم والفنون، فابن برغوث العالم محمد بن عمر المعروف بابن البرغوث: كان عالما متبحرا في الرياضيات والفلك والنحو، وله معرفة بالقرآن الكريم والفقه، وتوفي سنة 444هـ. كذلك العالم عبد الله ابن محمد المعروف بالسري، اشتهر بالهندسة والعدد، وكان رجلا ناسكا فقيها، وإماما في النحو واللغة.

كما اشتهر بالهندسة والطب العالم القرطبي أبو الحكم عمر بن عبد الرحمن ابن أحمد بن علي الكرمانى(3).

1 - نفع الطيب للمفري، مج1، ص206، وتاريخ الإسلام السياسي والذهني والثقافي والاجتماعي، لحسن إبراهيم حسن، ط7 (د.ت)، ج3، ص313 - 337.

2 - الطرطوشي : فقيه وعالم وشاعر، ولد في طرطوشة حوالي سنة 450هـ وأشهر مؤلفاته : كتاب سراج الملوك.

3 - طبقات الأمم، لأبي صاعد بن أحمد الأندلسي، مط التقدم - مصر - ص95 (د.ت).

وفي اللغة اشتهر العالم اللغوي أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيدة (الأعمى) المتوفى سنة 450هـ، ومن أشهر ما صنفه في اللغة : كتاب المحكم وكتاب المخصص.

وعرف الأعلام الشتمري المتوفى سنة 476هـ بجمع اللغة وحفظ أشعار العرب وضبطها وكان تشد إليه الرحال للارتشاف من نبعه، واشتهر بشرح كتاب «الجميل» في النحو لأبي القاسم الزجاجي.

ومن الذين أتقنوا العلوم وتفننوا في سائر الفنون : أبو الوليد هشام بن أحمد بن خالد الكناني، المعروف بابن الوقشي، من طليطلة وقد تقلد القضاء في طلبيرة، أيام الأمير المأمون يحيى بن الظاهر إسماعيل بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون(1).

كذلك العالم المتبحر في علم الكلام، المتقن للعلوم الشرعية، من فقه وحديث، المتفنن في اللغة والشعر، أبو الحسن مختار بن عبد الرحمن بن مختار بن شهر الرعيبي، الذي أهله تبحره في العلم ليتبوأ منصب القضاء بالمرية أيام آخر دولة زهير العامري سنة سبع وعشرين وأربعمائة(2).

وفي العلوم الشرعية اشتهر مكّي بن أبي طالب المكّي (ت 437هـ)(3) الذي كان إماماً في القراءات وعلوم القرآن، وأشهر مؤلفاته : تفسير القرآن، الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه في سبعين جزءاً، وكتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره وغير ذلك من الكتب.

وكذلك أبو عمرو الداني (ت 444هـ) الذي كان عالماً في القراءات وبلغ الغاية فيها، وأشهر مصنفاته : كتاب التيسير في القراءات السبع، وجامع البيان، وإيجاز البيان.

1 - طبقات الأمم، لأبي صاعد بن أحمد الأندلسي، مط التقدم - مصر - ص99 (د.ت).

2 - المصدر نفسه، ص96.

3 - هو أبو محمد القيسي، مكّي بن أبي طالب حموش بن مختار القيسي المقرئ، أصله من القيروان، وانتقل إلى الأندلس، وسكن قرطبة، وهو من أهل التبحر في العلوم. انظر: شذرات الذهب، ج3 ص260.

وألف أبو داود المقرئ كتابا كثيرة في معاني القرآن الكريم، وأشهر مصنفاته كتاب: البيان الجامع لعلوم القرآن في ثلاثمائة جزء(1).

كما ألفوا في الأدب والسير والتراجم، فألف الحميدي كتاب : جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، وكتاب تاريخ الإسلام، والجمع بين الصحيحين وتفسير غريبهما.

وألف كتاب طبقات الأمم، القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي (ت463هـ). وأشهر الكتب الأدبية : كتاب طوق الحمامة لابن حزم. وفي نهاية القرن الخامس الهجري ألف ابن بسام مصنفه القيم : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، وهو كتاب في السير والتراجم والتاريخ والأدب والنقد، وهو على غرار الكتب القديمة يفتقر إلى الوحدة التأليفية إلا أنه ينم عن سعة اطلاع وغزارة المادة، وحفظ جيد للمثور والمنظوم.

كما اهتموا بالجغرافية، وكان أبو عبيد البكري (ت 487هـ) أعظم جغرافي عرفته الأندلس، وأشهر مؤلفاته : المسالك والممالك(2).

- وقد حظي الطب عندهم بالاهتمام والحفاوة، وعدّ من أرفع العلوم شأنًا وأسماءها مكانة، وقد ألف فيه أبو القاسم الزهراوي كتابا جامعاً لأبواب الطب كلها، وفيه وصف مفصل للآلات الجراحية وعنوانه : التصريف لمن عجز عن التأليف، وقد نال

1 - التكملة لكتاب الصلاة، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلسني المعروف بابن الأبار (ت 659هـ)، نشره وصححه وطبعه : السيد عزت العطار الحسيني، مط السعادة - مصر - ط1956، ج1، ص245.

2 - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، تحقيق : شوقي ضيف، ج1 ص347.

هذا الكتاب شهرة عظيمة، وقدم للإنسانية خدمة جليلة وكان من الكتب التي نقلت إلى اللاتينية(1).

المساجد والمكتبات :

لقد كان المسجد هو المدرسة التي تعقد فيها حلق الدرس، والجامعة التي تزخر بالعلماء والشيوخ، ويومها الطلاب من كل حدب وصوب. وإلى جانب المسجد نجد أحيانا من العلماء من يفتح بيته للطلاب، فيستقبلهم ويزودهم بما يحتاجونه من زاد العلم والمعرفة، وقد يتعدى ذلك إلى إكرامهم والسهر على راحتهم، فيقيمون في داره حتى تنتهي مدة دراستهم. وقد تضاعف اهتمام الناس بالكتب في هذا القرن، وازداد شغفهم بالقراءة، وبخاصة بعدما انتشرت الكتب في مدن الأندلس المختلفة، واندفع المثقفون إلى جمع الكتب واقتنائها ونسخها.

كما اهتموا بإنشاء المكتبات الخاصة، ولم يقتصر ذلك على المتعلمين فقط، بل تعداهم إلى أولئك الذين لا صلة لهم بالعلم والأدب «.. حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، ويتخب فيها، ليس إلا لأن يقال : فلان عنده خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب هو بخط فلان، وقد حصله وظفر به»(2).

حتى النساء أيضا حرصن على أن تكون لديهن مكتبات، فهذه عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، قال عنها صاحب كتاب الصلة : «.. لم يكن في زمانها من يعدلها فهما وعلما وأدبا وشعرا، وفصاحة وعفة، وجزالة وحصافة... وكانت حسنة الخط، متكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب، وتعني بالعلم ولها خزانة علم كبيرة حسنة»(3).

1 - تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان ص 314.

2 - نفع الطيب للمقري، ج 1 ص 462.

3 - الصلة لابن بشكوال، الدار المصرية، ط 1966، ج 2 ص 692.

وهكذا كثرت المكتبات الخاصة واتشرت في مدن الأندلس، فكان من أصحاب المكتبات في قرطبة : محمد بن يحيى الغافقي المعروف بابن الموصل المتوفي عام 433هـ - 1042م.

وابن حزم الفقيه، الذي صنف الكتب المشهورة، ويقال إنها بلغت أربعمئة مجلدا في قريب من ثمانين ألف ورقة(1).

وفي بطليوس، اشتهر أميرها المظفر بن الأفطس الذي كانت له مكتبة زاخرة أعانته على تأليف كتابه العظيم «المظفري» في الأدب والتاريخ وبلغ خمسين جزءا(2).

- ورغم ذلك لم يعرف الأندلس آنذاك ما يسمى بالمكتبات العامة، اللهم إلا تلك المجموعات القليلة من الكتب التي نجدها في المساجد ليستفيد منها الطلبة في دراستهم.

- مصادر ثقافتهم وطرق تعليمهم :

إن المتبع للثقافة الأندلسية في القرن الخامس الهجري يستتج أنها قامت على مصدرين أساسيين هما : القرآن الكريم والموروث الثقافي.

أما الموروث الثقافي فيقصد به كل الآثار القديمة والحديثة من : شعر جاهلي وإسلامي، ومعرفة بأيام العرب وأخبارهم ونواديرهم. وعدوا ذلك اللبنة الأساسية التي تقوم عليها ثقافتهم، فحملوا أنفسهم على حفظ الشعر ودراسته، فعرفوا معظم دواوين الشعر

1 - البداية والنهاية في التاريخ، لعلماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير (ت 774هـ) دار الفكر العربي، ج12، مج6، ص91.

- وكتاب أخبار العلماء والحكماء للنفطي : تحقيق محمد أمين الخانجي، مط السعادة - مصر - ط1326هـ، ص156.

2 - وجاء في المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ج1، ص363 : أن المظفري بلغ نحو مائة مجلد.

القديم، فقرؤوها ووضعوا عليها شروحا وتعليقات. فشرح الشتمري(1) : « الأشعار الستة»(2)، كما شرحها أيضا الوزير أبو بكر عاصم بن أيوب البظليوسي المتوفي سنة (494هـ)، وكان شرحهما دليلا على تبحر الرجلين في الأدب واللغة ومعرفتهما بالآثار القديمة، ومن الأسماء الكثيرة التردد في مؤلفاتهم : اسم الأصمعي والمبرد وابن جني وأبو عمرو بن العلاء، والفراء وابن سلام وسيبويه والخليل وغيرهم..

وأما الشعر الحديث عندهم فهو شعر أبي نواس، وأبي تمام والبحرزي والمنتبي والمعري وغيرهم. ولم تكن عنايتهم بشعر هؤلاء أقل من عنايتهم بالشعر القديم، فأقبلوا عليه بالدراسة والشرح والحفظ. فشرح ابن السيد البظليوسي(3) ديوان سقط الزند للمعري، وشرح ابن سيده(4) مشكل أبيات المنتبي، وكذلك شرح أبو القاسم إبراهيم ابن الإفليلي(5) ديوان المنتبي.

- 1 - الأعلام الشتمري : عالم لغوي وأديب، ولد بقرطبة سنة 410هـ، وسكن شتمرية الغرب ونسب إليها، وتوفي سنة 476هـ. ترجمته في الصلة لابن بشكوال، مج2، ص681، وبغية الوعاة ص422، والبيان في المغرب لابن عناري، ج3، ص284. والمركة اللغوية في الأندلس لأبي إسحاق ص310.
- 2 - الشعراء الستة هم : امرؤ القيس، النابغة، علقمة، زهير بن أبي سلمى، طرفة، وعنترة.
- 3 - ابن السيد البظليوسي : أبو محمد عبد الله محمد بن السيد من مدينة شلب، ولد سنة 444هـ - 1048م ببظليوس. كان أديبا شاعرا وفتيا، توفي سنة 511هـ - 1127م. ترجمته في : المطرب لابن دحية ص226.225، البغية ص324، الصلة 292/1-293، وفيات الأعيان لابن خلكان : 282/2، معجم البلدان : 447/2.
- 4 - ابن سيده : عالم لغوي توفي عام 458هـ - 1066م. ولد كفيما لأب كفيف، أخذ النحو أولا عن أبيه، ثم أخذ عن الزبيدي. أشهر مؤلفاته : المحكم والمخصص. وكان له اهتمام بأشعار العرب وأيامهم. انظر ترجمته في : الصلة : 396/2-397، طبقات الأمم ص77، جنوة المنتبس ص293-294، المغرب : 259/2، الدياج المذهب ص227، نفع الطب : 351/4، شذرات الذهب : 305/3.
- 5 - ابن الإفليلي : عالم لغوي وأديب، ولد بقرطبة عام 352هـ - 963م) وتلمذ على يد العالم اللغوي الزبيدي، وتوفي عام (441هـ - 1049م). انظر ترجمته : وفيات الأعيان لابن خلكان : 33/1، الصلة : 93/1، وشذرات الذهب : 266/2، بغية المنتبس ص199.

ولقد أخذوا في حياتهم العلمية بمبدأ الأدب هو الأخذ من كل علم بطرف ، لذا أقبلوا على المؤلفات النثرية بشغف، فعرفوا ترسل الطبقة الأولى كطبقة عبد الحميد الكاتب، وابن المقفع وسهل بن هارون والجاحظ، ثم انغمسوا في السجع والتعقيد مقتفين طريقة ابن العميد والحريري والمعري، ومن سار على دربهم، فوضع ابن شهيد رسالته المعروفة «التوابع والزوابع» والتي نجد فيها شبيها كبيرا برسالة الغفران للمعري في موضوعها وشكلها.

وكانت الصلة وطيدة بين المشرق والأندلس عن طريق الرحلات المتتالية لأن المشرق كان مطلبهم ومحيط تقليدهم. ورغم اهتمامهم بأدب المشرق، فإنهم لم يهملوا آثارهم، فاعتنوا بجمعها وشرحها أيضا، فهذا ابن بدرون⁽¹⁾ يشرح قصيدة ابن عبدون والتي نظمها في رثاء بني الأفطس، وابن سعيد يولف "المغرب في حلى المغرب" يجمع أخبارهم وأشعارهم، وابن بسام السدي ألف ذخيرته التي تعد ديوانا لشعرهم ومصدرا هاما لتاريخهم وبيئتهم.

وهكذا كان أول ما يتعلمه الطالب الأندلسي هو الثقافة اللغوية والشعرية، ثم يدرس القرآن الكريم وبعد ذلك تأتي سائر العلوم.

وكانت لغة التدريس هي اللغة العربية، لذا حظيت في الأندلس بالعناية الكبيرة، لأنها لغة القرآن أولا، وثانيا هي الوسيلة لبلوغ الحياة الرسمية، والوظائف العامة والتي كانت لا تسند إلا لمن أتقن اللغة ونبغ فيها.

وقد أعجبت طريقتهم هذه العلامة ابن خلدون فأشاد بها وقال : «.. وأما أهل الأندلس فأفادهم التفتن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسيل، ومدارسة العربية من أول العمر، حصول ملكة صاروا بها أعرق في اللسان العربي، وقصروا في سائر العلوم لبعدهم عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها

1 - ابن بدرون : أديب أندلسي من شلب، عاش في القرن السابع الهجري.

فكانوا لذلك أهل خط وأدب بارع أو مقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا»(1).

وقد ذكر رأي القاضي أبي بكر بن العربي في تعليه لتقديم أهل الأندلس تعليم العربية والشعر على سائر العلوم «لأن الشعر ديوان العرب ويدعو إلى تقديمه وتقديم العربية في التعليم ضرورة.. ثم ينتقل منه إلى الحساب.. ثم ينتقل إلى درس القرآن فإنه يتيسر عليه بهذه المقدمة»(2)، وقد علق ابن خلدون على ذلك بقوله : « وهو لعمرى مذهب حسن..»(3)، مما يؤكد استحسان العلامة ابن خلدون لطريقة التعليم في الأندلس.

وهكذا فهم يبدؤون في تعليمهم بتعليم الشعر والقرآن دون سائر العلوم على خلاف ما كان معروفا عند المشاركة والمغاربة، الذين كانوا يبدؤون بتعليم القرآن الكريم دون سائر العلوم، والظاهر أن طريقة أهل الأندلس هي الأفضل.

ولعل النهضة الفرنسية في القرن السادس عشر قد اقتبست من الأندلسيين هذا المذهب، إذ ظهر اهتمامهم بالتراث القديم الإغريقي والروماني، الذي انكبوا على دراسته وفهمه وتقليده، حتى تفتقت مواهبهم وظهر نبوغهم، ولا زالت هذه الطريقة قائمة في تعليمهم إذ أدخلوا الآداب القديمة في دراستهم، فالشجرة لا تنمو إذا اجتث أصلها.

1 - مقدمة ابن خلدون ص702.

2 - المصدر نفسه، ص703.

3 - المصدر نفسه.

الشعر والشعراء :

ازدهرت الحركة الأدبية في هذا العصر، وبالغ الحكام في إكرام الشعراء، فخلعوا عليهم الخلع السنية، وأنزلوهم المنزلة الرفيعة، فكان منهم الوزراء والكتاب وحكام الأقاليم.

ووجد الشعراء سوقا رائجة في ظل ملوك الطوائف الذين كانوا هم أنفسهم شعراء، فهذه أسرة بني عباد - بإشيلية - كانت شاعرة موهوبة، فالمعتضد كان يقرض الشعر، ويجعل يوما من أيام الأسبوع للشعراء يفدون عليه فيطارحهم الشعر، ويستمع إليهم ويشخذ همهم.

ولما جاء المعتمد بذه في هذا المضمار، و« كان متمسكا من الأدب بسبب، وضاربا في العلم بسهم. وله شعر كما انشق الكمام عن الزهر (1) ». وقد سجلت لنا المصادر التي ترجمت له جملة من أشعاره.

وله ديوان كبير جمعه الأستاذان أحمد أحمد بدوي، وحامد عبد المجيد طبع بالقاهرة عام 1951م (2).

وكان المعتمد أكثر الأمراء سخاء في تقدير الشعراء وتكريمهم، فاجتمع ببلاطه أعظم شعراء العصر أمثال : ابن زيدون، وابن عمار، وابن اللبانة وابن حمديس الصقلي، وعبادة القزاز وابن عبد الصمد، وابن وهبون وغيرهم.

وكان لا يستوزر إلا من كان أديبا شاعرا، ونشطت الحركة الأدبية والشعرية في عصره، فجمع بلاطه بين الزعامتين : السياسية والأدبية.

وكان المعتصم بن صمادح صاحب المربة من أكبر شعراء عصره، كما كان أبنائوه شعراء نذكر منهم : رفيع الدولة وأبو جعفر رشيد الدولة وأختهما أم الكرم كانت شاعرة أيضا.

1 - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام. 2/1 ص 41.

2 - المصدر نفسه، ص 43 (الهامش).

وكذلك كان المتوكل بن الألفس(1) صاحب بطليوس أديبا وشاعرا. وازدهر الشعر والأدب في عصر ملوك الطوائف، وأصبح لكل مملكة شعرائها. وإذا كان بلاط المعتمد أزهى بلاط، فإن بلاط المعتصم أيضا ضم أعظم الشعراء ومن أشهرهم وأعظمهم شاعره ووزيره أبو عبد الله محمد بن الحداد. والشاعر أبو حفص بن الشهيد الذي قال فيه صاحب الذخيرة: «كان فارس النظم والنثر وأعجوبة القرن والعصر»(2).

ومن شاعرات المرية أيضا: زينب المسماة غاية المنى. وكان أبو محمد عبد الله بن هود أميرا وشاعرا أيضا، ومن شعره في عتاب بني هود قوله:

ضللتُم جميعًا آل هود عن الهدى *** وضيعتم الرأي الموفق أجمعا
وَسِتُّم يمينَ الملكِ بي فقطعتُم *** بأيديكمُ منها وبالغدرِ إصبعا
وما أنا إلا الشمسُ عند غياهِب *** دجَّتْ فأبت لي أن أنيرَ وأسطعا
فلا تقطعوا الأسبابَ بيني وبينكم *** فأنفكُم منكم وإن كانَ أجدعًا(3)

وقد كان الشعر عندهم صفة من صفات الفروسية، فباروا فيه، خاصة وأنه الصفة التي تقربهم من الملوك، وترفعهم إلى أعلى المراتب.

ووجد الأدب في ظل ملوك الطوائف الرعاية والعناية والمنافسة، فعرفت الحياة الأدبية تطورا وازدهارا(4).

وكثر عدد الشعراء والشاعرات، وازدهر الشعر وتعددت أغراضه وتنوعت، ويعزى ذلك التنوع إلى تنوع طبيعة الأندلس، وجمالها واعتدال مناخها

1 - عمر المتوكل بن محمد المظفر بن عبد الله بن محمد التميمي. آخر ملوك بني الألفس (ت 489هـ). انظر ترجمته في الأعلام للزركلي مج5، ص60.

2 - انظر ترجمته في: الجذوة ص285. الذخيرة قسم1 مج2 ص180. المغرب في حلى المغرب مج2 ص209.

3 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، مج2، ص439.

4 - الشعر الأندلسي، تأليف: غرسية غومس، ترجمة: حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط2/1956م ص45.

وكثرة خيراتها، فهي البلاد التي جمعت كل طيب، فهي : «.. شامية في طيها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في مناخ سواحلها ..»(1).

وفي آواخر هذا العصر الذي زهت فيه الآداب جاء ابن بسام، الذي قدر هذا النتاج الأدبي العظيم فجمع في ذخيرته روائع أدب هذا العصر منظومه ومشوره، وكان هذا المؤلف الضخم ديوانا لعيون الأشعار والأخبار.

وكانت أساليبهم سلسلة، وأحاسيسهم صادقة ثمنا جعل الدكتور حسين مؤنس يقول عن شعرهم : « الشعر الأندلسي بحر حافل بكلّ جميل من بدائع التصوير الفني، وكلّ صادق من الإحساس الشعري ما شرعت في مطالعة ديوان من دواوينه إلاّ شغلني المطالعة بقية يومي »(2).

ومن مشاهير الشعراء نذكر : أبو عبد الله محمد بن عبادة المعروف بابن القراز(3)، ومن نظمه في مدح المعتمد قوله :

ثناؤك ليس تسبّقه الرياحُ *** يطيرُ ومن نَدَاكَ له جناحُ
وقد حَسُنْتَ بِكَ الدُّنْيَا وشَبَّتْ *** فغَنَّتْ وَهِيَ ناعمة رَدَاخُ(4)

وحمدة بنت زياد المؤدب « ... شاعرة جميع الأندلس، خنساء المغرب »(5)، وأمّ العلاء بنت يوسف الحجازية البربرية وكانت « ممن تفخر به بلادها وقيلتها »(6)، وابن عمار شاعر المعتمد، وغيرهم.

1 - نفع الطيب مج 1 ص 126.

2 - العربي : عدد 95. أكتوبر 1966. مقال : قرطبة درة مدن أوروبا في العصور الوسطى، لحسن مؤنس، ص 70,69.

3 - ابن القراز : أديب من شعراء الموشحات ترجمته في القلائد ص 14. والخريدة 182/2 والمغرب 134/2، ونفع الطيب 411/3. والذخيرة 2/1 ص 801.

4 - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد مج 2 ص 135.

5 - المصدر نفسه، ص 145.

6 - المغرب في حلى المغرب 38/2. انظر المقرئ في النفع 537/2.

ونظم شعراء القرن الخامس في مختلف الأغراض الشعرية(1)، وبلغوا في معظمها الجودة والتفوق. ومما أجادوا فيه ونبغوا غرض الوصف : وصف الطبيعة بكل مكوناتها، من شجر وزهر وحيوان وماء ونبات، وما يتصل بذلك من إحساس وانفعال، كما وصفوا الرحلات والمنتزهات ومجالس الأُنس وما إلى ذلك من مواضيع شتى، ووجدوا في معاني الوصف وابتكروا أوصافا لم تعرف عند من سبقوهم من المشاركة. وقد جاء في نفع الطيب نقلا عن الحجاري قوله عن أهل الأندلس «وهم أشعر الناس فيما كثرة الله تعالى في بلادهم وجعله نصب أعينهم من الأشجار والأنهار، والطيور والكؤوس لا ينازعهم أحد في هذا الشأن، وابن خفاجة سابقهم في هذا المضمار، الحائز فيه قصب الرهان، ... وقد أعانتهم على الشعر أنسابهم العربية، وبقاعهم النضرة، وهمهم الأدبية.»(2)

وانتشر شعر الغزل، لكثرة مجالس اللهو، والاختلاط بالجواري، فتغزلوا بالمسيحيات، ومن أشهر الشعراء الذين تغزلوا بالمسيحيات ابن الحداد(3) في شبابه. كما نظموا الشعر في رثاء الأحبة والخلائن، ونبغوا في رثاء المدن والثغور التي سقطت في يد النصارى. ومن أشهر القصائد في هذا الموضوع قصيدة ابن عبدون في رثاء دولة بني الألفس بعد سقوطها في يد المرابطين ومطلعها :

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ الْعَيْنِ بِالْأَثَرِ *** فَمَا الْبُكَاءُ عَلَى الْأَشْبَاحِ وَالصُّورِ (4)

وهي قصيدة طويلة تبلغ خمسة وسبعين بيتا، وتنم عن علم واسع. وقد نالت هذه القصيدة شهرة كبيرة، وأصبحت مادة لشروح وتعليقات كثيرة، أشهرها شرح عبد الملك بن عبد الله المعروف بابن بدرون من أدباء القرن السابع الهجري.

ورثى المعتمد نفسه ودولته وأبناءه، ومما قاله بعد نكته وهو مكبل بقيود

الأسر والذل :

1 - الشعر الأندلسي، للمرومية غومس، ترجمة: حسين مؤنس، ص 76 .

2 - نفع الطيب للمفرى مج 4 ، ص 150، 151.

3 - الذخيرة لابن بسام القسم 1، مج 2، ص 707.

4 - المطرب لدين دحية ص 37 .

يقولون صبراً لا سبيلَ إلى الصبر *** سَابِكِي وَأَبِكِي مَا تَطَاوَلَ عَمْرِي
هوى الكوكبان : الفتحُ ثم شقيقه *** يزيدُ، فهل بعد الكواكبِ من صبرِ

* * *

توليتما حين انتهت بكما العلا *** إلى غاية، كلُّ إلى غاية يجري
فلو عدتُما لاخرتُما العودَ في الثرى *** إذا أبصرتماني في الأسر
بُعِدُ عَلِي سَمْعِي الْحَدِيدُ نَشِيدَهُ *** ثقيلًا فتبكي العينُ بالحسُّ والنقرِ(1)
ورثي دولة بني عبّاد أبو بكر محمد بن عيسى المشهور بابن اللبّانة
(ت507هـ) بقصيدة(2) دقيقة التصوير، صادقة الإحساس والتعبير ومطلعها :

تبكي السماءُ بعزّزٍ رائحِ غَادِي *** على البهاليل من أبناءِ عبّادِ(3)
ويتصل بفرض الرثاء شعر الشكوى والاستعطاف، وقد امتاز بهذا اللون
الملوك والأمراء، لما نالهم من النكبات والمحن. ورأينا هذا في شعر المعتمد عندما نكب
في ملكه.

وكثر شعر المديح لأنه كان وسيلةً للتكسب، وظلت معانيه مشرقية وإن
طبعت بطابع البيئة الأندلسية.

أما الهجاء فقد لقي سوقاً رائجا في هذا العصر أيضاً، وكان منه الهجاء
المقذع والذي ترفع ابن بسّام عن تدوينه في كتابه الذخيرة، ومن الأهاجي المذكورة
هجاء ولادة في ابن زيدون، وأهاجي مهجة القرطبية في صديقتها ولادة، وهجاء أبو
بكر المخزومي، والشاعرة نزهون بنت القلاعي الفرناطية اللذان كان بينهما معايشات
فاحشة(4).

1 - الذخيرة 1/2، ص 69.

2 - المغرب في حلى المغرب 409/2، المطرب لابن دحية ص 178، شذرات الذهب 20/4. الفلاحة
ص 245.

3 - خريدة القصر وخريدة العصر - للحماد الأصفهاني (2) ص 110.

4 - المغرب في حلى المغرب 2/ 121.

كما اشتهر بهذا الغرض ابن سارة الشنزي، والسِّميسر الذي كان كثير المهجاء وله كتاب سماه : « شفاء الأمراض في أخذ الأعراض »(1).

وقد كان كثير التبرم بالناس والحكام، يعلن عليهم ثورته ويقف في وجههم ناقدا :

نادِ الملوكَ وَقُلْ لهم *** ماذا الذي أحدثتمْ
أسلمتمْ الإسلامَ في *** أسر العِدا وَقَعَدْتُمْ
وَجَبَ القِيامُ عليكم *** إذ بالنصارى قُمْتُمْ
لا تنكروا شقَّ العَصَا *** فعصا النبي شَقَقْتُمْ(2)

وهذا الشعر هو أقرب إلى النقد الاجتماعي منه إلى المهجاء(3)، لأنه يصور الآفات الاجتماعية وينقدها بنية علاجها .

أما شعر الحكمة فيلوح لنا من خلف حجاب على استحياء، لا لشيء وإنما أراد الفقهاء ذلك، إذ منعوا انتشار الفلسفة، وكفروا كل متفلسف، وقتوا بنيه وإحراق كعبه، مما أخطر ظهور الفلاسفة إلى أواخر القرن الخامس الهجري. ولعل خير من مثل هذا الاتجاه: الشاعر عبد الجليل بن وهبون المرسي أحد شعراء الدولة العبادية(4).

أما الزهد فقد لقي في سلطة الفقهاء ما ساعد على ازدهاره وانتشاره. كما كانت الحروب والفتن سببا قويا في ميل الشعراء إلى التفكير في الدار الآخرة، والترفع عن الدنيا بكل ما فيها من مظاهر الترف والنعيم، فذكروا الله متضرعين، وبكوا ذنوبهم خاشعين خاضعين، أمثال أبي الوليد بونس بن مغيث، الذي نظم الشعر

1 - النفع : مج 5 ص 246.

2 - الذخيرة 2/1 ، ص 374.

3 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - لإحسان عباس، نشر دار الثقافة - بيروت - ط 2، 1981م - ص 142.

4 - الذخيرة 1/2 ، ص 473.

النفيس في معاني الزهد، وكان كثير الخشوع، وصنف كتاب « فضائل المنقطعين إلى الله » (1)، وهو دعوة صريحة إلى الزهد في الدنيا والتقرب من الله بالعبادة والطاعة. وكذا أبي بكر بن عطية الذي يلوم نفسه ويعاتبها على انغماسها في اللهو وإقبالها على الدنيا بنهم، وتفريطها في أداء الواجبات والفروض، فيقول :

أيها المطرودُ عن بابِ الرضا *** كم يراك اللهُ تلهو مُعرضاً
كَمْ إلى كم أنتَ في جهل الصبا *** قد مضى عمر الصبا وانقرضاً
فضع الخد على الأرض وَنَحْ *** واقرع السن على ما قد مضى (2)
كما ازدهر فن الموشحات في عهد الطوائف، وظهر أكبر شعرائه، نذكر منهم: عبادة القزاز، وابن اللبانة (3)، وأم الكرم بنت المعتصم.

ولعل السمة الغالبة على شعرهم هي ميزة الرقة المزوجة بالجزالة.

الرسائل :

إلى جانب عنايتهم بالشعر، عنوا أيضا بتجوير الرسائل في مختلف المواضيع، وما يلفت نظرنا في هذه الرسائل ويدعوننا للوقوف عندها، تلك المضامين الإسلامية البارزة، والتي تتصل بعقيدتهم، وتنبع من تعاليم دينهم الحنيف، والمسلم كما عهدناه كثيرا ما يلجأ إلى ربه ليطلب منه العون، ويستمد منه القوة، ويتهل إليه خائفا متضرعا، راجيا أن يكشف عنه الهم والغم، ويزيل عنه المحن، وبخاصة إذا عرفنا أن الأحوال في هذا العصر ساءت فساءت معها حال الناس والحكام، وتكالب عليهم العدو، وتساقطت بيده مدنهم وثغورهم. ومن الأغراض التي تناولتها هذه الرسائل :

1 - تاريخ قضاة الأندلس : للشيخ أبي الحسن بن عبد الله بن الحسن الباهي المالقي الأندلسي (د.ت) ص 96.
2 - خرودة القصر وخرودة العصر للعماد الأصفهاني، قسم شعراء المغرب والأندلس (3) تحقيق : آذرتاش آذرنوش، نقحه وزاد عليه : محمد المرزوقي، ومحمد العروسي المطوي، والجيلاني بن الحاج يحيى. الدار التونسية للنشر 1972م، ص 489-488.

3 - ابن اللبانة : محمد بن عيسى بن محمد أبو بكر الداني، أديب وشاعر، توفي سنة 507هـ. انظر : هدية العارفين في أسماء المؤلفين وأثار المصنفين، إسماعيل باشا البغدادي، طبعة وكالة المعارف، مطبعة البهية - استانبول - 1955م، والأعلام للزركلي، مج 6، ص 322.

- التشوق إلى زيارة البقاع المقدسة، وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول الوزير الكاتب محمد بن عبد الله بن الجحد(1) على لسان من رجع من بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : «... ولما صدرت يارسول الله عن زيارتك الكريمة، وقد ملأت هبتك ومحبتك أرجاء فكري، وفضاء صدري، وغشيتني من نور برهانك ما بهر لبي، وعمر قلبي، لحقني من الأسف لبعث مزارك والحنين إلى شرف جوارك، ما أودع جوانحي التهابا، وأوسع جوارحي اضطرابا، وأتهالك في حبك وأعفر خدي في مقدس تربك، وبك اقتديت فاهتديت، ولولاك ما صمت ولا صليت، ولا سعيت ولا طفت...»(2).

وله أيضا في مخاطبة بعض القادمين من الحجاز : «... فيالها حجة مبرورة، ما أتم مناسكها وأوضح في مناهج البر سالكها، ولقد شهد فيه الميقات بخلوص إهلالك وإحرامك، واهتز البيت العتيق لطوافك واستلامك...»(3).

كما كتبوا عن المطر مستهلين مستبشرين بسقوطه، فهو نعمة من نعم الرحمن، نزوله يبشر بالرخاء والنعيم والحياة، إذ لا حياة إلا به ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾(4) فما ألطف الله بعباده، ومما كتب في ذلك قول ابن الجحد «لله تعالى في عباده أسرار لا تدركها الأفكار، وأحكام لا تنالها الأوهام، تختلف والعدل متفق، وتفترق والفضل مجتمع متسق... فالحمد لله على ذلك ماانسكب قطرًا، وانصدع فجر، وتوقد قبس، وتردد نفس، وهو الكفيل تعالى بإتمام النعمي وصلة أسباب الحياة بعزته.»(5) وفي الموضوع نفسه كتب الفقيه أبو عمر الباجي قائلا : «إن لله تعالى

1 - محمد بن عبد الله بن يحيى بن فرح بن الجحد الفهري : الوزير الكاتب الفقيه، كان من أهل التنين في الآداب والمعارف. توفي سنة 415هـ.

2 - الذخيرة 1/2 ص 287.

3 - الذخيرة 1/2 ص 288.

4 - الأنبياء / 30

5 - الذخيرة 1/2 ص 289-291.

قضايا واقعة بالعدل، وعطايا جامعة للفضل، ومنح يسطها إذا شاء إنعاما وترفيها، ويقبضها إذا أراد إلهاما وتنبها، ويجعلها لقوم صلاحا وخيرا، ولآخرين فسادا وضيحا»(1).

وإذا كان المسلم كثيرا ما يذكر الله حامدا وشاكرا، فإن الكاتب الأندلسي لم يفته تسجيل ذلك في فصول ثرية، تعبر عن عقيدة راسخة وإيمان قوي. ومما جاء في تهميداتهم قول الوزير ابن برد الأصغر(2) : « الحمد لله الذي علا وقهر، وبطن وظهر، وبحكمته قدر، وأمر، وبعده قدم وأخر .. »(3).

وقال أيضا : « الحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان، المحجوب عن الأبصار، والفائت إحاطة الأفكار، تعالى في الحجب العلى، واطلع على النجوى، وعلم السر وأخفى، خلق الخلق للفناء ثم يعيدهم للبقاء... »(4).

- كما شكروا الله على نعمه التي لا تعد ولا تحصى، لإيمانهم بأن الشكر إنماء وزكاة قبل كونه اعتراف بفضل المنعم وتفضله عليهم، ومما جاء في ذلك، قول ابن برد الأصغر : « إن للنعم عيوننا إذا كحلن بالشكر أرين المنعم عليه السبيل التي يأتي المزيد منها، وتنحدر المواد عليها والمناهج التي تفضى بها إلى دار إقامتها، وتبلغها بأمنها وملقى عصاها. »(5).

ولما تكالبت قوى الشر على المسلمين، ومحاولة محو كلمة الحق من تلك الأرض تعالت الصيحات، وارتفعت الأصوات مستحدة ومستصرخة وأخرى تحض المسلمين على الوقوف في وجه النصارى الذين استشرى خطرهم، وتفاقم شرهم، فتحمل الكتاب رسالة النصح والتوجيه والتذكير بالجهاد، لأنه فرض من الفروض الإسلامية، التي فرضها الله على عباده المؤمنين، لأنه الطريق إلى العزة والحياة، وجزاؤه

1 - الذخيرة 1/2، ص 196.

2 - ابن برد الأصغر : كاتب وشاعر. انظر ترجمته في : الجفوة ص 183. البغية، ص 354. المغرب، 1/ 86. معجم الأدباء 106/2. نفع الطيب 545/3.

3 - الذخيرة، مج 1/1، ص 491.

4 - المصدر نفسه، ص 492.

5 - المصدر نفسه، ص 494.

في الدار الأخرى أعلى الدرجات، أما المتخاذلين فلهم العذاب الأليم.

كتب في هذا الغرض الكاتب أبو محمد عبد الله بن عبد البر(1) «... وقد ندب الله مسلمي عباده إلى الجهاد في ما آية من الكتاب، يضيق عن نصها الخطاب، ترغيباً وترهيباً، فوعد المطيعين جزيل ثوابه، والعاصين أليم عقابه، والرواية عنه عليه السلام في فضل الجهاد، وما يجازي فيه رب العباد، أشهر من أن تذكر، وأكثر من أن تحصر، فالله الله في إجابة داعينا، وتلبية منادينا، قبل أن تصدع صفاتنا كصدع الزجاج فهناك لا ينفع العلاج»(2).

ومما كتبه في الاستصراخ والاستنفار قوله على لسان أهل بربرشتر بعد أن تغلب عليها العدو سنة 456هـ(3)، فسبى النساء وخرّب الديار، ومما جاء في الرسالة قوله: «من الثغور القاصية الأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام... إلى من بالأمصار الجامعة والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاية المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين من الرؤساء والمرؤوسين... حرسكم الله بعينه التي لا تنام، فإننا خاطبناكم مستنفرين، وكتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى وأكبادنا حرى ونفوسنا منطبقة وقلوبنا محترقة على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر ومسنا وأهلنا الضر»...»(4).

ثم ينتقل بعد ذلك إلى شحذ الهمم وتقوية العزائم، فيدعوهم إلى الاتحاد والتأخي بقوله «... ونبشكم - معشر المسلمين - بعض ما نابنا في ثغورنا، عسى أن

1 - ابن عبد البر : الكاتب الوزير : هو أبو محمد عبد الله بن الفقيه أبي عمر بن عبد البر التميمي توفي سنة 474هـ.

.. انظر : القلائد 181. والخريدة 3/459، المغرب 2/402، الصلة : 270. الذخيرة 1/3 ص125.

2 - الذخيرة 1/3، ص177-178.

3 - المصدر نفسه، ص179-180.

4 - المصدر نفسه، ص173-174.

تكونوا سببا لنصرتنا فالمؤمنون إخوة، والمسلمون حُمةٌ، والمرء كثير بأخيه، وإلى أمه يلجأ اللهبان، وإلى الصوارم تفرع الأقران، والسعيد من وعظ بغيره...»(1) وهكذا لم يستسلم المسلمون للعدو، وراحوا يلتمسون النجدة من إخوانهم حتى استجدوا بالمرابطين واستعانوا بهم على رفع خطر النصرانية، فبلغوا أملهم ولكن إلى حين.
فن العمارة :

لقد عني الأندلسيون في القرن الخامس الهجري بالفن المعماري، إلى جانب عنايتهم بفن القول، وضاهوا في ذلك أهل المشرق وبذوهم في بناء الدُور والقصور والمساجد. وقد اتسع هذا الفن في عهد ملوك الطوائف، وامتد إلى جميع أنحاء إسبانية المسلمة، وبلغت العمارة فيه شأوا عظيما، بفضل العبقرية الفذة التي أظهرها فنانونه وتجلت في عظمة أعمالهم ورقى ذوقهم.

وقد تنافس ملوك الطوائف في تشييد القصور، وتزيينها بالحدائق والبرك، كتنافسهم في مجال العلم والأدب، هذا إلى جانب حرصهم على الظهور بمظاهر الملك والعظمة، والتي كانت لا تترأى لهم إلا في بناء القصور الفخمة، وإقامة مجالس اللُهو، منفقين في ذلك الأموال الطائلة. ومن القصور العظيمة التي تشهد على تفوقهم وتفنتهم في مجال العمارة، قصر «الجعفرية» الذي بناه الملك أحمد المقتدر التيجيبي (2) وقد تجاوز هذا القصر بزخرفته ما شيد في المشرق والمغرب، وأعظم ما فيه مجلس الذهب...» ولا نجد نظيرا في إسبانيا لمثل هذا القصر العريق الشبيه بالحصن المشيد والمزود بتلك الأبراج...»(3) وقد اعترف المسيحيون بعظمة هذا القصر، مما دفعهم

1 - الذخيرة، ق3، مج1، ص175.

2 - المقتدر : أشهر ملوك بني نجيب في سرقسطة. وكنيته أبي جعفر، ومن هنا جاء اسم الجعفرية. حكم بين 1047 - 1081 م . وقد نظم شعرا في الإشادة بهذا القصر ومجلسه العظيم " مجلس الذهب " انظر ترجمته في

الجلل السندسية 2/ص4 .

3 - الفن الإسلامي في إسبانيا، تأليف مانويل جوميث مورينو، 1968، ص263.

للإبقاء عليه بعد استيلائهم على سرقسطة، فاتخذوه قصرا، وهو الآن ثكنة عسكرية (1).
ومن روائع فنهم أيضا قصر "جليانه" بطليطلة، والذي بناه الملك المأمون بن
ذي النون، وتفنن في إتقانه، وأنفق عليه أموالا طائلة، ومن أعجب ما فيه أنه «...
صنع في وسطه بحيرة، وصنع وسط البحيرة قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب،
وجلب الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة
على جوانبها محيطا بها، ويتصل بعضه ببعض، فكانت قبة الزجاج غلالة تما سكب
خلف الزجاج لا يفتقر من الجري، والمأمون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء ولا يصله،
وتوقد فيها الشموع فيرى لذلك منظر بديع عجيب، وهو فيها مع جواريه» (2).

كما اشتهرت طليطلة بجامعة الذي يعد ثاني جامع بعد جامع قرطبة سعة
وضخامة، وعمارا بالعلم والدروس، وقد حوّل ذلك الجامع إلى كنيسة بعد سقوط
المدينة مباشرة عام : 478 هـ - 1085م (3).

أما إشبيلية فتتبعه بقصر الإمارة « القصر المبارك » وقصر الزاهي الذي
كان يتخذة المعتضد ثم ولده المعتمد مكانا للهو، وكان تحيط به حدائق غناء (4).
وكانت عمارة هذا العهد تتميز بنظام خاص، يعرف بالأبراج المستديرة
الشكل، كما تميّزت بالرسوم الآدمية المحفورة حقا بارزا في الرخام (5). وقامت
زخرفتهم على التشبيك، والنقوش الكتابية ذات الخط الكوفي (6)، وإلى جانبها نجد
الزخرفة المستوحاة من الطبيعة، كالتوريقات والطيور وغيرها. وكانت زخرفتهم لا
تدانيها زخرفة.

1- الفن الإسلامي في إسبانيا، ص 262.

2- فتح الطيب، مج 1 ص 528.

3- تاريخ الأدب العربي د/عمر فروخ، مج 5 ص 228.

4- دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، محمد عبد الله عنان، ص 53.

5- الفن الإسلامي في إسبانيا ص 268.

6- المرجع نفسه ص 297.

وبلغ صدى فن العمارة في الأندلس إلى المشرق، فمئذنة مسجد ابن طولون بالقاهرة تقوم على دعامة أسطوانية على غرار ما عرف في الأندلس.⁽¹⁾
وهكذا عرف القرن الخامس الهجري نهضة علمية وأدبية وفنية رغم تردّي الحياة السياسية وسوء أحوالها.

1 - الفن الإسلامي في إسبانيا ص 226 .

الفصل الثاني

شعر الزهد: أسبابه ومصادره

توطئة.

أولا : نشأة شعر الزهد.

ثانيا : أسباب نشأة شعر الزهد في الأندلس.

ثالثا : مصادر شعر الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

توطئة :

لقد تجلّى الفكر الإسلامي بوضوح تحت سماء الأندلس، وانتشرت العلوم بين ربوعها الشاسعة، وازدهر الأدب، وشاعت الموسيقى في الدور والقصور، إلا أن تلك الحضارة الصاخبة، وذلك النعيم لم يُلهِ الناس عن التفكير في باريهم وباسط النعم عليهم، فكان منهم من سلك أحسن السبل، وانصرف إلى أفضل الأعمال، عملاً بقوله عز وجل : «إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (1)، فتخلوا عن الدنيا، وأعرضوا عن زخرفها، وعكفوا على الروح، محاولين تحطيم قيود الجسد وأغلاله، وتقربوا إلى خالقهم بالعبادات والطاعات وأكثروا من التضمرات والابتهالات، ونظروا فيما حولهم متدبرين متفكرين. وكان من بين هؤلاء المخلصين الصالحين شعراء خبروا الناس، وعرّكهم الحياة، فحملوا لواء الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وثاروا على الظلم والانحلال، وحاربوا الفساد والضلال في نفوسهم وفي البلاد. وكان ذلك من خلال نظم قصائد سامية الأهداف والمقاصد، عرفت بين الفنون الشعرية بفن الزهد. وقبل أن نتطرق لهذا الفن بالبحث والدراسة،

نحاول أن نقف مع مصطلح «الزهد» للتعرف على معناه ومدلوله. فما هو الزهد؟

لقد جاء لفظ «الزهد» من قولهم : زَهِدَ، وَزَهَدَ، يَزْهَدُ، زُهْدًا وَزَهْدًا، وَزَهَادَةً فِي الدُّنْيَا، وهو ضد الرغبة والحرص (2). لذا فكل من أخذ نفسه بأدب الحرمان، وصرفها عما تميل إليه وتشتهيه بفطرتها؛ من حب للحياة وزينتها وزخرفتها، وانصرف إلى العبادة فهو زاهد، «لأن من رغب عما ليس مطلوباً في نفسه لا يسمى زاهداً» (3).

وقد عرف الإمام الغزالي الزهد بقوله : «هو ترك الدنيا بأسرها مع

1 - الكهف/7.

2 - لسان العرب، لابن منظور، مج3، ص1876، ط. دار المعارف (د.ت).

3 - إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مج5، ج13، ص108.

أسبابها ومقدماتها وعلاقتها، فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات»(1). فالزهد عزوف عن الدنيا بكل ما فيها من جاه ومال، وإقبال على الطاعات. وإذا كان الإنسان لا يرتفع إلا على الأشياء والأمور الحقيرة، فإن الزهد هو: «أن تترك الدنيا بحقارتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة...»(2)، فالزهد إذن هو شراء الآخرة بالدنيا لقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (3).

وقالوا فيه أيضا «هو ترك كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، وثقة القلب بما عند الله»(4)، و «هذا صفة القلب، أما في الظاهر فترك الفضول التي لا يستعان بها على طاعة الله من مطعم وملبس ومال وغير ذلك»(5). ونرى أن التعريفين متفقان في كون الزهد ترك للدنيا ومباهاجها من أموال وزخرف، ثم الإقبال على الطاعات. إلا أن التعريف الثاني فيه دقة أكثر وتركيز على ما يجب أن يترك، وهو كل شيء لا ينفع في الدار الآخرة، إذن فلا يترك في الدنيا إلا ذلك الذي لا ينفع في الآخرة، فيكون حب الدنيا من أهم تلك الأمور التي لا تنفعنا في الآخرة، وتعطلنا في الدنيا عن القيام بالواجبات نحو المولى عز وجل، فيكون «الزهد هو إسقاط الرغبة عن الشيء بالكلية»(6)، بإخراج حب الدنيا وزخارفها وشهواتها كلية من القلب، ليملاً ذلك القلب بحب الله والإيمان به، مما يدفع بالإنسان إلى الإقبال على الطاعات بخشوع وتقوى.

1 - المصدر السابق ص 110.

2 - إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، مج 5، ج 13، ص 112.

3 - الإسراء/19.

4 و 5 - رسالة الزهد والورع والعبادة، لابن تيمية. تحقيق: حماد سلامة. نشر شركة الشهاب الجزائر، ص 74. (د.ت).

6 - مدارج السالكين للإمام ابن القيم الجوزية، ص 14. تحقيق: محمد حامد الفقي. نشر دار الكتاب العربي - لبنان - مج 2، ط 2. (د.ت).

وكل هذه التعريفات تخرج من مشكاة واحدة، وتهدف إلى الغاية لنفسها، وهي أن الزهد لا يكون إلا بترك الدنيا وحبها، وعبادة الله وطاعته، ولا يتأتى ذلك إلا للمؤمن بالله تعالى، لأن الإيمان نور للقلب، ومن استنار قلبه وعرف ربه لا يمكن أن يجرد عن طاعته أبداً.

والورع هو الخطوة الأولى في سلم الزهد، لأنه يكون بالابتعاد عن السيئات، وتجنب الشهوات التي قد تجلب لصاحبها المعاصي، ولذا رغبتنا فيه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إذ يقول: «من حَسَّنَ إسلام المرء تركه مالا يعنيه»(1)، وترك المرء لما لا يعنيه قولاً وفعلاً وفكراً هو قمة الورع. ولا يكون الزهد إلا بتجنب كل القبائح، ما ظهر منها وما بطن، وبذلك يسمو الإنسان بنفسه إلى أعلى المراتب، ويصونها عما يندسها ويحط من قيمتها في الدنيا أو الآخرة، وهنا تأتي القناعة كثمره من ثمرات الزهد، وعلامتها الرضا والشكر، كما أن التوبة تثمر المحبة والتبذل إلى الله عز وجل، والانقطاع إلى الله بالعبادة والدعاء والشكر والحمد، وكل ذلك رجاء وطمعا في الحصول على رضا الله عز وجل، إلا أن الرجاء لا يكون إلا بالطاعة وبذل الجهد في العمل الصالح والعبادة الخالصة لله تعالى.

فالزهد إذن: هو الإيمان بالله عز وجل، والعمل بما أمر به، والانتفاء عما نهى عنه، فهو عبادة، وطاعة وتقوى.

وكلمة الزهد، كلمة جامعة لمعان كثيرة نجملها في: القناعة، التواضع، الورع، الطاعة، والعمل لإرضاء الله تعالى، وترك كل شيء من شأنه أن يشغلنا عن ذكر الله حتى وإن كان ذلك الشيء حلالاً، لذا قالوا: «يكون الزهد في الحلال لأن ترك الحرام فريضة»(2)، وبما أن ترك الحرام واجب، فإنه لا يعدّ زهداً، أمّا ترك الحلال المباح فهو فضيلة وزهد، فمن ترك الدنيا بعد إقبالها عليه بالجاه والمال والغنى، مفضلاً الفقر حتى لا تشغله الأموال عن ذكر الله وعبادته قمة الزهد. لأنه بفقره وكفافه يجيا

1 - مدارج السالكين، مج2، ص22.

2 - المصدر نفسه، مج2، ص14.

مرتاح البال مطمئن القلب. ففي الزهد راحة للقلب وإنه لأفضل الأعمال، لقول الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عندما سئل عن أيِّ الأعمال أفضل فقال (ص) : « إيمان بالله » فقال السائل ثم ماذا؟ قال: « الجهاد في سبيل الله » قال ثم ماذا؟ قال: « حجٌّ مبرور » (1). وقد اجتمعت في الزهد هذه المعاني كلها، فهو إيمان بالله، وجهاد في سبيله، وإنَّ أكبر الجهاد هو جهاد النفس، وصرفها عن رغباتها وشهواتها، وحملها على الصبر، وعلى الطاعة ابتغاء مرضاة الله ونيل ثوابه، وبذلك يكون الزهد مقاما شريفا في الدنيا والآخرة. وكفى أصحابه ثناء وإطراء وصف الله تعالى لأهله بالعلم، إذ قال جلَّ شأنه : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ ﴾ (2) ووعدهم بالجزاء الحسن في قوله عزَّ من قال : ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ (3).

وأما الزاهد ف: « هو من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها، من غير نقصان جاه وقبح اسم، ولا فوات حظ للنفس، فتركها خوفا من أن يأنس بها، فيكون أنسا بغير الله، ومحباً لما سوى الله... أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة » (4).

والزاهد في الدنيا محبوب من الله والناس، لأنه لا ينطق إلا بالحكمة، ولا يعمل إلا عملا صالحا، قال رسول الله (ص) : « الزهادة في الدنيا ليست بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ولكن الزهادة أن لا تكون بما في يديك أو ثقت مما في يد الله وأن تكون في ثواب المصيبة إذا أنت أصبت بها أرغب فيها لو أنها أبقيت لك » (5).

1 - صحيح مسلم، مج 1، ص 88.

2- الفصص، الآية 80.

3- الفصص، الآية 54.

4- إحياء علوم الدين للغزالي، مج 5، ص 112.

5- صحيح الترميذي، مج 9، ص 206.

لذا يمكننا القول : إن خير الناس من ذم الدنيا، وأشاح بوجهه عنها، وشر الناس من أحبها وأقبل عليها، لقول الله عز وجل: ﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى ﴾ (1).

والزاهد لا يفرح بكل ما هو موجود من الدنيا، ولا يحزن على ما فقد منها امثالاً لقوله تعالى : « لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ » (2). فالزهد شيء جميل، والأجل منه أن يعمل الزاهد على نشر ما تعلمه وآمن به عن الدنيا وحقارتها، والآخرة وعظمتها، ويقدم ذلك على سبيل الوعظ والإرشاد لنشر الخير بين الناس. ولما كان الشعر أقرب إلى النفوس، اتخذ الشعراء أداة لهذا الفن. أولاً. نشأة شعر الزهد :

لم يكن هذا الفن مقصورا على أمة من الأمم، ولا على عصر من العصور، لأنه مرتبط بجوهر النفس، التي تنزع بفطرتها السليمة إلى الفضائل، وتسمو بكرامة الإنسان وإنسانيته إلى أرقى المراتب، وأعلى الدرجات. وقد نشأ الشعور الديني عندما أدرك الإنسان قمة ضعفه وعجزه أمام قوة وعظمة الخالق، تلك القوة والعظمة التي شاهدها بمسئدة في الكون حوله (3).

وقد حفلت الآداب القديمة بالكلمات التي أصدرها الإنسان تقرباً وتضرعاً إلى الآلهة لتحفظ حياته وتحمي ماله. ونزعة التدين فطرية في الإنسان لقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنِ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (4).

1- النساء، الآية 76.

2- الحديد، الآية 22.

3- مجلة الكاتب، عدد 217، 1979م مايو، الشعر الديني عند قدماء المصريين، أحمد سويلم ص 46.

4- الرزم، الآية 29.

لذلك فمن « العسير أن نجد أدبا لا يعبر عن عقيدة ما، برغم تباين هذه العقائد واختلافها، حتى أدعياء الفن للفن يصدر عن فكر معين، وقناعة خاصة» (1). هذا ناهيك عن أمة تشبعت بالقرآن الكريم، ورضعت من ثدي تعاليم الإسلام، وعلمت أن الدنيا زائلة، وأن الآخرة خير وأبقى. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (2).

فأثر المؤمنون ما وعدوا به في الدار الآخرة على ما بين أيديهم من حطام الدنيا راغبين في أن يشملهم ثناؤه عز وجل: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (3)، وكان معلمهم وإسوتهم محمد صلى الله عليه وسلم أحسن مدرسة في الزهد والنسك، ومن ثم أصبح الزهد لدى المسلمين نزعة أصيلة فيهم، وقيمة من قيم دينهم الحنيف، ووجد طريقه إلى جميع الأقطار الإسلامية.

وكان الخلفاء الراشدون والصحابة - رضي الله عنهم - أول من اقتدى بالرسول (ص) في زهده وورعه، ولحق بهم جمع كبير من التابعين وأتباعهم ممن يضيق المقام بذكر أسمائهم جميعا.

إلا أن كثرة الفتوحات الإسلامية واختلاط العرب بغيرهم من أبناء تلك الأقطار المفتوحة جعلهم يتأثرون بزهد تلك الأمم، وبخاصة زهد المسيحية، والتي كانت منتشرة في العراق والشام ومصر (4)، فأدى ذلك إلى التطرف الديني وخاصة عندما تأثر بعضهم بالرهبة، التي فرضتها الطقوس المسيحية على أتباعها مع أنها لم تفرض عليهم، لقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ...﴾ (5).

1- مجلة الأئمة، عدد 58، السنة الخامسة، الأدب الإسلامي وفضية الإبداع، نجيب الكيلاني، ص 15.

2- الرحمن، الآية 24 - 25.

3- القصص، الآية 54.

4- الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ط 2 - 1976م، دار النهضة للطباعة والنشر - بيروت ص 217.

5- الحديد، الآية 26.

وظهرت ملامح هذا التأثير على صعيد الحياة الاجتماعية، إذ ظهر بين الزهاد من حرّم على نفسه بعض ما أحلّ الله كالزواج وأكل اللحم، وتلقب باسم القسّ والراهب(1). وأخذ الزهد يتحوّل في كثير من الصّور إلى أنواع مختلفة من المشقّة وتعذيب النفس، طمعا في ثواب الله، وخوفا من عقابه.

أمّا في العصر الأموي، فقد انتشر الزهد بشكل واضح بين أبناء العراق، لأنه وجد ما يشجعه ويدعّمه، إذ كانت الفتن والحروب الداخليّة دافعا قويا له، فكثرت الزهاد وانتشروا في ربوع البصرة والكوفة، وعرفوا بأقوالهم ومواعظهم وسلوكهم، ونظرتهم إلى الحياة(2) الدنياء، ولم تقف نزعة الزهد عند حدّ الرجال، بل تعدّتهم إلى النساء أيضا.

ونفذت هذه الرّوح الدّينية إلى الشعراء الذين يعرفون بشدّة تأثرهم وقوّة انفعالهم بالحياة حولهم، وظهرت نزعة التدين والورع والعفة في أشعار بعضهم، حتّى في شعر أولئك الذين عرفوا بالفسق والطّيش، واشتهروا بالاستهتار أمثال الفرزدق(3)، الذي عرف بفحشه في الهجاء، فقد ظهرت على بعض أشعاره صور إسلامية تعبّر عن إيمانه باليوم الآخر، وخوفه من النّار، وندمه على إطاعته إبليس حيناً من الزّمن. ونلمس هذه المعاني الوضّاءة في قصيدته الغراء التي نظمها في هجاء إبليس، ومنها قوله:

أطعتك يا إبليسُ سبعينَ حجّةً *** فلما انتهى شيبي وتمّ عمّامي
فررتُ إلى ربّي وأيقنتُ أنني *** ملاقٍ لأيام المنون جَمّامي(4)

1- الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص217.

2- المرجع نفسه، ص217 - 218.

3- الفرزدق : هو أبو فراس همّام بن غالب التميمي، ولد بالبصرة، ونشأ على حبّ الأدب. نظم الشعر منذ صغره. واشتهر بشعر النفااض، توفّي سنة 110هـ.

4- ديوان الفرزدق مج 2، ط دار بيروت للطباعة والنشر : 1404هـ - 1984م، ص212.

ولما دنا رأسُ النبي كنتُ خائفاً *** وكنتُ أرى فيها لقاءَ إيزام(1)،
حلفتُ على نفسي لأجتهدنّها *** على حالها من صحّةٍ وسقام(2)

وما إن جاء العصر العباسي، حتى وجد الزهد سببا آخر عمل على تأصيله في النفوس، ألا وهو شيوع تيار اللّهو والمجون(3) والزندقة في المجتمع، لا سيما خلال القرن الثاني للهجرة، والذي ازداد فيه إقبال الناس على الملذّات والملاهي، وساعد على ذلك انتشار الغناء وكثرة المغنّيين والمغنيّات، وانتشر الغزل، وانغمس الناس في الأدران، فاقترضت سنة الحياة أن يكون هناك ردّ فعل على هذه الأحوال، وأن يقوم بجانب أدب اللّهو أدب آخر يدعو إلى الجدّ والنسك، ويذكر الناس بالموت، ويكثر من النصّح والوعظ. فانعظفت القلوب المؤمنة إلى ربّها، وعضّت على دينها بالتواجد، وجاهدت النفس محاولة فطامها عن الحياة المادّية الآسنة.

وأوّل من فتح للشعراء باب الوعظ والتزهد في الدنّيا، ونهى عن اتباع الهوى، هو أبو العتاهية(4) بعد تطبيقه لحياته الأولى، حياة اللّهو والعبث والمجون. هذا الشاعر الذي انطبعت أشعاره في مرحلتها الأولى بطابع التجارب الإنسانيّة، ثمّ ما لبث أن تحوّل إلى نزعة تعليميّة، حتى صار أقرب إلى شعراء الأخلاق، وأخذت أشعاره مكانها في تربية الذوق الإسلامي، وتهذيب الأخلاق. وأوقف شعره على الزهد، حتى صار صاحب ديوان في هذا الفنّ.

ومن أروع وأعظم ما نظمه في ذلك أرجوزته المعروفة بذات الأمثال، والتي تعدّ منهاجا تعليميا متكاملا، إذ وقف فيها الشاعر موقف الحكيم الذي حنّكه التجارب، فراح ينفث خبراته في صدور المتعطّشين إلى الغذاء الرّوحي. ولنستمع إليه

1 - قصد هنا : دنو الأجل، وقرب ساعة الحساب.

2- ديوان الفرزدق مج 2، ط دار بيروت للطباعة والنشر : 1404هـ-1984م، ص212.

3- الأدب العربي في الأندلس، عبد العزيز عتيق، ص219.

4- أبو العتاهية : هو إسماعيل بن القاسم، ويكنّى أبا إسحاق وأبو العتاهية لقب. كان شاعرا مطبوعا، رمى بالزندقة في شبابه، وتاب ونظم شعرا في الزهد حتى صار صاحب مذهب فيه. توفي سنة 205هـ.

انظر الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص538.

وهو يقول واعظا ومحذرا وناصحا :

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفِرَاقَ وَالْجَدَّةَ *** مفسدةٌ للعقل أي مفسدة
إِنَّ الشَّبَابَ حِجَّةُ التَّصَابِي *** روائع الجنة في الشباب
اصْحَبْ ذَوِي الْفَضْلِ وَأَهْلَ الدِّينِ *** فالمرء منسوب إلى القرين(1)

وجاء أبو نؤاس بعد أن كثرت ذنوبه، وعصفت به رياح الألم والشيخوخة وضافت به الدنيا رغم اتساعها، فلجأ إلى رحاب ربه متضرعا متبتلا نادما. قائلا :

يا ربُّ إِنَّ عَظُمْتَ ذُنُوبِي كَثْرَةً *** فقد علمتُ بأنَّ عَفْوَكَ أَعْظَمُ
إِنَّ كَانَ لَا يَدْعُوكَ إِلَّا مُحْسِنٌ *** فبِمَنْ يَلُودُ وَيَسْتَجِيرُ الْمُجْرِمُ
أَدْعُوكَ رَبِّي كَمَا أَمَرْتَ تَضَرُّعًا *** فإذا رددتَ يدي فمَنْ ذَا يَرْحَمُ
مَالِي إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ إِلَّا الرَّجَا *** وجميلُ عَفْوِكَ ثُمَّ إِنِّي مُسْلِمٌ(2)

وبعد أن فكّر وتدبّر وعلم أن عفو الله أكبر، قال :

يَا نُؤَاسِيُ تَوَقَّرْ *** وتحمّل، وتبصّر
سَاءَكَ الذَّهْرُ بِشَيْءٍ *** وبما سرّك أكثر
يَا كَبِيرَ الذَّنْبِ عَفْوًا *** لله من ذنبي أكبر(3)

وإن أعذب وأرق كلمات قالها أبو نؤاس، هي تلك التي قالها مليا يوم حجّه، تلك التلبية التي أصبح يتغنّى بها المنشدون ويرددها الحاجج والمصلّون، لما لها من وقع حسن على النفس ومنها قوله :

إِلَهْنَا مَا أَغْدَلْكَ *** مَلِيكَ كُلِّ مَنْ مَلَكَ
لَيْلِكَ قَدْ لَبَّيْتُ لَكَ
لَبَّيْكَ إِنَّ الْحَمْدَ لَكَ *** وَالْمَلِكَ لَا شَرِيكَ لَكَ
مَا خَابَ عَبْدٌ سَأَلَكَ *** أَنْتَ لَهُ حَيْثُ سَلَكَ

1- ديوان أبي العتاهية. دار بيروت للطباعة والنشر، 1400هـ - 1980م، ص 495.

2- ديوان أبي نؤاس، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - 1406هـ - 1986م، ص 618.

3- المصدر نفسه، ص 348.

لولاك يا ربُّ هلك

ليتك إن الحمد لك *** والمملك، لاشريك لك
كلُّ نبيٍّ وملك *** وكُلُّ مَنْ أَهْلُ لَكَ(1)،
وكلُّ عَبْدٍ سَأَلَكَ *** سَبَّحَ أَوْ لَبَّى فَلَكَ
ليتك إن الحمد لك *** والمملك، لاشريك لك(2)

ولمَّا أَحْسَنَ بَدَنُو الْأَجَلِ، وَصَارَ عَلَى سَرِيرِ الْمَوْتِ، رَثَى نَفْسَهُ بِهَذِهِ الْأَيَّاتِ
الَّتِي تَذُوبُ حَسْرَةً وَالْمَا عَلَى نَفْسِ أَضَاعَتْ شَبَابَهَا وَقَوَّتَهَا فِي اللَّعْبِ وَاللَّهْوِ، إِنَّهَا
أَيَّاتٌ تَنْطِقُ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَلِنَقْرَأَ مَعَهُ قَوْلَهُ :

دَبُّ فِي الْفَنَاءِ سُفْلًا وَعُلْوًا *** وَأَرَانِي أَمُوتُ عُضْوًا فَعَضْوًا
ليس من ساعة مضت بي إلَّا *** نَقَصْتَنِي بِمَرَّهَا بِي جُزْؤًا
ذهبت جدتي بطاعة نفسي *** وَتَذَكَّرْتُ طَاعَةَ اللَّهِ نِضْوًا(3)
لهف نفسي على ليالٍ وأيامٍ *** مِ تَمَلَّتِيهِنَّ لَعِبًا وَلَهْوًا
قد أسأنا كلَّ الإساءة فاللَّهُمَّ صَفِّحْنَا عَنَّا وَغْفِرْ أَوْعَفْوًا(4)

ونلمس في هذه الأبيات صدقًا في التعبير، وصدقًا في التوبة.

وبعد هذه الإطلالة السريعة نقول : إن شعر الزهد يعد تيارًا جديدًا في
أدبنا العربي، ظهر في العصر العباسي مستمداً أسسه وقواعده من الكتاب والسنة،
وسيرة الأتقياء الصالحين الذين عبدوا الدرب للمتأخرين. وإن كنا قد لمسنا في الشعر
الجاهلي والإسلامي عناصر الزهد والورع، فإنها لا تعدو أن تكون سوى ميول فطرية
ساذجة، وأفكار عابرة بعيدة عن العمق، وإن ترددت من خلالها خواطر عن الموت
والفناء، وسظوة الدهر وما إلى ذلك من المعاني والأفكار.

1 - أهل : فرح وصاح وتكلم بصوت مرتفع.

2 - ديوان أبي نؤاس، ص 481.

3 - النضو : المهزول.

4 - ديوان أبي نؤاس، ص 614.

وتظل موجة الزهد والتقشف التي شاعت بين أهل الصفوة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، مع أبي ذر الغفاري⁽¹⁾ وغيره، سوى سلوك إسلامي استنوه لأنفسهم، ثم دعوا إليه، فتبعهم بعد ذلك طائفة من المسلمين ممن عرفوا بالتقوى والصلاح، ولقبوا بالزهاد.

ولم يكن ذلك سوى إرهاصات قد ساعدت على ظهور فن الزهد، وإذا كانت هذه المدرسة قد بنت دعائمها على أسس إسلامية فلا غرو إذا وجد هذا الفن طريقه إلى جميع الأقطار الإسلامية، ومن ثم لقي بين الأندلسيين حضا دافعا وصدرا حنونا.

1 - أبو ذر الغفاري : صحابي جليل، عرف بورعه وزهده وصدقه، قال فيه الرسول (ص): « ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء، من ذي لهجة أصدق من أبي ذر ». تهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري / مسند علي ابن أبي طالب، ص 158. تحقيق : أبو فهر محمود محمد شاكر. نشر مطب المدني - المؤسسة السعودية بمصر - القاهرة، السفر 4.

ثانيا - أسباب نشأة شعر الزهد في الأندلس :

الكلمة أداة تعبير وتوصيل وتأثير، فما أعذبها إن كانت تشع بالنور، وتضيء الصدور بالإيمان الذي يقوي العزائم، وينعت الحياة فيمن أماتتهم شهوات الدنيا، وصاروا دمي وثمانيل لا تحركهم سوى الأطماع والمنافع.

والشعر الأصيل هو الذي يحمل وظيفة كبيرة، ويدعو إلى فكرة عظيمة، أو يدافع عن عقيدة صحيحة بالكلمة المبدعة، التي هي سلاح المؤمن، الذي يسعى دائما إلى مقاتلة جاهلية نفسه وعصره، قال تعالى : « اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ... »(1).

والأندلس الإسلامية عرفت حياة الرخاء والسعة، فانغمس الناس في اللهو والترف، وشاع المحون، وكثرت مجالس الغناء والشرب. كما عرفت الأتقياء الصالحين المستمسكين بدينهم، أولئك الذين أخذوا بالزهد في الدنيا، وانصرفوا عن متاعها وزخرفها، وعاشوا على الابتغال إلى الله، والتطلع إلى ما وعد به عباده الصالحين. فدعوا إلى الآخرة ورغبوا فيها، وذموا الدنيا ونفروا منها.

وكثر الزهاد والمتزهدون، حتى أصبح الزهد صناعة مطلوبة ومرغوبة لدى شعراء الأندلس، فنظموا فيه وأطبوا وأجادوا(2).

1 - وأول حقيقة تجدر الإشارة إليها، هي أن الشعراء الأندلسيين كانت نفوسهم مهيئة لهذا اللون من الشعر بحكم ثقافتهم الإسلامية القائمة على حفظ القرآن، والعناية بالعلوم الشرعية، وكانت الدراسات الأساسية عندهم: الدراسة الإسلامية والعربية(3)، فتضلعوا في العربية لأنها وسيلتهم إلى فهم القرآن وتعمق معانيه.

والزهد يصدر عن قيم دينية إسلامية، هذه القيم التي دعمها النقاد بمساهماتهم في توجيه الشعر نحو الدين والأخلاق، وحكموا الدين في تذوق الشعر

1 - النحل، الآية 125.

2- أدباء العرب، لبطرس البستاني، ص62.

3 - انظر مقدمة العلامة ابن خلدون، مط الأميرة بهلولاق - ط3، 1320 هـ - ص543.542.

والحكم عليه والصدور عنه(1).

2 - كما كان لسلطان الفقهاء على العامة والخاصة دور فعال في التحفيز على الاستمسك بالدين، والتظاهر بالعبادة والتقوى، والافتداء بالأولياء والصالحين، والنفور من الدنيا وزخرفها.

وقد استمدوا قوة سلطانهم من تلك المنزلة الرفيعة التي حظي بها الفقهاء في الأندلس، وكفاهم قدرا أنهم كانوا يلقبون الأمير العظيم « بالفقيه » تنويها وإكبارا، كما يقولون للكاتب والعالم اللغوي والنحوي « فقيها » لأنها عندهم أرفع السمات(2). وقد امتدت سلطتهم إلى الشعر والنقد، لأن معظم شعراء الزهد كانوا فقهاء، وابن حزم مثال للفقيه الناقد الشاعر.

3 - هذا إلى جانب كثرة الفتن والحروب والمحن التي طبعت في نفوس الشعراء آلاما عميقة فنظروا إلى الدنيا نظرة اعتبار واستبصار، بعد أن أدركوا أن الأيام دول بين الناس، والحياة لا تخلو من القلق والخوف والحزن، فلجأت فئة من الشعراء إلى رب العباد آملة الراحة والطمأنينة، راجية ثواب الله ونعيم الآخرة بعد أن فقدته في الدنيا.

4 - أما من وقعوا ضحية ظلم الحكام واعتسافهم، فإنهم اندفعوا إلى الزهد والعزلة، لأن في ذلك نجاتهم وسلامتهم، ولطالما قربت الشدائد إلى الله.

5 - وهناك من وجد في الزهد وسيلة للتوبة، والتطهر من الذنوب والخطايا التي أنقضت ظهره، فسارع إلى ربه وولي نعتة تائبًا متضرعًا.

وهذا السبب عرفناه لدى شعراء الزهد في المشرق والمغرب، إذ رأينا أبا نواس شاعر الخمرة ينظم أروع الدرر في الزهد، بعد أن أحنث ظهره السنون،

1- نفع الطيب، مج1، ص206. العمدة لابن رشيق، تحقيق: محمد عمى الدين عبد الحميد، ط/دار الجيل -

بيروت - لبنان - ط5، 1981م، ج1، ص118.

2- نفع الطيب للمفري، ، مج1، ص206.

وناءت نفسه بالذنوب، عندها أحس بالندم وأدرك الحقيقة، وعرف أن اللذة والنشوة التي طلبها في الخمرة زائلة، وأن لذة التوبة والرجوع إلى الله خير وأبقى. ومن أحسن ما جادت به قريحته في هذه المرحلة قوله في مخاطبة نفسه :

يا نواسي توقر *** (1)

وفي الأندلس نجد الشاعر ابن عبد ربّه (2)، ينظم أشعارا كثيرة في الزهد، سماها المحصّات (3)، وهي قصائد تكفيرية، حاول أن ينقض بها قصائده التي نظمها في الصبا والشباب، ومن مختارات شعره قوله :

أتلهو بين باطية (4) وزير (5) *** وأنت من الهلاكِ على شفير
 فيا مَنْ غرّه أملٌ طويلٌ *** به يرزى إلى أجلٍ قصيرٍ
 أفتفرح والمنية كلُّ يومٍ *** تُريك مكانَ قبرك في القبور
 هي الدنيا وإن سرتك يوماً *** فإنَّ الحزنَ عاقبة السرور (6)

وهذه الأشعار كلها في الزهد والمواعظ، أعلن فيها الشاعر عن توبته وندمه على هوه وعشه، وتجاهله للآخرة وما ينتظره فيها من حساب وعقاب، أو جزاء وثواب، ولتقرأ معه هذه الكلمات العذبة عليها تجد إلى نفوسنا منفذا وطريقا حسنا :

يا عاجزا ليس يعفو حين يقتدرُ *** ولا يقضى له من عيشه وطرُ
 عاين بقلبك إن العين غافلةٌ *** عن الحقيقة واعلم أنها سقرُ
 سوداء تزفر من غيظٍ إذا سمرتُ *** للظالمين فلا تبقي ولا تذرُ

1 - انظر الأبيات لقد مرت ص 51 .

2 - ابن عبد ربّه: أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربّه بن حبيب بن خدير بن سالم الأندلسي. كان من أهل العلم والأدب والشعر. ولد سنة 246هـ، وتوفي عام 328هـ. ومن أشهر ما تركه لنا: مصنفه العقد الفريد في الأدب. انظر ترجمته في الجذوة، ص 164-165، وبتهمة الدهر للثعالي، ج2، ص5.

3 - جذوة المقتبس للحميدي، ص 166.

4 - باطية: خمر، 5 - الزير: إناء الخمر

6 - بتهمة الدهر للثعالي، ج2، ص80.

7 - جذوة المقتبس للحميدي، ص 166.

إن الذين اشتروا دنيا بآخره *** وشقوة بنعيم ساء ما يجروا
يا من تلهى وشيب الرأس يندبه *** ماذا الذي بعد شيب الرأس تنتظر
لو لم يكن لك غير الموت موعظة *** لكان فيه عن اللذات مُزَجَرُ(1)

وهناك من الشعراء الأتقياء الذين تخصصوا في هذا اللون من الشعر، كابن أبي زمين(2)، صاحب ديوان النصائح والمواعظ، ومن سار على دربه من الشعراء، وجلهم كانوا فقهاء مثل : ابن حزم وأبو إسحاق الإلييري، وابن العسال، وابن باجة وغيرهم...

أ - شعر الزهد في الأندلس قبل القرن الخامس الهجري :

لقد كان ظهور شعر الزهد في العصر العباسي أمراً طبيعياً، لأنه هو التيار المضاد لتيار الخلاعة والمجون الذي استشرى أمره في المجتمع العباسي.
أما في الأندلس فقد ولد هذا الشعر في أحضان الثورة على الحكم الربضي(3)، هذا الأمير الذي عرف بشغفه بمجالس الرقص والغناء، ومجالسة الشعراء والندماء، حتى ساءت العلاقة بينه وبين الفقهاء ورجال الدين.
ونظم الأتقياء شعراً في الزهد ضمنوه التعريض به والتعريض عليه، وكانوا يتغنون بتلك الأشعار ليلاً، ثم أخذ هذا اللون من الشعر يقوى رداً على الحياة اللاهية في المدن، وانقيادا لدواعي النفس المؤمنة. وقد كان له شعراؤه أمثال ابن عبد ربه،⁽⁴⁾

1 - جذوة المقتبس للحميدي، ص 166.

2 - ابن أبي زمين : هو محمد بن عبد الله بن عيسى أبو عبد الله المعروف بأبي زمين، فقيه مالكي من الروعاط الأديباء من أهل البصرة. عاش بين سنتي 324 - 399 هـ الموافق لـ 936 - 1009 م. له كتب كثيرة في الأدب والفقه والمواعظ، منها : أصول السنة، ومنتخب الأحكام وتفسير القرآن، والمغرب في اختصار المدونة وشرح مشكلها. والنصائح المنظومة شعراً. انظر : جذوة المقتبس للحميدي ص 100 - 101، الأعلام للزركلي ج 6، ص 227.

3 - الحكم الربضي : هو ابن هشام، حكم بين سنتي 180 - 206 هـ - 796 - 822 م. وقد عرف بشدة بأسه وحزمه وحسن تدبيره. تمكن من القضاء على الفتن وإخماد الثورات، ولد سنة 154 هـ وتوفي بعد وقعة الربض بأربعة أعوام سنة 206 هـ. انظر : المغرب في حنى المغرب لابن سعيد ص 38 ج 1 .

4 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ط 6 - 1981 . ص 147 .

وابن الغزال(1)، وابن أبي زمنين والزيدي(2)، وغيرهم من الذين ذموا الدنيا ورهبوا منها، ورغبوا في الآخرة، فحضوا على العمل الصالح لأنه الوسيلة الوحيدة لنيل رضا الله.

ومما جاء في إبراز غدر الأيام وحقارة الدنيا قول ابن عبد ربه :
ألا إنما الدنيا غضارة أَيْكَةِ *** إذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما الآمال إلا فجائع *** عليها ولا اللذات إلا مصائب(3)
وفي الترهيب من الدنيا، والتحذير من غدر الأيام، وتقلب الأحوال يقول ابن أبي زمنين :

أيها المرء إن دنياك بحرٌ *** طامحٌ موجهٌ فلا تأمنها
وسبيلُ النجاة فيه ميينٌ *** وهو أخذُ الكفافِ والقوتِ منها(4)
فالدنيا بحر خضم، والليب هو من أعرض عنها، وتذكر الموت، وعمل عملا صالحا للفوز والنجاة في الدار الأخرى.

وإذا كان الموت ضريبة لازمة، وكل نفس ذائقة منه. فما هو ابن أبي زمنين مرة أخرى يذكرنا به، ويدعونا للتفكير فيه بقوله :

الموتُ في كلِّ حين ينشُرُ الكفنا *** ونحن في عَفَلَةٍ عما يُرادُ بنا
لا تطمئن إلى الدنيا وزُخرفها *** وإن توشحت من أثوابها الحُسنا

1 - ابن الغزال : شاعر من شعراء الدولة الأموية في الأندلس، وهو يحيى بن الحكم البكري، يكنى أبا زكريا، ويلقب بالغزال لجماله وطره وأناقته. نظم الشعر منذ صغره، وكان ميالا إلى الدعابة والتهكم، ولكن تطبعه في الوقت نفسه نزعة فلسفية حرة. كان متضلعا بالعلوم. وجمع بين الأدب والحكمة والسياسة. توفي حوالي سنة 250م. انظر ترجمته في : تراجم إسلامية، شرقية وأندلسية لحمد عبد الله عنان، ط1، 1947م، دار المعارف مصر.

2 - الزيدي : هو أبو بكر محمد بن الحسن الزيدي : كان أحفظ أهل زمانه للإعراب والفقه، واللغة والمعاني والوادر. من مؤلفاته اختصار كتاب العين، وطبقات النحويين واللفويين في الأندلس، والمشرق من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن عبد الله الرياحي النحوي معلمه. وله كتاب الأبنية في النحو. وإلى جانب تفضله في اللغة والنحو كان شاعرا. انظر بيتمة الدهر، ج2، ص71.

3 - أدباء العرب، بقرس البستاني ص62.

4 - بيتمة الدهر، للثعالبي، ج2، ص72.

أين الأحبة والجيران ما فعلوا *** أين الذين هم كانوا لنا سَكَنًا
سقاهم الدهر كأسًا غير صافية *** فصيرهم لأطباقِ الثرى رهنا(1)

فالموت غاية كل حي، هذا ما تقرره الشريعة الإسلامية، وتشير إليه هذه
الآيات، بعد أن أدرك صاحبها بحسن بصيرته، وعلمه هذه الحقيقة والنتيجة التي يخلص
إليها كل حي. قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (2). وفي سورة أخرى جاء قوله
تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجْرَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُخْرِحَ عَنِ
النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (3). وكثيرا ما كان
شعر الزهد في هذا العهد يلتبس بالشعر التعليمي لأن جله يصدر عن دواعي
الشيخوخة وما تحدثه في النفس من ندم وخوف من الموت وما بعده؛ ومن هنا عبر
هؤلاء الشعراء عن ندمهم وذموا الدنيا وحذروا من غرورها، وتقربوا إلى الله تعالى
معتذرين معترفين بخطاياهم وذنوبهم. وفي هذا الموضوع يقول الزبيدي:

لقد فاز الموفق للصواب *** وعاتب نفسه قبل العتاب
ومن شغل الفؤاد بحب المولى *** يجازى بالجزيل من الثواب
فذاك ينال عزا لا كعز *** من الدنيا يصير إلى ذهاب
تفكر في الممات فعن قريب *** ينادى بالرحيل إلى الحساب(4)

ويرى أن النجاة والفوز لا يكون لامرئ إلا إذا تاب وعمل بما جاء في كتاب الله عز
وجل.

وقدِم ما ترجى النفع منه *** لدار الخلد واعمل بالكتاب
ولا تغتر بالدنيا فعما *** قريب سوف تؤذن بالخراب(5)

1 - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص 117.

2 - الرحمن، الآية 24.

3 - آل عمران، الآية 185.

4 - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة، إحسان عباس، ص 117.

5 - المرجع نفسه.

وكان لانتشار الفقهاء ببلاد الأندلس دور كبير في ازدهار هذا اللون من الشعر، إذ حتى الخطباء استعانوا بالنظم في تقديم خطبهم قصد الحث على التقوى والزهد. وإذا كان القاضي يحمل رسالة الوعظ والإرشاد، ولواء نشر الإسلام، فإنه يعمل على تكوين أمة تدعو إلى الخير وتأمّر بالمعروف وتنهى عن المنكر، ومن بين القضاة الشعراء في هذا العصر نذكر القاضي الفاضل والخطيب المقوه، الشاعر المنذر ابن سعيد البلوطي(1)، الذي رأى أن الكلمة الشاعرة لها دور فعال في بعث اليقظة والوعي، فنظم في الزهد أشعارا تتلاءم مع رسالته ووظيفته في الوعظ والخطابة، ومما قاله في مخاطبة الشيخ اللاهي المغتر بالدنيا :

كَمْ تَصَابِي وَفَدَ عَلَكَ الْمَشِيبُ *** وَتَعَامَى عَمْدًا وَأَنْتَ اللَّيْبُ
كَيْفَ تَلْهُو وَقَدْ أَتَاكَ نَذِيرٌ *** إِنَّ يَوْمَ الْجِمَامِ مِنْكَ قَرِيبٌ
يَا سَفِيهَا قَدْ حَانَ مِنْهُ رَحِيلٌ *** بَعْدَ ذَلِكَ الرَّحِيلِ يَوْمٌ عَصِيبٌ .

ثم يذكره بالموت، والأجل الموقوت، ويحاول ترفيهه من الدار الآخرة، ويدفعه للعمل الصالح إذ يقول :

إِنَ لِلْمَوْتِ سَكْرَةٌ فَارْتَقِبْهَا *** لَا يُدَاوِيكَ - إِنْ أَتَيْتَ - طَيْبٌ
بِأَمْوَالِ الْمَعَادِ أَنْتَ عَلِيمٌ *** فَاعْمَلْ جَاهِدًا لَهَا يَا رَتِيبٌ
وَتَذَكَّرْ يَوْمًا يُحَاسَبُ فِيهِ *** إِنْ مَنْ يَذَكَّرُ فَسَوْفَ يُنِيبُ
لَيْسَ مِنْ سَاعَةٍ مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا *** لِلْمَنَايَا عَلَيْكَ فِيهَا رَقِيبٌ(2)

رغم أننا نلمس تكلفا وصنعة بادية على هذه الأبيات، إلا أنها تظل تحمل رسالة نبيلة في دعوتها إلى الطاعة، والتحذير من الغفلة، والتذكير بيوم المعاد، وهكذا فهي كلمات مسؤولة ملتزمة، مشحونة بالإيمان القوي والصدق العاطفي، مما يساعدها على ملامسة القلوب النظيفة فتزيدها قوة وتدفعها إلى العمل الصالح.

1 - البلوطي : خطيب بني أمية : منذر بن سعيد البلوطي الشهير : كان قاضيا وخطيبا وشاعرا زاهدا ورعا .
انظر : المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ج1، ص183.

2 - مجلة الأزهر، ج9، ص18. مقال : الخطابة في الأندلس للأستاذ أحمد الشرباصي، ص 861 .

وهذا القاضي ابن الفرضي (1)، يقف أمام ربه مناجيا متضرعا خاشعا :

أَسِرُّ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَأَقِفُ *** وَجَلِّ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفٌ
يَخَافُ ذُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا *** وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهوَ رَاجٍ وَخَائِفٌ
وَمَنْ ذَا الَّذِي يُرَجِّي سِوَاكَ وَيُنْتَقِي *** وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مَخَالَفٌ (2)

وتزداد المناجاة عمقا عندما يتذكر الشاعر ظلمة القبر، ويوم الحشر،
وعندها نحس مع الشاعر بذلك القرب الذي تلغى فيه المسافات وتحطم الحواجز، فهو
قريب من ربه لكنه يحس مع ذلك بالعبودية التي لا يمكن أن تكون إلا لله عز وجل.
ومن خلال خوفه يلوح الأمل كوميض برق من هذه الكلمات.

فِيَا سَيِّدِي لَا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي *** إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ
وَكَنْ مُؤَنِّسِي فِي ظَلْمَةِ الْقَبْرِ عِنْدَمَا *** يَصْدُ ذُوو الْقَرْبِيِّ وَيَجْفُو الْمُؤَالِفُ
لَكِنْ ضَاقَ عَنِّي عَفْوُكَ الْوَاسِعَ الَّذِي *** أَرْجَى لِإِسْرَافِي فَإِنِّي لَتَأَلِفُ (3)

هذا هو المؤمن، لا يعرف اليأس والقنوط من رحمة الله عز وجل إلا أن ذلك لا يمنعه
عن العمل من أجل الحصول على رضا ربه، كما شارك في هذا النظم رجال اللغة
والنحو أمثال الزبيدي صاحب كتاب : طبقات النحويين واللغويين في الأندلس
والمشرق ومما قاله في الوعظ :

وَلَوْ لَمْ تَكُنْ نَارٌ وَلَا جَنَّةً *** لِلْمَرْءِ إِلَّا أَنَّهُ يُقْبَرُ
لَكَانَ فِيهِ وَاعِظٌ زَاجِرٌ *** نَاهٍ لِمَنْ يَسْمَعُ أَوْ يُنْصَرُ (4)

1 - ابن الفرضي : هو أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأروبي الفرضي المعروف بابن
الفرضي، فقيه وعالم زاهد، تولى القضاء في بلدته بلسية أيام الدولة المروانية، وكان زاهدا ورعا، أثر الآخرة
ونعيمها على الدنيا وزخرفها، عاش بين سنتي [351هـ - 403هـ] أشهر مصنفاته كتاب تاريخ علماء
الأندلس. انظر فتح الطيب، مج2، ص130. والمغرب في حلى المغرب لابن سعيد، مج1، ص103. والذخيرة
القسم 1، مج2، ص130.

2 - فتح الطيب للمقري، مج2، ص129.

3 - المصدر نفسه.

4 - بيتة الدهر للتمالي، مج2، ص71.

فالموت هو أعظم واعظ وزاجر للإنسان، ليعلم أن خير الزاد التقوى، ويعمل على
مجانبة الشرور، وعدم اجتراح الآثام، ويخرج من قلبه حب الدنيا والمال والشهوات لأن
مصير كل ذلك الزوال.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شعر الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري :

أما في القرن الخامس الهجري، فقد كانت الفتن والمحن، وفوضى الحياة السياسية سببا قويا في نهضة هذا الفن وازدهاره، لأنه أضحى هو السبيل الوحيد الذي يلجأ إليه الشعراء للخلاص والنجاة من غوائل الحياة، كما انتحاه بعضهم لشعورهم بالنقمة على الدنيا، وحظهم منها، فعبروا من خلاله عن ثورتهم على الناس من حولهم، ومن الذين مثلوا هذا الاتجاه الشاعر السمسير(1)، الذي قال عنه ابن بسام : «كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره.. وله مذهب استفرغ فيه بجهود شعره، من القدح في أهل عصره»(2). وهجاؤه أكثر من مدحه، وكيف لا يكون كذلك وهو يرى تخاذل الحكام في عصره وتواطؤهم مع العدو، وأما الرعية فتعيش في خنوع وخضوع، وتما قاله الشاعر مبيّنا حال الملوك، منددا بتخاذلهم وتقاعسهم :

نادِ الملوك وقلْ لهم *** ماذا الذي أحدثتم
أسلمتم الإسلام في *** أسرِ العِدَا وقعدتم
وجبّ القيامُ عليكم *** إذْ بالنصارى قعتم
لا تنكروا شقُّ العصا *** فعصا النبي شققتم(3)

وإذا كان شرّ الأمور محدثاتها، فإنّ تخاذل وجبن ملوك الطوائف، وانقيادهم للطاغية، واستعانتهم بالأعداء على بعضهم بعض، كان مستحذنا، ونذير شوم على البلاد

1 - السمسير : هو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيري المعروف بالسمسير، أصله من إلبيرة (قرب قرطبة) وسكن غرناطة مدة، اتصل خلالها بصاحبها باديس بن حبوس (430 - 466م).

واشتهر بالهجاء وهو المذهب الذي استفرغ فيه جهده، وكان شاعرا مطبوعا. وأغراضه الشعرية : الشكوى والزهد والحكم والنسيب والهجاء.

انظر ترجمته في : الخريدة ص 167، قسم شعراء المغرب والأندلس، الذخيرة القسم 1، مج 2، ص 882 - 883. المغرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية، ص 93. نفع الطيب للمقري، مج 4. الجفوة للحميدي، ص 193.

2 - الذخيرة لابن بسام، القسم 1، مج 2، ص 882.

3 - المصدر نفسه، ص 885.

والمسلمين. وتنديد الشاعر ودعوته للخروج عن طاعة الحكام، والقيام عليهم كان أمرا طبيعيا، إلا أن الشجاعة والجرأة التي أنطقت الشاعر لم تكن متوفرة لدى الرعية ومن ثم نقم على الناس أجمعين وذم غدرهم وشرهم فقال :

رأيتُ بني آدم ليس في *** جموعهم منه إلا الصُورُ
 فلما رأيتُ جميعَ الأنامِ *** كذلك صرتُ كطيرٍ حذِرُ
 فمهما بدا منهمُ واحدٌ *** أقلُّ قُلْ أعوذُ بربِّ البشرِ(1)

وإذا كانت معرفته بالناس دعت للنفور منهم واليقظة، حتى ليبلغ السخط منه ذروته فيقول

تحفظ من ثيابك ثم صنها *** وإلا سوف تلبسها جدادا
 وميز عن زمانك كل حين *** و نافر أهله تسد العبادا
 وظن بسائر الأجناس خيرا *** وأما جنس آدم فالعبادا(2)

فأي مجتمع هذا المجتمع الذي يصبح الإنسان فيه كالحيوان المتوحش، ينتظر الفرصة السانحة لاقتناص فريسته .

ومهما قلنا إن هذه الأبيات ذات مسحة تشاؤمية، إلا أنها تظل تعبر عن مجتمع كثر فيه الفساد والانحلال ، وعمته الفوضى والمحن ، وفقد الناس الشعور بالأمان والاطمئنان ، فكان هذا الشعور ترجمانا للفكر، ولسان حال العصر؛ لذلك لم يجد الشاعر أمامه سوى طريق الزهد، فيبتعد عن الناس والحياة بكل ما فيها من فساد وظلم وينظم في ذلك غررا و ينطق بالحكم إذ يقول :

1- الذخيرة لابن بسام، قسم 1، مج 2، ص 895.

2- المصدر نفسه.

جملة الدنيا ذهابُ *** مثل ما قالوا سرابُ
والذي منها مشيدٌ *** فخرابٌ ويابُ
وأرى الدهرَ بخيلاً *** أبدا فيه اضطرابُ(1)

وقد يختلط هذا الغرض بالاتجاه الفلسفي والشعر التعليمي، إلا أن الزهد بات هو الغاية التي تُفجّر في نفوس الشعراء الطاقات الوجدانية، وتدفعهم إلى التعبير عما يجيش في نفوسهم ويختلج في صدورهم من أحاسيس قيّضة ومشاعر نبيلة، التي من شأنها إذا بلغت الأذان أن تحرك النفوس وتوقظ الضمائر.

إذن فالزهد في هذا القرن دعت إليه ظروف الشعراء وواقعهم السياسي والاجتماعي، وإن كان بعضهم نظمه بدافع ديني أو تقليدي، وصار لدى بعضهم مذهبا أدبيا وأخلاقيا(2)، كما كان في المشرق عند أبي العتاهية(3).

فظهر شعراء زهاد انقطعوا للنظم في هذا الفن، لأنّ الإنسان المسلم عقدي أخلاقي بالدرجة الأولى. وقد مثل هذا الاتجاه الشاعر الزاهد أبو إسحاق الإلبيري(4)، الذي انقطع للقول في هذا الغرض حتى صار لديه ديوانا كاملا كلّه مواعظ وزهد.

1- الذخيرة لابن بسّام، قسم 1، مج 2، ص 889.

2- تاريخ الأدب الأندلسي، للدكتور إحسان عباس، ص 130.

3- ثورة الحمريات وثورة الزهديات، لمحمد الصادق عفيفي، ص 112.

4- أبو إسحاق إبراهيم بن مسعود النجيبى الفرناسي الإلبيري، عربي الأصل، تعلم على يد الفقيه الشاعر ابن أبي زمنين، وسكن غرناطة أيام باديس بن حبوس، وأنكر عليه كونه استوزر ابن النفرلة اليهودي، فنفى إلى البيرة وسكن في ضواحيها الخربة في زاوية تسمى: رابطة العقاب، وكانت هذه أكبر محنة في حياته، وانقشعت غيوم الغضب وعاد شاعرنا إلى غرناطة ونظم قصيدته الشهيرة في تحريض البربر الصنهاجيين ضد اليهودي العربي ابن النفرلة وجمع غفير من قومه.

وكان أبو إسحاق فقيها ومحدثا وشاعرا، تولى الكتابة للقاضي ابن نوبة، وخلف ديوانا في الزهد والحكم والمواعظ. توفي سنة 460 هـ. انظر ترجمته في: المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ج 2، ص 132. التكملة

لكتاب الصلّة لأبي بكر الفضاغبي المعروف بابن الأكار ص 136، 137. وترتيب المدارك وتقريب المسالك للقاضي عياض، الطبعة العاشرة، مج 6، ص 79.

وإلى جانبه، هناك لفيف من الشعراء الفقهاء نذكر منهم : أبو الوليد الباجي(1) وابن العسال(2) وابن حزم وغيرهم... وقد غلب الوعظ على شعر هؤلاء. وهناك جماعة من شعراء هذا الفن لم ترعو إلا بعد أن طرقت الكهولة والشيخوخة أبوابها، وولى عنها عهد الصبا والقوة، وعند ذلك لم يجدوا بدا من الإنابة والرجوع إلى رب العالمين.

وللتكفير عن ذنوبهم نظموا شعرا بكوا فيه على خطاياهم وتحسروا على غفلتهم، وتألوا وتأسفوا على ما انقضى من جدتهم في اللهو واللعب؛ وهكذا أعلنوا توبتهم

1- أبو الوليد الباجي : الإمام القاضي الفقيه الأديب العالم المتكلم، شيخ الأندلس وعالمها الذي كانت تشد إليه الرحال، ذلك هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد بن أيوب بن وارث التحمي الباجي القرطبي، أصله من بطليوس، ومولده في باجة غرب الأندلس سنة 403هـ . أخذ العلم بالأندلس، وله رحلة إلى المشرق ولما رجع إلى الأندلس وجدها في اضطراب سياسي وفني، فعمل جاهدا على جمع شمل ملوك الطوائف، ودعا إلى توحيدهم، وجادل ابن حزم في مذهبه الظاهري.

وتم تفقهوا على يده : أبو بكر الطرطوشي، والقاضي ابن شيرين، وأبو علي الجياني وغيرهم. ولي القضاء في أماكن كثيرة من الأندلس، من مصنفاته : المتقى في شرح موطأ مالك في الفقه، واختلاف الموطآت.. توفي سنة 474هـ. انظر : الذخيرة لابن بسام، ق2، م1، ص94-98-101. المغرب في حلي المغرب لابن سعيد، ج1، ص406. الوفيات لابن قنفذ ص255.

2- ابن العسال : محمد عبد الله بن فرج المعروف بابن العسال الزاهد، كان فقيها يؤخذ عنه، ومن الذين أخذوا عنه: أحمد بن محمد بن محمد بن عمر بن يوسف.. بن ورد، كما روى عنه أيضا أحمد بن طاهر بن عيسى بن رصبص. ولد في مطلع القرن الخامس الهجري وتلقى العلم على أبيه وعلى نفر من العلماء نذكر منهم ابن عبد البرمكي. انتقل إلى غرناطة بعد سقوط طليطلة وظل بها يقرأ الفقه والتفسير حتى وافته المنية سنة 487هـ.

وإلى جانب تضلعه في الفقه، وحفظه للحديث، كان ذا معرفة واسعة بالأدب والنحو والتفسير، وكان أديبا فصيحاً وشاعراً مطبوعاً، ولم يصلنا من شعره سوى نثف في الزهد والوعظ. انظر الديباج المذهب ص45.41. ونفع الطيب المقرئ ج3 ص208 - 228 وج4 ص135.

وكان شعر الزهد هو المعبر عن حالهم، ومن بين هؤلاء الشعراء نذكر : ابن خفاجة(1) شاعر الطبيعة والجمال، الذي عشق الحياة، وأسرف في الانغماس في الملذات؛ لكنه أناب إلى ربه في آخر حياته، وخلد تلك الأناة والآهات في شعر جميل يثلج الصدور ويبعث على الإيمان والتقوى.

وزغم قلة هذه الأشعار في ديوانه، إلا أنها تعبر عن خوفه من لقاء ربه بنفس مثقلة بالأوزار والآثام، وهذا الألم خلق منه رجلا حكيما، فوعظ وأرشد ونصح ودعا للعبادة والطاعة قبل فوات الأوان، ورغب في قيام الليل قائلا :

طوبى لعبدٍ قسامٍ خشيته ربه *** واللَّيلُ قد ضربَ الظلامَ رواقا .
خضيلَ المدايعِ خوفَ عَرَضَةِ مالك *** خضعَ الملوكُ له بها أعناقا(2)

وما يحزن الشاعر ويبعث الألم في نفسه، هو أن يرى الإنسان غافلا منغمسا في اللذات والشهوات :

وما الغيُّ إلا أن يعبدنا الهوى *** ولم ندرِ جهلاً أننا معشرٌ أسرى (3)
فمن الجهل أن ينقاد العبد للدنيا، و يقبل على شهواتها و يتجاهل حقيقة وجوده، وينسى قوله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ »(4).

وقد سار الشاعر على درب القدامى في ذكره للموت والقبر، ومقارنته بين الحياة الدنيا، والدار الآخرة قصد الوعظ والإرشاد. وأما ابن الحداد، شاعر الدولة الصمادحية فقال :

1- ابن خفاجة : هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن خفاجة، كان شاعرا مطبوعا عاش في عصر ملوك الطوائف، وعده ابن سعيد من العلماء والأدباء الأفاضل. له ديوان شعري مطبوع، اشتهر بوصف الطبيعة، توفي سنة 533هـ وهو ابن اثنين وثمانين سنة.

انظر: المغرب في حلى المغرب مج1، ص 367.

2- حياة واثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة، حمدان حجاجي، ط2 - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر. (د.ت)، ص172:

3- المرجع نفسه، ص 169 .

4 - الزايات/ 56 .

لزميتُ قناعي وقعدتُ عنهم *** فلستُ أرى الوزيرَ ولا الأميراً
وكنتُ سميرَ أشعاري سفاهاً *** فعدتُ لفلسفياتي سميراً(1)

فهو لم يسلك طريق الزهد إلا بعد أن قضى من الدنيا وطره، وفرغت يده منها ومن ممدوحيه.

وقد عبّر الشاعر(2) عن فلسفته في الزهد فقال :

ذهب النَّاسُ فأنفرادي أنيسي *** وكتابي محدثي وجليسي
صاحبٌ قد أمِنْتُ منه مِلاًلاً *** واختلالاً وكلُّ خُلُقٍ بئيسٍ .
ليس في نوعه بحبي ولكنُّ *** يلتقي الحَيُّ منه بالمرموسِ(3)

وقد صدر شعره هذا عن ثقافة واسعة، وعلم غزير حتى قيل فيه : «وترى

العلم ينم على أشعاره، ويتبين في منازعه وآثاره...»(4).

وكان من الشعراء الذين تشبعوا بالثقافة الفلسفية، فأضحت مصدرا

لشعره في الزهد.

أما الصنف الثاني، فهو الشعر الذي يصدر عن علماء أتقياء عاملين

بعلمهم(5) وزهدهم، ومن بينهم الشاعر أبو إسحاق الإلبيري (ت460هـ)، الفقيه

1- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر ملوك الطوائف والمرابطين، لإحسان عباس، ص131.

2- الشاعر : هو الوزير الكاتب، محمد بن أحمد بن عثمان القيسي، أبو عبد الله بن الحداد، أعظم شعراء المعتصم بن صمادح بلا منازع، كان من الشعراء المجيدين، واسع الثقافة متقناً للعلوم، حافظاً للحديث، مؤرخاً وناقداً. له كتاب في العروض مزج فيه بين الموسيقى والآراء الخليلية، وله ديوان يضم مختلف الأغراض الشعرية منها : المدح (مدح المعتصم خاصة)، والغزل والعتاب والفخر، وله في الزهد والمجاهد أيضاً .

توفي سنة 480هـ/1088م. للمزيد انظر : فوات الوفيات والذيل عليها. مجلد3، ص283. المحملون من الشعراء ص99. والتكملة لابن الأربار، ص133.

3 - التكملة لابن الأربار، ص399.

4 - الذخيرة لابن بسام، ق1، مج2، ص691.

5 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - لإحسان عباس، ص132 -

الزاهد، والمحدث البارع، وإلى جانب ذلك فهو شاعر وجداني محسن، وأكثر شعره في الحكم والمواعظ، والتلوم النفسي، وتغلب على أشعاره العاطفة الدينية مع شيء من التشاؤم.

وقد قامت شهرته على قصيدة نظمها في حض بادي بن حبوس(1)، وقومه صنهاجة، على الفتنك باليهود وعلى رأسهم ابن النغلة(2). تلك القصيدة التي كان لها صدى عميقا في النفوس، وفي الحياة السياسية، ويكفيها صيتا أنها فجرت ثورة شعبية عارمة، وكانت المذبحة التي قتل فيها الوزير اليهودي ابن النغلة وعدد كبير من اليهود « قتل منهم يومئذ نيف على أربعة آلاف... »(3)، « والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا في القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا في التاريخ السياسي لأمة من الأمم، فكهربت العزائم، ودفعت بها في سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف إلى القتل، كالدور الذي لعبته هذه القصيدة »(4) التي وجهها الشاعر إلى الصنهاجين عامة، وإلى بادي أميرهم وقائدهم خاصة، وآثر في البداية مخاطبة البربر لأنهم حانقون على اليهود المتطاولين المتجبرين، وتحدث إليهم بلغة سهلة متواضعة، وإرادة مخلص، وقلب مفعم بالحب، ورأى أن يشهدهم جميعا وهم الأجواد الشجعان على الخطأ الفادح الذي ارتكبه أميرهم في تخييره لوزير كافر من دون المسلمين، مما مكن لليهود في البلاد، فاحتلوا

1- بادي بن حبوس : حكم غرناطة بين سنتي [429 - 467هـ] عرف بالشجاعة والبطولة، وسفك الدماء. انظر المغرب في حلى المغرب، مج2، ص107.

2- ابن النغلة : يوسف بن صمويل وزير بادي بن حبوس، إسماعيل بن يوسف بن نغلة اليهودي : من بيت مشهور في اليهود بغرناطة، استوزره بادي بن حبوس ملك غرناطة، فاستهزأ بالمسلمين وأقسم أن ينظم جميع القرآن في أشعار وموشحات يتغنى بها فال أمره إلى أن قتله صنهاجة بغير أمر الملك ونهبوا دور اليهود وقتلوه. انظر الإحاطة 270/1. والبيان المغرب 264/3. و المغرب في حلى المغرب مج 2 ص 114. ويلاحظ أن ابن الخطيب يجعل يوسف هو المقتول بخلاف ابن سعيد وابن خلدون وابن عذاري.

3- الذخيرة، لابن بسام. مج2، ص769.

4- مع شعراء الأندلس والمنتبي، لغربية غومس، ص134، ط3، ترجمة د/ الطاهر أحمد مكي، دار المعارف القاهرة 1982.

أعلى المراتب، وحققوا آمالهم وأحلامهم، وتاهوا على المسلمين :

أَلَا قُلْ لِصِنهَاجَةَ أَجْمَعِينَ *** بدور الندى وأشدّ العرين
لقد زلّ سيّدكم زلّة *** تقرُّ بها أعينُ الشامتين
تخيرُ كاتبه كافرًا *** ولو شاء لكان من المسلمين
فغزّ اليهودُ به وانتحوا *** وتاهوا وكانوا من الأردلين
ونالوا مُناهم وجازوا المدى *** فحان الهلاك وما يشعرون
فكم مسلم فاضلٍ قانتٍ *** لأرذل قرد من المشركين(1)

وبعد حوار طويل مع البربر يتوجّه إلى باديس، سبب طغيان اليهود ونفوذهم، ويبدأ بمدحه ليستلين قلبه :

أباديسُ أنتَ امرؤٌ حاذقٌ *** تصيبُ بظنك نفسَ اليقين
وإنّ لك السبقُ بين الوري *** كما أنتَ في جِلّة السّابقين(2)

وبعد هذا الحديث الهادئ ينتقل الشاعر إلى تعبئة النفوس وشحن العزائم للثورة، واتخذ إلى ذلك طريق الوصف والمقارنة حتى إذا انتهى من عرضه قضيته ختم قصيدته بكلمة متفائلة بالنصر والفوز لأن الله معهم :

وراقبْ إلهك في حزبه *** فحزبُ الإله همُ الغالبون(3)

ويقول غرسية غومس معلقاً على هذه القصيدة : « لعلّ الشعر الأندلسي لم يعرف البساطة عارية كما عرفها في هذه القصيدة. وفي الوقت نفسه لم ير قصيدة مثلها يلقها مثل هذا الإعصار من الشاعر : لقد اجتاحت أنغامها - حية متوهجة - أعماق المدينة مع زفير النيران وحشرجة الموتى»(4)

وقد كان أبو إسحاق الإلبيري فارس ميدان في شعر الزهد، والصّلاح

1- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص89.

2- المصدر نفسه، ص90.

3- المصدر نفسه، ص92.

4- مع شعراء الأندلس والمنتخب، ص106.

والعبادة، وهو بذلك يمثل حلقة الوصل المتوسطة في تاريخ الزهد الأندلسي، ولا يضارعه في ذلك إلا الشاعر ابن العسال⁽¹⁾، الذي سار على الدرب نفسه، وإن كان لم يصلنا من أشعاره سوى قصائد مبثوثة في كتب الأدب والتراجم.

ورغم ذلك يمكننا القول: إنهما كانا أشد الناس تأثراً، وإحساساً بسوء الأوضاع السياسية في وطنهما⁽²⁾، الحبيب.

وعبر كل منهما عن ذلك بطريقة الخاصة، فبينما نجد أبا إسحاق يدعو إلى الثورة على اليهود الذين تسلطوا على البلاد في دولة بني زيري بغرناطة، فإن ابن العسال بكى وتألّم لسقوط بربشتر ثم طليطلة، إلا أنه وقف من ذلك موقفاً سلبياً عكس أبي إسحاق، إذ اكتفى بالدعوة إلى الخروج من مدينة طليطلة بعد سقوطها في يد الأعداء فقال:

حَتُوا رَوَاحِلَكُمْ يَا أَهْلَ أَنْدَلِسٍ *** فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
السَّلْكُ يُنْتَرُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى *** سَيْلَكَ الْجَزِيرَةَ مَثُورًا مِنَ الْوَسْطِ⁽³⁾
وامتدت فوضى الحياة الأليمة إلى نفوس الشعراء وحياتهم، فأحدثت انفصاما بينهم وبين عصرهم، فاتسم شعرهم بالقسوة والجفاء والسخط والقلق، وها هو ابن

1- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين - إحسان عباس، ص 135.

2- المرجع نفسه.

3- نفع الطيب، مج 4، ص 352. وقد ذكر ابن سعيد البئين في المغرب 21/2 بالرواية التالية:

يَا أَهْلَ أَنْدَلِسٍ حَتُوا مَطْيِكُمْ *** فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ
الثوبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى *** ثُوبَ الْجَزِيرَةَ مَنَسُولًا مِنَ الْوَسْطِ

حزم(1)، الفقيه العالم يتعرض للملاحقة والقلق والاضطهاد في بيئة أفسدتها الملذات واستبدت بها الأطماع والشهوات، فانعكس ذلك على أفكاره وأشعاره فقال :

فيا نفسُ جدي في خلاصك وانفذي *** نفاذ السيوفِ المرهفات البواتكِ
فلو أعملُ الناسُ التفكّر في الذي *** له خلُقوا ما كان حيُّ بضاحك(2)،
والإنسان دوماً تتنازعه طبيعتان متناقضتان، وهما قوتان فعالتان : قوة الخير، وقوة البشر، أو الهوى والعقل، إنهما لفي صراع متواصل، فإن تغلب العقل ارتدع الإنسان واستضاء بنور الله، ونجا في الدنيا والآخرة، وإن تغلبت النفس، عميت البصيرة، وتردى صاحبها في مهواة الهلكة، لذلك فالعاقل من راقب نفسه، وكبح جماحها بمراقبته لله عز وجل بالطاعات والعبادات.

ومما قاله ابن حزم في النهي عن اتباع الهوى :

أقول لنفسي ما ميين كحالك *** وما الناس إلا هالك وابن هالك

1 - ابن حزم : هو علي بن أحمد سعيد بن حزم، ولد في بيت عز وجاه ورباسة، بقرطبة سنة 383هـ - 994م، ولقى من الرعاية والعناية ما ساعده على أن يكون « أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام، وأوسعهم مع توسعه في علم اللسان والبلاغة والشعر والسير والأخبار .. » وكان عالماً وفقهياً ومصنفاً ومؤلفاً في الفقه والفلسفة والأدب. له مذهب في الفقه يعرف بالمذهب الظاهري، عرف به وكانت له مؤلفات فيه، **وظل على هذا المذهب إلى أن توفي سنة 456هـ**. أشهر مؤلفاته : التفریب لحد المنطق، الفصل في الملل والأهواء والنحل. وفي الأدب طوق الحمامة. ويقول الحميدي : أنه كان شاعراً مجيداً وأن شعره بمجموع على حروف المعجم، غير أن هذا الشعر لم يصلنا مدوناً، وإنما نجد متفرقاً في كتب التراجم التي ترجمت له، كالجندوة والصلة ونفع الطيب وغيرها.. ويظل طوق الحمامة هو المصدر الرئيسي لشعره.
انظر ترجمته في : وفيات الأعيان لابن خلكان، مج3، ص13-14. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت 1089م)، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار الأفاق الجديدة، م3و4، ص299. الجندوة للحميدي، ص290. البغية للضبي، ص403، المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، مج1، ص354-355، والصلة لابن بشكوال، ص408، نفع الطيب، مج1و4، الأنيب المطرب لأبي زرع، ص116 والذي ذكر أن ولادته كانت سنة 384هـ، وقد انفرد بذكر هذا التاريخ لأن المصادر الأخرى أجمعت على أن ولادته كانت سنة 383هـ، وعليه فهذا التاريخ الأخير هو المرجح ،

2 - طوق الحمامة، لابن حزم، دار مكتبة الحياة - بيروت، ص301. (د.ت)

صُنِّ النَّفْسَ عَمَّا عَابَهَا وَارْفُضِ الْهَوَى *** فَإِنَّ الْهَوَى مِفْتَاحُ بَابِ الْمَهَالِكِ
رَأَيْتُ الْهَوَى سَهْلَ الْمَبَادِي لِذَيْدِهَا *** وَعُقْبَاهُ مَرَّ الطَّعْمِ ضَنْكُ الْمَسَالِكِ (1)
فَمَا أخطرُ الهوى على الإنسان، فهو الذي يقوده إلى الهلاك وما من سبيل لاجتنبه إلا
واحدة :

وَمَنْ عَرَفَ الرَّحْمَنَ لَمْ يَعْصِ أَمْرَهُ *** وَلَوْ أَنَّهُ يُعْطَى جَمِيعَ الْمَمَالِكِ
سَبِيلُ التَّقَى وَالنُّسْكِ خَيْرُ الْمَسَالِكِ *** وَسَأَلَكُمَا مُسْتَبْصِرًا خَيْرٌ سَأَلِكُمَا (2)
فمعرفة الله والإيمان به طريق إلى الصلاح.

وكان من العلماء الأتقياء من ساهم في توجيه الناس وإرشادهم إلى
الصراط المستقيم، نذكر منهم : الفقيه الزاهد أحمد الإفليشي وأبو بكر البدري، وأبو
الحسن الطيطل هذا الأخير الذي تاب وأناب إلى حظيرة ربه بعد أن وهن عظمه،
واشتعل رأسه شيبا، ولم يجد بدا من أن يلزم نفسه بالعبادة والطاعة إلا أن وافته المنية،
وهو الذي قال في حقه ابن بسام : « ممن نظم الدرّ المفصل ولا سيما في الزهد، فإن
أهل أوانه كانوا يشبهونه بأبي العتاهية في زمانه » (3).

ومما قال في التنبيه من الغفلة والتذكير بالموت :

يَا غَافِلًا شَأْنُهُ السُّرْقَادُ *** كَأَنَّهَا غَيْرُكَ الْمَرَادُ
وَالْمَوْتُ يَرَعَاكَ كُلَّ حِينٍ *** فَكَيْفَ لَمْ يَجْفِكَ الْمِهَادُ
* * *

لَا تَتَّبِعْ دُنْيَا فَإِنَّ عَنْهَا *** الْمُؤْمِنُ الْمُتَّقَى يُذَادُ
فَأَبْنِ لَهَا بِالتَّقَى بُرُوجًا *** تَأْمَنُ إِذَا رُوِيَ الْعِبَادُ (4)

1 - طوق الحمامة، لابن حزم، ص 298-299.

2 - المصدر نفسه.

3 - الذخيرة لابن بسام، القسم 2/2، ص 797.

4 - المصدر نفسه، ص 798.

ولا يفوتنا في هذا المقام ذكر الفقيهين الزاهدين أبا الوليد الباجي(1) وتلميذه الطرطوشي(2)، اللذين قامت شهرتهما على المصنفات التي تدور في معظمها حول علوم الفقه والقرآن الكريم، ومع ذلك فقد كانا شاعرين مجيدين، وخلفا لنا شعرا زهديا ينم عن فلسفتهما في الموت والحياة، وعن علم وثقافة واسعة، وتلك الأشعار تتضمن مواعظ ونصائح من شأنها أن تأخذ بأيدينا وتبصر لنا سبيل الرشاد. ومما نظمه أبو الوليد الباجي في الدنيا والعمل :

إذا كنت أعلم علم اليقين *** بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضئيلاً بها *** فأجعلها في صلاح وطاعة(3)

فالدنيا دار عمل، والإنسان فيها عابر سبيل، وحياته قصيرة وإن عاش دهراً، لذلك فاللييب هو من أدرك هذه الحقيقة، وزهد في الحياة، وأقبل على الطاعات والعبادات، وقيد هواه بالتقوى كما قيد الشاعر قافيته بالسكون.

1 - أبو الوليد الباجي : سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التنجيني الباجي القرطبي، أصله من بطليوس وولد في باجة غرب الأندلس سنة 403هـ. برع في الحديث والفقه، وكان عالماً تشد إليه الرحال. وولي القضاء في أماكن كثيرة من الأندلس، وعمل جاهداً على جمع ملوك الطوائف وتوحيدهم، وجادل ابن حزم الفقيه في المذهب الظاهري .

من مصنفاته : المنتقى في شرح موطأ مالك في الفقه، والمعاني في شرح الموطأ. شرح المدونة.. وغير ذلك. توفي سنة 474هـ. للمزيد انظر : الذخيرة لابن بسام 1/2، ص 94 - 101. المغرب في حلى المغرب، ج1، ص 406. تاريخ قضاة الأندلس للنباهي، ص 95. شذرات الذهب، ج3، ص 344. الوفيات لابن قنفذ، ص 255. وفيات الإعيان لابن خلكان، ج2، ص 269. القلائد قسم 3، ص 215. الخريدة قسم شعراء الأندلس والمغرب - 3، ص 469، ترجمه 126...

2 - الطرطوشي : أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب القهري، الطرطوشي. كان عالماً عاملاً زاهداً ورعاً، ولد في طرطوشة سنة 451هـ - 1059م. وتعلم على أبي الوليد الباجي، ثم رحل إلى المشرق وأقام بالإسكندرية، وقعد فيها للتدريس، وظل هناك إلى أن توفي سنة 520هـ - 1126م.

له عدد من النصائيف أشهرها : سراج الملوك، وله شعر في الزهد والحكمة مبثوث في هذا الكتاب. انظر : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية : تأليف : أرسلان شكيب، دار مكتبة الحياة - بيروت - (د.ت)، مج3، ص 21.

3 - المغرب في حلى المغرب، لابن سعيد، ج1، ص 404.

ثالثاً: مصادر شعر الزهد في القرن الخامس في الأندلس :

إذا تتبعنا شعر الزهد في هذا القرن، وحاولنا نحسس مصادره وأصوله، فإننا نستطيع أن نردها إلى : الكتاب، والسنة النبوية الشريفة، وآثار الأولين من الشعر والأمثال والحكم العربية.

1 - القرآن الكريم :

لقد كان القرآن الكريم مصدراً من مصادر المعرفة على امتداد العصور، وسيظل مركزاً من مراكز الإشعاع الفكري الذي يجذب حوله العلماء والمفكرين، ويستهوو بقيمه الجمالية الأدباء والنقاد، والدارسين والباحثين المهتمين بتذوق التجارب الجمالية، كما كان مصدراً للفكر الإسلامي بكل جوانبه؛ التشريعية والاجتماعية والروحية. لذا عندما آمن به المسلمون امتزجت تلك القيم الفكرية بالقيم الجمالية التي أشاعها هذا الكتاب، الذي حظي بالمكانة المرموقة لدى الأندلسيين(1).

ولنحاول أن نتبع أشعارهم لمعرفة مدى انتفاعهم واستفادتهم من هذا المصدر، ولنقرأ قول أبي إسحاق الإلبيري :

وَعَدُّا بِمِيدَانِ السَّبَاقِ سَنَلْتَقِي *** فَيُرَى الثَّقِيلُ مِنَ الخَفِيفِ الضَامِرِ(2)

وميدان السباق الذي نلتقي فيه غدا لعرض أعمالنا هو يوم القيامة حيث تعرض أعمال بني آدم، فمن كانت حسناته كثيرة في الدنيا، ثقلت موازينه، وحق لميزان لا توضع فيه إلا الحسنات أن يثقل، وخفت موازين من خفت موازينه لاتباعه الباطل في الدنيا، وحق لميزان لا توضع فيه إلا السيئات أن يخف. وهكذا يتبادر إلى أذهاننا قوله تعالى :
« فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمَةٌ هَآوِيَةٌ * وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَه..»(3)

1 - ظهر الإسلام، لأحمد أمين، دار الكتاب العربي - بيروت، ط5، 1969م، ج3، ص48.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص77.

3 - سورة الفارعة، الآيات : 5، 6، 7، 8، 9.

ولعل الشاعر يهدف إلى وعظنا ونصحنا عن طريق الترغيب في الأعمال
الصالحة، والترهيب من المعاصي، لأن العمل الصالح هو الذي يحقق لصاحبه الفوز
والنجاح.

وإذا تدبرنا قوله :

إني لأشكره على آلائه *** فهو الوفيُّ بعهدِ الشَّاكِرِ
وإليه أضرعُ في إنابةٍ مُخْلِصٍ *** فهو الَّذي أرجو لسدِّ مَفَاقِرِي(1)
ف نجد الشاعر قد اتكأ على قوله عز وجل : « وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »(2) وقوله
تعالى : « .. وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ »(3).
وأما قوله :

يَهْوَى بِهَا الْأَشْقَى عَلَى رَأْسِهِ *** فالويلُ لِلْأَشْقَى مِنَ النَّارِ(4)
ففيه تضمين للآية الكريمة من قوله تعالى : « فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا
الْأَشْقَى »(5).
وإذا تدبرنا قوله :

طَوْبَى لِمَنْ فَازَ بِدَارِ التَّقَى *** ولم يَكُنْ مِنْ حَصْبِ النَّارِ(6)
فإننا نجد فيه اقتباس من قوله عز وجل : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ
جَهَنَّمَ »(7).
وكذلك قول الشاعر :

1- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 78.

2- آل عمران/ 144

3- آل عمران/ 145.

4- الدِّيوان، ص 85.

5- الليل/ 14-15.

6- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 85.

7- الأنبياء / 97.

يا أيها الناس خذوا حذركم *** وحصنوا الجنة للنار(1)

فمعناه مقتبس من الآية الكريمة : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ، فَانفِرُوا بُرَاتٍ أَوْ انفِرُوا جَمِيعًا »(2).

وهكذا تكبر اقتباسات الشاعر من القرآن الكريم، حتى لنكاد نجد في كل بيت معنى من المعاني القرآنية.

ولنقرأ هذه الآيات بشيء من التأني :

وناد إذا سجدت له اعترافا *** بما ناداه ذو النون بن متى

ولازم بابه قرعا عساه *** سيفتح بابه لك إن قرعنا

وأكثر ذكره في الأرض دأبا *** لتذكر في السماء إذا ذكرت(3)

فجد في البيت الأول تلميح لقوله عز وجل : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ »(4).

وفي البيت وعظ وإرشاد، وتوجيه إلى الإكثار من الدعاء والتسبيح لأن فيه خلاص الإنسان من الهموم والأحزان، وراحة لنفسه وقلبه.

كما أننا نستخلص منه، أن في حثه لنا بالدعاء بهذه الآية الكريمة امتثالا لقول الرسول (ص) : « ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له »(5).

فلاعتراف بالذنب والإقرار بالظلم سبيل إلى النجاة.

1- ديوان أبي إسحاق الإلبري، ص85.

2- النساء/70.

3- ديوان أبي إسحاق الإلبري، ص29.

4- الأنبياء/86-87.

5- تفسير الكشاف، للزمخشري الناشر : دار المصنف : شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد. - القاهرة - مج4، ص70.

أما في البيت الثالث فنقرأ مباشرة قوله عز وجل : « فَاذْكُرُونِي
أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ » (1).

وهكذا كلما قرأنا شعرا في الزهد لأبي إسحاق أو غيره إلا وطالعتنا مثل
هذه المعاني المقتبسة من كتاب الله عز وجل .

ولتأمل قول السمير :

جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابٌ *** مثل ما قالوا سرابُ

والَّذِي مِنْهَا مَشِيدٌ *** فَخَرَابٌ وَيَكَابُ

* * *

وليومِ الحِشْرِ إِنْعَاءٌ *** مَسْأَلٌ وَجَوَابُ

وَصِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ *** يَوْمٌ لَا يُطْوَى كِتَابُ (2)

وإذا كان كتاب الله هو المصدر الأساسي ، والمنبع الفيض الذي ينهل

منه الشعراء ، فإن الحميدي يقر بذلك ، ونستمع إليه وهو ينشد :

كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَوْلِي *** وَمَا صَحَّتْ بِهِ الْآثَارُ دِينِي

وما اتفقَ الجميعُ عَلَيْهِ بَدَأُ *** وَعُودًا فَهُوَ مِنْ حَقِّ مُبِينِ (3)

وما أجل أن يكون هذا التأثير قولاً وعملاً ، فيعمل الإنسان بما جاء في هذه

الآيات ، ويسعى لتطبيقها في حياته .

2 - السنة النبوية الشريفة :

هي المصدر الثاني الذي صدرت عنه هذه الأشعار ولاسيما السنة القولية .

ولنحاول استقراء بعض الآيات للوقوف على هذا التأثير .

1 - البقرة/151 .

2 - الذخيرة لابن بسام ، قسم 1 مج 2 ، ص 889 .

3 - تاريخ الأدب العربي لعمر فروخ ، مج 4 ، ص 724 .

ولتتمنّ أولاً في قول أبي إسحاق الإلبيري :

فليست هذه الدنيا بشيء *** تسوؤك حقبة وتسرّ وقتنا

* * *

ولم تخلق لتعمرها ولكن *** لتعيرها فجداً لما خلقتنا(1)

فأليت الثاني تضمّن معنى الحديث النبوي الشريف، الذي رواه عبد الله بن مسعود قال : نام رسول الله (ص) على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا : يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال : «مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظلّ تحت شجرة ثم راح وتركها»(2).

ولتتمنّ في قوله عند رثاء زوجته :

ولو أني أدعو الكلام أجابني *** كإجابة المأسور دعوة أسر

لكن رأيت نبينا قد عابه *** من كلّ ثرثار وأشدق شاعر(3)

إنّ معنى البيت الثاني متضمن لقول الرسول (ص) :

«إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً. وإنّ من أبغضكم إليّ

وأبعدكم مني مجلساً المتفقهون الثرثارون المتشدّقون» قالوا يا رسول الله علمنا

الثرثارون والمتشدّقون، فما المتفقهون؟ قال : « المتكبرون»(4)

وهكذا نجد هذه القصائد ذات غاية أخلاقية وتعليمية.

وأما إذا طالعنا قول أبي إسحاق الإلبيري :

سحت بها وأنت لها محب *** فكيف تحبّ ما فيه سحتنا(5)

فإنه يتبادر إلى أذهاننا قول الرسول (ص) « الدنيا سجن المؤمن »(6).

1 - ديوان أبي إسحاق، ص 28 - 29.

2 - صحيح الترمذي، باب الزهد، ج 9، ص 223.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 76.

4 - صحيح الترمذي (هنا)، ج 8، ص 167.

5 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 28.

6 - صحيح مسلم، ج 4، ص 2272.

3- الموروث القديم :

هو المصدر الثالث الذي استقى منه شعراء الأندلس ثقافتهم الشعرية

ولنقرأ قول السميسر :

قد هجرت اللذات إلا قليلا *** بعد وصلي لها زمانا طويلا

فأنا ثابت البناي لكن *** لي قلب عن النواصي أزيلا(1)

نجده قد أشار إلى الزاهد الصالح ثابت بن أسلم البناني، المعروف بالتقوى والصلاح في العصر الأموي، وقد شبه نفسه به لأنه معجب به وبزهده، وهذا دليل واضح على الاتصال بين المشرق والأندلس، مما جعل أهل الأندلس يجارون المشاركة في أشعارهم، وهاهو الشاعر يسير على درب أبي العلاء المعري في معانيه، وتقليده حتى في أفكاره الفلسفية، والتي كانت لا تروق أهل بلده: ولتأمل قول السميسر :

من كان مخلوقا من الأرض إذ *** ركب لم يطلع على السر

حتى ترى الجثة مطروحة *** والنفس في عالمها تسري

فَعِنْدَهَا يَأْمَنُ مَا يَتَّقِي *** وَعِنْدَهَا يَعْلَمُ بِالْأَمْرِ

لقد نَشَبْنَا فِي الْحَيَاةِ الَّتِي *** توردنا في ظلمة القبر(2)

وهذه المعاني الفلسفية التي ضمّنها السميسر آياته لم تعجب ابن بسّام فعقب عليها بقوله : « والسميسر في هذا الكلام تمّن أخذ الغلو بالتقليد، ونادى الحكمة من مكان بعيد، وصرّح عن عمى بصيرته، ونشر مطوي سريره في غير معنى بديع ولا لفظ مطبوع، لعلّه أراد أن يتبع أبا العلاء فيما كان ينظمه من سخيف الآراء...»(3). وما يستوقفنا في هذه العبارة هو قوله : « أراد أن يتبع أبا العلاء » ويعني أبا العلاء

1- الذخيرة لابن بسّام، ق1، م2، ص891.

2- المصدر نفسه، ص890.

3- المصدر نفسه،

المعري(1)، وعليه فهو يؤكد لنا تأثر الشاعر الأندلسي بشعراء المشرق.

-وإذا نظرنا إلى قول السَّمِيسِر :

بالتنا لم نكُ من آدمٍ *** أورتنا في شبه الأسر

إن كان قد أخرجه ذنبه *** فما لنا نشارك في الأمر(2)

لوجدناه مأخوذ من قول المتنبي :

أبوكم آدم سنّ المعاصي *** وعلمكم مفارقة الجنان(3)

ومع ما في البيت من غلو غير مستحسن وفساد في المعتقد. يظلّ التأثير

واضحاً ويبقى أدب المشاركة محلّ إعجاب وتقدير من الأندلسيين. ينهلون منه، وكان

من روافدهم الأساسية. ولتأمل قول البطليوسي(4) :

إلهي إنني شاكر لك حامد *** وإني لساع في رضاك وجاهد

وإنك مهما "زلت النعل" بالفتى *** على العائد التوّاب بالعبو عائد(5)

فالعبرة الموجودة بين قوسين في البيت الثاني مأخوذة من قول الشاعر الجاهلي زهير

ابن أبي سلمى :

تدار كما الأحلاف قد نلّ عرشها *** وذيان قد زلت بأقدامها النعل(6)

وهو اقتباس حسن يدلّ على مهارة الشاعر وقدرته على إحكام صناعته، كما يدلّ

على ثقافته العربية الأصيلة.

1- المعري : هو أحمد بن عبد الله التوحّي المعروف بأبي العلاء المعري، ولد عام 363هـ في بيت علم

وأدب، ونظم الشعر منذ نعومة أظافره، وعرف بزهده في الدنيا وإعراضه عن الملذّات، توفي عام 449هـ.

2- الذخيرة ق 1، م 2، ص 890.

3- الديوان، ص 558.

4- سترد ترجمته في الفصل الثاني، ص 90 .

5- أزهار الرياض في أخبار عياض، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، تحقيق : عبد السلام المرلس وسعيد

أحمد أعراب، ج 3، ص 116.

6- ديوان زهير بن أبي سلمى، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982 م، ص 61.

كما أنهم يستلهمون من الآثار القديمة معاني الحكمة والأمثال الصالحة للوعظ والإرشاد، ويضمّنونها شعرهم فتزيده قوّة ووضوحاً، مثل قول أبي إسحاق الإلبيري :

سألت عنهم رسمها فأجابني *** "ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله ذاهبٌ" (1)
فقد ضمن بيته شطراً من قول لبيد الشاعر المحضرم :

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ *** وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ (2)

..أما إذا قرأنا قول أبي إسحاق الإلبيري :

كلُّ امرئٍ فيما "يدينُ يدانُ" *** سُبْحانُ مَنْ لم يخلُ منه مكانُ

يا عِلمَ الدنيا ليسكنها و ما *** هي بالتي يبقى بها سكّانُ

تفنى وتبقى الأرضُ بعدك مثلما *** يبقى المناخُ وترحلُ الركبانُ (3)

ولقد وظّف الشاعر في الشطر الأوّل من البيت الأوّل المثل العربي القائل :

« كما تدينُ تدانُ » (4).

ولا عجب في ذلك لأنّ الثقافة في الأندلس قامت على دراسة الآثار

القديمة، وكان « القديم الذي يعتمد بخاصة على دواوين الجاهليين والإسلاميين، وشعرهم، والحديث القائم على شعر المدرسة الجديدة، كشعر أبي نواس وأبي تمام ومسلم بن الوليد » (5).

وظلت الثقافة الإسلامية منهلاً للشعراء الذين أدركوا حجم المسؤولية الملقاة على عاتقهم، فشاركوا في الحياة وبسطوا آراءهم، ودعوا إلى العمل الصّالح دون

1- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 73.

2- الشعر والشعراء، لابن فتيحة، ص 174.

3- ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص 111.

4- مجمع الأمثال لأبي الفاضل أحمد بن محمد الميداني. مج 2 منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - ص 143

(د.ت).

5- تاريخ النقد الأدبي في الأندلس، لرضوان الداية، ط 2، نشر مؤسسة الرسالة، ص 55، (د.ت).

خوف أو وجل، وبخاصة أنَّ جلَّ شعراء هذا الفن كانوا من الفقهاء الأتقياء العاملين بعلمهم.

- وإن كانت هناك فئة من الفقهاء مستثناة منهم لسكونتها على ظلم الحكام وجورهم، لأنَّ النَّاسَ كما قال أبو نُوَّاسٍ ففتان :

مَا النَّاسُ إِلَّا رَجُلٌ فَاتِكَ *** أَوْ رَجُلٌ وَقَرُّهُ دِينُ (1)

وهكذا كان شعر الزَّهْدِ في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري ظاهرة طبيعية، استمدت أصولها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث العربي القديم.

كما أنه صوِّر لنا جانباً من جوانب الحياة، في مجتمع مسلم، انقسم أفرادُه إلى فئتين متناقضتين، فئة جرفتها الحياة الصاخبة، وأخرى تمسكت بعري الدِّين والأخلاق فدعت إلى ذلك من خلال نظمها لهذا الشعر الذي يفيض رقة وعذوبة.

6- ديوان أبي نُوَّاسٍ، ص 614.

الفصل الثالث

موضوعات شعر الزهد ومضامينه

أولا : طاعة الله والتوبة إليه.

ثانيا : التحذير من الدنيا وفتنها.

ثالثا : ذكر الموت والقبر.

توطئة :

ينبع شعر الزهد من قلب استشعر عظمة الخالق، وعرف ضعف النفس البشرية أمام مغريات الحياة ومباهجها الزائفة، فتاب وأناب ودعا إلى الطاعات والأعمال الصالحة، وشكر واستغفر، وحث على الزهد والتقشف، وزين الطريق للراغبين في بلوغ المنازل العالية عند رب العالمين.

فتعددت المواضيع واختلفت، وإن كانت في مجملها لا تخرج عن الغرض الأساسي الذي رآه أهل الوعظ والصلاح دائما، وهو الترهيب في الآخرة، وتزيين طريقها، والترهيب من الدنيا وملذاتها، ومن هنا جاءت معانيهم تقليدية مبتذلة، لآكتها السنة الزهاد في كل عصر، إلا أن المتبع لهذا اللون من الشعر سيجد هناك فكرتين قد سيطرتا على الشعراء، فأصبحوا لا يصدرون إلا عنهما، ولا يلهجون إلا بهما، وهما: - فكرة المصير؛ مصير الإنسان بعد الموت، فذكروا القبر ووحشته، وبكوا الذنوب والمعاصي خوفا من العذاب ورجاء في الرضى والثواب، وأصبح الشيب هاجسا من هواجس الموت، وعلامة منذرة بقرب الأجل ودنوه، فأرقتهم يياضه ووعظوا به وزجروا، وذكروا بالنار وسعيرها.

- ثم تأتي فكرة الحياة الدنيا، التي يجب أن تتخذ مطية للدار الآخرة، دار الجزاء والثواب، فذموا الاغترار بالحياة ومباهجها، ودعوا إلى التقوى والصلاح، والتزود للآخرة، وخير الزاد التقوى.

وكثيرا ما لهج الشعراء بالنصح والوعظ، أملين أن يجدوا آذانا صاغية للإقلاع عن المعاصي والردائل.

وقد راج شعر الزهد في القرن الخامس الهجري في الأرض الأندلسية، التي عرفت اللهو وانغمست في الملذات، وأنهك قواها الفساد الاجتماعي والسياسي(1).

1 - انظر الشعر والشعراء في العصر العباسي. لمصطفى الشكعة، دار العلم للملايين بيروت - الطبعة السابعة

ولعلّ أهمّ ما يميّز شعراء الزهد في هذا العصر والمصر، هو إلتفاتهم لمجتمعهم، ومشاركتهم في خدمته⁽¹⁾. كما أنّهم عرفوا بالاستقامة، فتحملوا رسالة الدّعوة إلى الفضائل والأخلاق ونهوا عن الرذائل، ودعوا إلى الآخرة، وحثوا على الاستعداد لها، ونهوا عن الدّنيا وذمّوا طريقها، وعليه يمكننا حصر مواضيع شعرهم في محاور ثلاثة أساسية هي :

- 1 - طاعة الله والتّوبة إليه.
- 2 - التحذير من الدّنيا وفتنها.
- 3 - ذكر الموت والقبور.

وحول هذه المحاور سيكون الحديث في هذا الفصل، الذي نتوخى منه التعريف بهذه المواضيع الزّهدية، من خلال عرض نماذج شعرهم، الذي تجدر الإشارة إليه لأهميته، ولكونه تراثا موروثا من أدبنا العربي، الذي تجب العناية به ودراسته لارتباطه بهذه الأمة وتعبيره عن حياتها ونفسيّتها، لربط حاضرنا بماضيها العريق الذي نستمد منه القوّة والعبرة.

1- تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطون، ص 135.

أولاً : طاعة الله والتوبة إليه :

من أكثر الموضوعات التي تشدّ انتباه الدارس لشعر هذه الفئحة(1) من شعراء الأندلس، هو ذكر الله عزّ وجلّ، فمن حمد وتهجد وشكر، إلى دعاء وتبّتل، واستغفار وإنابة، وكلّ ذلك عبادة.

وطاعة الله تتجلّى في العبادات، وتنفيذ أوامر الله عزّ وجلّ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا كان هناك إسلام وإيمان. لأنّ في الإسلام خضوع لله ولحكمه، عن رغبة وطواعية وانقياد. ولا يقناده الله إلا من عرفه حقّ معرفته.

والإيمان هو المعرفة الصحيحة بالله عزّ وجلّ، تلك المعرفة التي تدفع المؤمن إلى الخضوع لله تعالى، وهذا قمة المعرفة واليقين، لأنه لا يخضع لله ولا ينقاد له إلا من عرفه حقّ المعرفة(2). ومن ثمة فتسبيح الله وتحميده وتنزيهه وتوحيده لا يكون إلا من معترف بوجوده(3).

وإذا توجه الإنسان إلى خالقه متضرّعا، طالبا الرّحمة والمغفرة، ودعاه بإخلاص وحرارة، فإنّ ذلك هو أسّ العبادة، بل هو العبادة نفسها لقول الرسول صلّى الله عليه وسلّم : «الدّعاء هو العبادة»(4). وطاعة الله وعبادته أمر واسع، أوسع من الصّلاة والحمد، إنها سلوك وأخلاق فاضلة، وحسن معاملة، لأنّ الإسلام دين ودينا. ولا تكون الدّنيا إلا بالأخلاق الفاضلة، التي تقوم عليها حضارة الأمم والشعوب. وإذا كان حمد المنعم وشكره فرض وواجب(5)، لأنّه من حسن الأخلاق، فإنّ حمد الله وشكره أحقّ وأولى لأنّه أعظم منعم، ولذا حمده المعترفون بفضله وجلاله، وخلّدوا لنا ذلك في قصائد جميلة ومعاني رقيقة تدلّ على رفاة حس ووفاء للخبير العليم.

1 - أقصد بذلك شعراء الرهد في القرن الخامس الهجري بالأندلس.

2 - عقيدة المسلم، لمحمد الغزالي، ط دار الشهاب، باتنة الجزائر، ص122. (د - ت).

3 - نظرات في القرآن، لمحمد الغزالي، دار الشهاب، باتنة الجزائر، ص75. (د - ت).

4 - سنن ابن ماجة، تح محمد فؤاد عبد الباقي، ج2- دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع (د.ت) ص1258.

5 - الأخلاق والسير في مداواة النفوس، لابن حزم، دار الشهاب، باتنة الجزائر، ص90. (د - ت).

فماذا قال الشعراء ياترى في هذا الموضوع؟ وما هي المعاني التي تغنوا بها؟

1 - التهجّد والحمد والشكر :

إنّ أفضل ساعات العمر تلك اللحظات التي يقضيها الإنسان مع خالقه
ذاكرا عابدا، أو مسبحا شاكرا، وقال تعالى : «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ
وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ...»(1).

وقال جلّ شأنه : «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي نَفْسَهُ أُتِغَاءً مَرَضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ

رُؤُوفٌ بِالْعِبَادِ .»(2) فالطاعات كلّها لله، وفي سبيله، لأنه الخالق الرّازق، الذي لا
تعَدّ ولا تحصى نعمه، ولو سبّحناه بكرة وأصيلا ما استطعنا أن نفِي بحمّقه علينا. وهو
الذي خلقنا لعبادته وقال جلّ شأنه : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»(3).
فذكر الله اعتبار واستبصار، فطوبى لمن تاقّت نفسه إلى ربّها وردّد مع الشّاعر خاشعا:
الحمدُ لله ذي الآلاءِ والنعمِ *** ومُبدِعِ السَّمْعِ والأبصارِ والكلمِ
مَنْ يحمِدُ الله يأتيه المزيدُ ومَنْ *** يَكْفُرُ فكمّ نِعْمِ آلتٌ إلى نِقَمِ(4)
فأبو الوليد الباجي يحمّد الله عزّ وجلّ على نعمه التي لا تعدّ ولا تحصى، فله الحمد
والشكر على كلّ النعم التي أنعم بها علينا من سمع وبصر وكلام، إنها نعم عظيمة
تستوجب الحمد والشكر.

نعم لقد حبا الله عز وجل الإنسان بالسمع والبصر، والشاعر اقتبس
معنى الشطر الثاني من البيت الأول من قول الله عزّ وجلّ «...وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ...»(5) إنه اقتباس حسن يدلّ على اعتراف الشاعر وإقراره بفضل
الله عزّ وجلّ، وما أجمل أن يردد اللسان هذه الكلمات في ضراعة وخشوع، فالحمد

1 - التوبة/112.

2 - البقرة/205.

3 - الذاريات/56.

4 - الذخيرة لابن بسام، 1/2، ص104.

5 - الملك/23.

والشكر لله العزيز الحكيم، الذي يضاعف النعم للشاكرين المطيعين. فما أعظمك خالقي إذ جعلت حمدك وشكرك طاعة، وعدم الشكر كفر، يستوجب السلب والنقمة.

كلمات رقيقة، عذبة، تنساب من قلب مفعم بالإيمان بالله عز وجل، وبما جاء في كتابه تعالى قوله: «وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ» (1).

واللسان الذي يترنم بهذه الكلمات حتى يالفها جدير بأن يتغنى مع الشاعر أبي الوليد الباجي مرة أخرى إذ يقول:

الحمد لله حمد مُعْتَرِفٍ *** بَانَ نِعْمَاهُ لَيْسَ نُحْصِيهَا

وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ نِعَمٍ *** فَإِنَّ مَوْلَى الْأَنْبِيَاءِ مَوْلِيهَا

وَأَنَّ شُكْرِي لِبَعْضِ أَنْعَمِهِ *** مِنْ خَيْرِ مَا نِعْمَةٌ يُؤَلِيهَا (2)

فالشكر والحمد طاعة لله عز وجل، واعتراف بفضله وأنعمه الكثيرة، التي لا تعد ولا تحصى. فكل نعمة نعم بها هي من عند الله تعالى الحكيم القدير، فهو مولانا ومولى كل نعمة لذا فالشكر لبعض أنعمه نعمة أيضا، لأننا نجزي به، أو لم يقل جل شأنه: «وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ» (3).

وإذا كانت النعم تستوجب الشكر، فإن ذلك الشكر سيكون لرب النعم وخالقها، اللطيف بعباده، القادر على سلبها ومنعها، إنه سخر للإنسان الأرض والسماء، ورزقه من الطيبات، أفلا يستحق بعد ذلك كله أن نقف أمام جلاله وعظمته ونردّد مع ابن حزم قوله:

شكراً لرب لطيف قدرته *** فإنا كحبل الوريد في كتبه

1 - إبراهيم/9.

2 - الذخيرة لابن بسّام، 1/2 ص 104.

3 - الشورى /21.

رازقِ أهل الزَّمانِ أجمعهم *** مَنْ كَانَ مِنْ عَجْمِهِ وَمِنْ عَرَبِهِ
والحمدُ لِلَّهِ فِي تَفْضِيلِهِ *** وَقَمَعِهِ لِلزَّمانِ فِي نُوبِهِ
أَخْلَدْنَا الأَرْضَ والسَّمَاءَ وَمَنْ *** فِي الجَوْ مِنْ مائِهِ وَمِنْ شَهَبِهِ
فاسمِعْ وَدَعْ مَنْ عَصَاهُ نَاحِيَةً *** لا يَحْمِلُ الحَمْلَ غَيْرَ مُحْتَطِبِهِ(1)

فإنَّه عَزَّ وَجَلَّ أَهلَ للشكرِ والحمدِ، لأنَّه رَزَقَ النَّاسَ كُلَّهُم من عجمِ وعربِ.
نحمده على تفضله علينا ببعث الأنبياء والرسل هداية النَّاسِ وإخراجهم من الظلمات
إلى النور، ودعوتهم لعبادة الله الواحد الأحد، الَّذي أغرقهم بالنعم، وقمع نوائب
الذَّهر، وسخر لهم ما في السماوات والأرض، فمن اهتدى فلنفسه، ومن أساء فعليها،
لذا فلا يَحْمِلُ الحَطْبَ إِلاَّ من احتطبه.

ويحثُّ الشَّاعرُ على شكرِ الله تعالى، وعبادته، ومن ناحيةٍ أخرى ينصح
بتجنُّبِ الكافرِ الجاحدِ، لأنَّ الله تعالى سيتولى أمرَ حسابهِ وعقابهِ، وقد وَفَّقَ الشَّاعرُ في
هذا المعنى الَّذي استقاه من القرآن الكريم، إذ يقول الله تعالى: «وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ
فِيهِ إِلى اللَّهِ ثُمَّ تُوفَى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ»(2). والمسلم يومن بالله،
القريب السَّميعِ المحيِّبِ، لذلك نراه لا يقصِّرُ في الدَّعاءِ والابتهالِ والتضرُّعِ إليه تعالى.
فما أعذب أن تُردَّدَ مع الشَّاعرِ البطلبيوسي(3) هذه الأبيات :

1 - طوق الحمامة، لابن حزم، تحقيق فاروق سعد - نشر دار مكتبة الحياة بيروت - لبنان، (د - ت) ص 310.
2 - البقرة/280.

3 - البطلبيوسي : عبد الله بن محمد بن السيِّد البطلبيوسي، ولد في بطلبيوس سنة (444هـ - 1052م) وتلقى
العلم في بلدته على يد أبيه ثم أحيه أبي الحسن علي بن السيِّد (ت 488هـ - 1095م) تنقل بين المرثية وقرطبة
طالباً للعلم حتَّى اجتمع لديه علم غزير، فكان محدثاً بارعاً، وفقهاً، ولغوياً وأديباً ناقداً وشاعراً ومؤرخاً.
تكتسب بالشعر عن طريق تنقله بين بلاطات ملوك الصَّوائف، وأخيراً استقر به المقام في بلنسية واشتغل بالتدريس
والتأليف إلى أن وافته المنيَّة عام (521هـ - 1127م) ومن تصانيفه : الإقتضاب في شرح أدب الكتاب لابن
قتيبة. وكتاب الحروف الخمسة، وشرح ديوان سقط الزند للمعرّي. وشرح ديوان المتنبي...
وأما شعره فلم يصلنا منه إلا القليل، وأحسسه ما نظمته في الزهد والحكمة .

انظر ترجمته في : الفلاندي 3، ص 221، 222، 223. الخريدة في شعراء المغرب والأندلس(3) ص 478. تاريخ
مدينة المرية، ص 177. تاريخ الأدب لعمر فروخ، مج 5، ص 152 و 153 و 154.

إِلَهِي إِنِّي شَاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ *** وَإِنِّي لَسَاعٍ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدُ
 وَإِنَّكَ مَهْمَا زَلْتِ النَّعْلُ بِالْفَتَى *** عَلَى الْعَائِدِ التَّوَابِ بِالْعَفْوِ عَائِدُ
 تَبَاعَدْتَ بَجْدًا وَأَذِنْتَ تَعْطَفًا *** وَجِلْمًا فَأَنْتَ الْمَدْنِي الْمَتْبَاعِدُ
 وَمَالِي عَلَى شَيْءٍ سِوَاكَ مَعُولٌ *** إِذَا دَهَمْتَنِي الْمَغْضِلَاتُ الشَّدَائِدُ
 أَغْيِرْكَ أَدْعُو لِي إِلَاهًا وَخَالِقًا *** وَقَدْ أَوْضَحَ الْبِرْهَانَ أَنْكَ وَآجِدُ!
 وَقَدَمَا دَعَا قَوْمٌ سِوَاكَ فَلَمْ يَقُمْ *** عَلَى ذَاكَ بَرْهَانٌ وَلَا لَاحَ شَاهِدُ
 وَبِالْفَلَكَ الدَّوَارِ قَدْ ضَلَّ مَعْشَرٌ *** وَلِلنِّيرَاتِ السَّبْعِ دَاعٍ وَسَاجِدُ
 وَلِلْعَقْلِ عِبَادٌ وَلِلنَّفْسِ شَيْعَةٌ *** وَكُلُّهُمْ عَنِ الْحَقِّ حَائِدُ
 وَكَيْفَ يَضِلُّ الْقَصْدَ ذُو الْعِلْمِ وَالنَّهْيِ (1) *** وَنَهَجَ الْهَدَى مِنْ كَانَ نَحْوَكُ قَاصِدُ (2)

فإذا كان الشكر والحمد لله عز وجل اعترافا بفضله تعالى على عباده، فإن رضاه غاية كل عاقل يسعى إليها جادا مجتهدا تحذوه الرغبة والرغبة، فيسارع بالعودة إلى محراب ربه للظفر بعفوه ومغفرته، وقد قال جل شأنه: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (3)، فما أعظمك خالقي، وما أسمى مقامك وأرفع شأنك، فأنت العليّ القدير الذي لا يدانيه في علوه أحد، وما أقرب رحمتك وعطفك وخلمك من عبادك، فأنت البعيد القريب، يلوذ بك المذنب ويلجأ إليك الخائف، ندعوك في أوقات الشدة فتسعنا رحمتك ويشملنا عطفك، فنخرج وقد شدا عودنا، وقويت عزيمتنا، فهل يعقل أن يدعو الإنسان خالقاً أو إلهاً آخر سواك؟! وكل الأدلة والبراهين تؤكد وحدانيتك وألوهيتك؛ وقد ثبت ضلال أسلافنا الذين

1 - النهي: العقل، يكون واحداً وجمعاً . وجاء في قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لَأُولِي النُّهْيِ» (طه/126).
 2 - أزهار الرياض في أخبار عياض لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ، تح عبد السلام المران وسعيد أحمد أعراب/ اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية والإمارات العربية، 1980م، ج3، ص116.
 3 - المائة / 41.

دعوا إلاها غيرك، وسجدوا للكواكب والنجوم وغيرها، كما ضل وحاد عن طريق الصواب كل أولئك الذين لم يعرفوك، ولم يقصدوك بالطاعة والعبادة، لأن العلم بوجودك ووحدانيتك هو طريق الصواب والهدى، وهو الحق الذي لا يجيد عنه عاقل. وهكذا بدعونا الشاعر إلى الهدى، إلى الحق تبارك وتعالى الغني الصمد، والله خير داع لذلك في قوله عز وجل: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ...»(1).

وقد يقودنا هذا التهجيد والابتهاال إلى الإقرار بوحداية الله، إذ نقرأ في

القصيدة نفسها قول الشاعر :

وهل في التي أطاعوا لها وتعبدوا *** لأمرِك عاصٍ أو لحقِك جَسَّاجِدُ
 وهل يُوجدُ المعلوكُ من غيرِ عِلَّةٍ *** إذا صحَّ فِكْرٌ أو رأى الرُّشدَ رَاشِدُ
 وهل غِبَّتَ عن شيءٍ فَنِيكِرُ منكرٌ *** وُجودَك أم لم تَبْدُ منك الشَّواهِدُ
 وفي كلِّ معبودٍ سِوَاكَ دلائلٌ *** من الصُّنْعِ تُبَيِّنُ أَنَّهُ لَكَ عَابِدُ
 وكلُّ وجودٍ عن وجودِك كائنٌ *** فواجِدُ أصنافِ الوَرَى لَكَ وَاجِدُ
 سَرَتْ مِنْكَ فِيهَا وَحْدَةٌ لَوْ مَنَعَتْهَا *** لأصْحَبِ الأشياءِ وهي بوائِدُ(2)
 وكم لك في خلقِ الوَرَى من دلائلٍ *** يراها الفتى في نفسه ويُشاهدُ
 كفى مكذبا للجاحدين نفوسهم *** تُخَاصِمُهُمْ إِنْ أَنْكَرُوا وتُعَانِدُ(3)

فإيمان الشاعر وعلمه وفلسفته، كل ذلك يؤكد وجود الله ووحدانيته عز وجل. فالعاقل الراشد يؤمن بوجود الله الذي تؤكد الأدلة والبراهين في كل ما يحيط بنا وفي أنفسنا. قال تعالى: «فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ»(4).

وإذا كان العلم يهدي إلى الإيمان، فإن هذا الأخير يقود إلى مراقبة النفس

1 - الإخلاص/2،1.

2 - بوائد : من باد، يبيد، يبد، ويأدا ويودا : هلك وانقطع.

3 - أزهار الرباض، ج3، ص117.

4 - الطارق/ 7،6،5.

ومحاسبتها، لعلها تحظى برضوانه عز وجل، وخير ما نصون به أنفسنا ونظهرها به، هو رجوعنا إلى الله الخالق وتضرعنا إليه وحده. ولنقرأ مع ابن السيد البطليوسي هذه الآيات :

أمرت إلهي بالمكارم كلها *** ولم ترضها إلا وأنت لها أهل
 فقلت امفحوا عمن ساء إليكم *** وعودوا بخلم منكم إن بدا جهل
 فهل لجهول خاف صعب ذنوبه *** لديك أمان منك أو جانب سهل؟(1)
 إلهي، لقد أمرتنا بالمكارم كلها لأنك أنت الكريم الرحيم الحليم، فهل للخائف العائد بك أمان؟ إن الخوف والخشية لدى المؤمن يحدوهما الأمل والرجاء، والثقة بوجود الله، الكريم الودود، والقائل جل شأنه : «وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ»(2).

لذلك فاللييب هو ذلك الذي يقف عند بابه تعالى ذاكرا حامدا وشاكرا، مرددا مع الشاعر حبيب بن أحمد الشطحيري(3) هذه الآيات العذبة :

الحمد لله على ما قضى *** فكل ما يقضي عليه الرضا
 قد كنت ذا أيدٍ وذا قوةٍ *** فاليوم لا أستطيع أن أنهضاً
 فوُضتُ أمري للذي لم يضع *** من أحسن الظن ومن فوضاً(4)
 فنعم الحمد حمد الله تعالى على كل أمر، وإنه لا يحمد على مكروه سواه، نحمده على ما منحنا من صحة وقوة، أو ضعف، لأنه له الأمر كله، وإليه ترجع الأمور وتفوض، فلا خاب ظن من فوضه، أو لم يفوض سيدنا موسى عليه السلام أمره لله يوم جار

1 - أزهار الرياض ج3، ص140. والقلائد، ق3، ص223.

2 - النازعات /39 - 40.

3 - حبيب بن أحمد الشطحيري، شاعر من أهل قرطبة، توفي قريبا من سنة 430هـ. ترجم له الحميدي في الجذوة ص310، وروى له هذه الآيات الثلاثة.

4 - جذوة المقتبس للحميدي، نع : إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة ودار الكتاب اللبناني - بيروت، ط2، 1983م - ص310.

عليه قومه فدعاهم إلى الإيمان برب العزة، قال تعالى على لسانه : «فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَؤُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» (1).

ومن الشعر الذي نظم في تسييح الله ومجيدته أيضا، قصيدة لابن حزم تبلغ الثمانين بيتا وفيها يقول :

لك الحمدُ ما باحَ بالشُّكرِ فَمَ	***	لك الحمدُ يارَبُّ والشُّكرِ ثمَّ
فقد خَصَّني منكَ فضلٌ وعَمَّ	***	لك الحمدُ في كلِّ ما حاله
ومِنَ بعدِ ذلكَ لَحْمٌ ودمٌ	***	من المَاءِ أنشأتني نطفةً
وأجَعَلتَها في طَباقِ الرَّحِمِ	***	وأسَكنتَ في جَسَدِي رُوحَهُ
وبلَّغَتني درجَاتِ الفِهْمِ	***	وأخرَجتني بعدُ في عَالَمِي
وسَمِعَ وذَوَّقَ ونُطِقَ وشَمَّ	***	فَمِنكَ لي البَصَرُ المَقْتَفَى
خَلَقْتَ بأنواعِهِ مِنَّ أُمَّمِ	***	وحِسَّ صَحيحٌ ومُميِّزٌ ما
يَبَادِي الكَلَامِ وخَطَّ القَلَمِ (2)	***	ومكَّنَتني من فنونِ العُلومِ

ثم بعد ذلك ينتقل بنا الشاعر إلى حمد الله تعالى على ما علمه من أصول المنطق فيقول:

وأطَلَّعَتني طَلعَ كَيْفٍ ولَمَّ	***	وعَلَّمَتني الحَكَمَ في هَلْ وما
مِنَ الباطلِ المَتَقَى في الكَلَمِ	***	وحدَّ الحَقائِقِ مَيَّزَتَ لي
ويُنْفِي الخِمالَ ويُدِي الحَكَمِ	***	بِرَهانِ صدقِ يُلِيحُ اليقينِ
ويَحْتَدُّ بالوصفِ ما لم يُسَمِّ (3)	***	ويُوفِي المَسْمَى بيانَ اسمِهِ

وإذا كان الله هو خالق الكون ومدبره ومسيره، فإن هذا الكون بكل ما فيه، ومن عليه آيات وبراهين، تدل على وجوده تعالى، وتشهد على وحدانيته، لذلك فله الحمد على خلقه، وتدبيره، وفي ذلك يقول ابن حزم في القصيدة نفسها :

1 - غافر / 44.

2 - تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، لإحسان عباس ص 370.

3 - المرجع نفسه.

ومن هيئة الفلك المستدير	***	وقفت على حده المتظلم
وما فيه من فلك دائر	***	ومن كوكب قاطع كالعلم
فأكبرها قاصدا مغربا	***	وسائرهما جهة الشرق أم
إدارة رب لها منشي	***	يصرفها أمره حيث حم
يخالف ما بين أدوارها	***	على سنن راتب مستتم
ليعلم أهل النهى أنها	***	مدبرة الحكيم حككم
وأن ليس تختار شيئا ولا	***	لها الحكم بل لإله الأتم
يدير بأزمانها دهرها	***	فبنت مبدؤها للفهم
وتشهد أن الذي صاعها	***	هو الواحد الحق باري النسم ¹
هو الأول المبتدي خلقها	***	كما شاء إذ شاء فرق وضم
فأبدى الزمان وأبدى المكان	***	وما فيهما صاع بدءا وكم
هواء، وماء، وأرض، ونار	***	ومشرق أنوارها والظلم
نهار مضيء وليل أحمر ²	***	ونجر عميق وطود أشم
وركب لاميها كيف شاء	***	سكان بر وسكان بكم
ونبت يقوم على ساقه	***	وآخر لاساق يعليه ثم
بلا فيم ولا ليم ولا	***	هنالك ميم ولا فيه كم
ولا كان شيء سواه له	***	مثالا ولا مخربا ما نظم
فصاغ العقول كما شاءها	***	فمن شاء أذكى ³ ومن شاء أصم
وركبها في النفوس التي	***	كما شاء أنشأها ربكم
وما كان من قبل عقل ولا	***	سفاها ولا كان مدح وذم
ولا كان عدل ولا حكمة	***	ولا كان ظلم ولا من ظلم ⁴

1 - النسم : من نسم، النسم، والنسمة : نفس الروح. 2 - أحمر : مظلم.

3 - أذكى : أي جعله ذكيا، والذكاء هو سرعة النغطة.

4 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - ص 371 .

ولو كَانَ ذَلِكَ لم يَعْتَدِلْ *** وجودُ الأمورِ ولم يَسْتَقِمْ
لأنَّ الكثيرَ لَهُ عُذَّةٌ *** تُعَدُّ وتُحَصِّرُهُ إذ تَعْمُ
وما حَصَرَتْهُ حدودُ الكلامِ *** فَوَجَدَانَهُ صَحَّ بعدَ العَدَمِ
ولَكِنْ مُبَدِّعُهَا وَاحِدٌ *** هُوَ الأوَّلُ الحقُّ أفتى إِرْمَ
ولا شيءٌ يُشْبِهُهُ جَمَلَةٌ *** تحَقَّقَ ذلكَ مَنْ قَدْ عَلِمَ(1)

وبعد تعداد الأدلة والبراهين التي تؤكد وحدانية الله عز وجل تلك الأدلة التي تستند إلى العقل، الذي من شأنه أن يدرك الوجود الإلهي من صحة وجود العالم حوله، وذلك لأن العلم طريق الهداية، وينتقل بنا الشاعر بعد ذلك إلى تعداد أنعم الله عز وجل عليه، تلك النعم التي تفضل بها على عباده ولعل أجل نعمة هي نعمة الإسلام التي جاءنا بها نبي الأنام محمد - صلى الله عليه وسلم - إذ يقول :

وَلَوْ لَا التَّعَالِيمُ لم نَذَرِهَا *** ولا عَاشَ حَيٌّ ولم تَعُدْ أُمُّ
فَصَحَّ بِذَلِكَ إِرْسَالُ مَنْ *** به عَلِمَ النَّاسُ مَا قَدْ عَلِمَ
فِيالِكَ برهانٌ حقٌّ بَدَأَ *** فَجَلَى من الجَهْلِ مَا قَدْ أَهَمَّ(2)،
بصدقِ النُّبُوَّةِ والمبتدي *** لخلقِ الجميعِ ومُنشئِ النِّعَمِ
فأرسلَ مُرْسِلُهُ بِالهُدَى *** عَلَى مَا قَضَاهُ وَمَا قَدْ حَتَمَ(3)

فالله جدير بالحمد والتسبيح والتمجيد، على كل ما أنعم به علينا من نعم، وخصنا به من فضل عميم، فقد خلقنا وأنشأ النعم كلها، وأرسل لهدايتنا رسوله المصطفى، الذي أيده بالمعجزات العظيمة التي تدل على صحة نبوته، وقد عدد الشاعر هذه المعجزات في أبيات رقيقة عذبة نذكر منها :

1 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة، ص 371.

2 - أهم : أحزن، أقلق.

3 - المرجع السابق.

وَأَعَجَزَ فِي نُظْمِ قُرْآنِهِ *** أُولَى حُضْرٍ وَبُدَاةِ الْحَيْمِ
 وَدَانَ الْمُلُوكَ لِآيَاتِهِ *** خِلَافَ التَّكَذِيبِ مَنْ زَعَمَ
 عَلَى غَيْرِ خَوْفٍ لَهُ يُتَّقَى *** وَلَا رَغْبَةَ عِنْدَهُ تُغْتَنَمُ
 فَحَلُّوا لَهُ عَقْدَ تِيحَانِهِم *** وَخَلُّوا لَهُ مُلْكَهُمْ فَانْهَدَمَ
 بِطَبِّ النَّفُوسِ بِلَا سَلِّ سَيْفٍ *** وَلَا بَذْلِ مَالٍ لَهُ يُقْتَسَمُ (1)

والقصيدة طويلة، تفيض كلها بنزعة زهد وإيمان وعلم، كما تنم عن ثقافة الشاعر الواسعة، وتشبعه بالروح الإسلامية. ولا غرو فقد عاش ابن حزم للحياة العقلية، واعتنى بالفقه والفلسفة (2)، أكثر من عنايته بشيء آخر، ولعل هذا هو السبب الذي جعله يكثر من استعمال المعاني الفلسفية والفقهية في أشعاره (3)، ويتضح لنا ذلك جلياً في هذه القصيدة التي تتسم بعمق المعاني، وتوليدها، والإكثار من الحكمة، والميل إلى الطريقة الجدلية في عرض الأفكار وتعليقها. وعنايته بعمق الفكرة ووضوحها جعلته لا يخجل بالألفاظ، فنراه لا يتعمق ولا يتقنى، كما نراه أيضاً يكثر من الاقتباس من القرآن الكريم ونقف هنا عند قوله :

«ولكن مبدعها واحد *** هو الأول الحق أفنى إرم»

ففي هذا البيت تضمين للآية الكريمة : «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ...» (4). كما تكرر في قصيدته ألفاظ و مصطلحات الفقه والمنطق والأصول، وغير ذلك مما يتصل بثقافته الواسعة وعلمه الغزير (5). وهاهو يحمده الله عز وجل على ما علمه من أصول في المنطق إذ يقول : «وعلمتني الحكم في هل وما...» وعذوبة ألفاظه مردّها إلى كونها ألفاظ إسلامية مقبسة من القرآن الكريم. والمتدبر لهذه

1 - انظر القصيدة في كتاب تاريخ الأدب لنزولي، عصر سيادة قرطبة، لإحسان عباس، ص 370.

2 - طبقات الأمم، لأبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي، مطبعة التقدم الحديثة - مصر - (د.ت) ص 101.

3 - ابن حزم حياته وأدبه - لعبد الكريم خليفة - نشر: الدار العربية للطباعة والنشر - بيروت - (د.ت) ص 259.

4 - المعجم / 7,6.

5 - انظر الكتب التي ترجمت للشاعر مثل : طبقات الأمم ص 99، 101، جنوة المقنيس، ص 291، وفيات

الأعيان ج 3، ص 13 وغيرها.

الكلمات المتمعن فيها يجدها لا تخرج عن ذلك المعين، فمثلا «بيدي، الواحد، الحق، باري، هو الأول، الهدى، المتدي»... وغيرها من الألفاظ التي توحى باغترافه من معين القرآن الكريم الذي لا ينضب.

وقد يقف الإنسان مع نفسه وقفة تذكّر، فيحسّ بثقل حملة، وكثرة ذنوبه وخطاياها، ويشعر بالألم أكثر عندما تتقدّم به السن، ويدنو منه الأجل، ساعتئذ يلجأ إلى ربّه متضرعا خاشعا. ومما نظم في ذلك قول ابن حمديس(1) :

يا ذنوبي ثقلي والله ظهري *** بأن عذري فكيف يقبل عذري
كلما تبّت ساعة عدت أخرى *** لضروب من سوء فعلي وهجري(2)
ثقلت خطوتي وفودي(3)، تفرى(4) *** غيب(5)، الليل فيه عن نور فجر
دب موت السكون في حركاتي *** وخبا في رماده حمر جمري
وأنا حيث سرت أكل رزقي *** غير أن الزمان يأكل عمري
كلما مرّ منه وقت بربح *** من حياتي وجدت في الربح خسري
يا رفيقا بعده ومحيطا *** علمه باختلاف سري وجهري
مل بقلي إلى صلاح فسادي *** منه وأخير برافة منك كسري
وأجزني مما جناه لساني *** وتناجت به وسوس فكري(6)

1 - ابن حمديس : عبد الجبار بن حمديس الصقلي، ولد سنة 447هـ في سرقوسة من أصل عربي أزدي، من عائلة محافظة، وعلى درجة كبيرة من النفاقة الذهبية. نظم الشعر منذ صباه، وانغمس في اللهو والنجون في مرحلة الشباب، وفي آخر حياته أحاطت به المهزبة والموت، إذ سقطت بلاده ومات والده وهو في إشبيلية إلى جانب ملكها المعتمد، وكان ملكا عظيما، وبعد أن تراجع الزمن بهذا الأخير ووقع أسيرا في يد يوسف بن تاشفين، أحسن الشاعر بالمهزبة الكبرى التي ظلت تلاحقه، فحزن لذلك وراح يتردّد على ولي نعمته بأغمات (المغرب)، وكانت الأحزان والمآسى عاملا من عوامل نبوغ الشاعر فنظم أروع القصائد في الحكمة والزهد. وتوفى سنة 527هـ، مخلفا ديوانا شعريا ضخما.

2 - هجري : الحجر : بضمّ الماء هو الفيح من الكلام، والإفحاش.

3 - فودي : الفؤد : معظم شعر الرأس مما يلي الأذن. 4 - تفرى : انشقّ وفسد. 5 - غيب الليل : اشتدّ سواده.

6 - ديوان ابن حمديس، تحقيق : إحسان عباس. نشر دار صادر للطباعة والنشر، بيروت - 1379هـ -

م، 1960، ص 265، 266.

فها هو الشاعر يقف وقفه المتأمل، فيحس بكثرة الذنوب والآثام التي اقترفها في حق نفسه، لذلك لم يجد بدا من الرجوع إلى ربه تائباً، ويقف أمامه خاشعاً متضرعاً، طالباً الرحمة والعطف والصفح، إنه يستجير به من أخطاء نفسه وجهلها وظلمها، كما طلب منه الرحمة والهداية فهو نعم الهادي.

وقد جاءت هذه المعاني صادقة، نابعة من نفس مسلمة مؤمنة بقوله تعالى:

«وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...» (1).

وإذا سلم المرء بالعظمة لله عز وجل، فإنه يسلم أيضاً بعلمه الجهر وما يخفي، لقوله عز وجل: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ» (2)، وإذا اتصل القلب بالله صلة خشوع وتقوى، ومراقبة في كل أمر من أمور الحياة، فإنه لا يجد بدا من الوقوف أمام جلاله وعظمته وقفه خشوع وتقوى، واطمئنان وتسليم، فيردد مع أبي الوليد الباجي دعاءه:

إذا كُنتَ ربي في طريقي صاحباً *** وتخلفني في الأهل ما دمت غائباً

فسهّل سبيلي وازو عني شرها *** وشر الذي ألقاه في الأهل آيها (3)

إن الله أحسن رقيب وخير صاحب في السفر والإقامة، وهو الوديع الذي لا تضيع ودائعه، فما أكرمك إلهي، أنت الكريم إذ كرمتنا مذ خلقتنا، فحقت علينا عبادتك، ووجبت طاعتك، والعمل على مرضاتك، فقيام الليل، والقنوت، وتلاوة القرآن كلها لك. ولنستمع لقول الشاعر أبي الوليد الباجي وهو يدعو إلى ذلك قائلاً:

قد أفلح القانت (4)، في جنج الدجى *** يتلو الكتاب العربي النيرا

فقائماً وراكعاً وساجداً *** مبتهلاً مستغفراً (5)

1 - غافر / 60.

2 - النحل / 19.

3 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 104.

4 - القانت : اسم فاعل من قنت، القنوت : الخشوع و الإقرار بالعبودية، والقيام بالطاعات.

5 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 104، 105.

له حنينٌ وشهيقٌ وبكاء *** يُيلُ من أدمعِهِ تَرَبُّ الشُّرَى
 إنا لسفرٌ (1) يبتغي نيلَ المدى (2) *** ففي السُّرى (3) بُغيتنا لا في الكرى
 مَنْ يَنْصَبِ اللَّيْلَ يَنْلِ رَاحَتَهُ *** عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ القَوْمَ السُّرى (4)

إنَّ العبادة هي المظهر الطبيعي للتدين، لذلك فالفوز والفلاح هو القنوت لربِّ العالمين، وتلاوة كتابه العزيز الحكيم، والعمل بما جاء فيه، ولا ننسى أبدا أننا أمة رسالية، مكلفة بالتبليغ والنصح والإرشاد، فما أعذب هذه الكلمات وأصدقها وأرقها، فالمعنى مقتبس من القرآن الكريم، من قوله تعالى: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا» (5)، وقوله جلَّ شأنه: «وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ.» (6).

والشعور بالضعف حقيقة يعيشها الإنسان ساعة المرض أو الفقر، والكبر، وهو شعور يعزّي المؤمن عندما يتأمل في نفسه وفي ملكوت الله من حوله، عندها يعلم بأن الله أعظم، فيقف أمامه متضرعاً مستغفراً، ولعله يُردِّدُ كما ردَّد أبو إسحاق الإلبيري قوله:

لا قوَّةَ لي ياربُّ فَأَنْتَ صَرُّ *** ولا براءةَ من ذنبي فَأَعْتَذِرُ
 فَإِنْ تَعَايَبَ فَأَهْلُ لِلْعِقَابِ وَإِنْ *** تَغَفَّرَ فَعَفْوُكَ مَأْمُولٌ وَمُنْتَظَرُ
 إِنَّ العَظِيمَ (7) إِذَا لم يَعْفُ مُقْتَدِرًا *** عَنِ العَظِيمِ (8) فَمَنْ يَعْفُو وَيَقْتَدِرُ (9)

فما أغرب الإنسان، وما أشد ظلمه، لا يلجأ إلى ربه إلا إذا أحس بالضعف والعجز، وكثرت ذنوبه وآثامه. وما أعظم الله عزَّ وجلَّ الغفور الرحيم، إذ وعد التائبين بالعفو والمغفرة.

1- سفر: جمع من سافر. 2- المدى: الغاية. 3- السرى سمر الليل كله.

4- الذخيرة، و2، مج1، ص104، 105.

5- الإسراء/78.

6- الفقرة/236.

7- العظيم الأولى: صفة الله عزَّ وجلَّ. 8- والعظيم الثانية: يفصد بها الذنب العظيم.

9- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، تح: رضوان النابا، دار فنية، ط2، 1981م، ص108.

والشاعر لا يتوانى في الدعاء والابتهال إلى ربّ العزة، فيقول مرّة أخرى :

أَتَيْتُكَ رَاجِئًا يَا ذَا الْجَلَالِ *** ففَرَجْ مَاتَرِي مِنْ سُوءِ حَالِي
عَضَيْتُكَ سَيْدِي وَبِلِي بِجَهْلِي *** وَعَيْبُ الذَّنْبِ لَمْ يَخْطُرْ بِيَالِي
إِلَى مَنْ يَشْتَكِي الْمَمْلُوكُ إِلَّا *** إِلَى مَوْلَاهُ يَا مَوْلَى الْمَوَالِي
لَعَمْرِي لَيْتَ أُمِّي لَمْ تَلِدْنِي *** وَلَمْ أُغْضِبْكَ فِي ظُلْمِ اللَّبَالِي
فَهَا أَنَا عَبْدُكَ الْعَاصِي فَقِيرٌ *** إِلَى رُحْمَاكَ فَأَقْبَلْ لِي سَوَالِي
فَإِنْ عَاقَبْتَ يَا رَبِّي تَعَابَيْتُ *** مُحِقًّا بِالْعَذَابِ وَبِالنَّكَالِ
وَإِنْ تَعَفَّ فَعَفْوُكَ قَدْ أَرَانِي *** لِأَفْعَالِي وَأَوْزَارِي (1)، الثَّقَالِ (2)

والشاعر إذ يتضرع إلى الله ويدعوه، يقر بذنوبه، ويعترف بخطاياها، لكنه يرى رحمة ربه أوسع وأعظم من ذلك كله. لذلك فهو يأمل العفو والرحمة. والمؤمن هو الذي لا يقنط من روح الله فيتوب إليه، ويستغفره، عملا بقوله تعالى: «وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ» (3). ومع علمه برحمة ربه وإيمانه بها، عليه ألا ينسى قوله تعالى: «إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» (4).

وقد يقف الإنسان أمام الكون، آية الله الكبرى، ولوحته الرائعة، التي تطرب النفس وتهز المشاعر، وتحرك الأحاسيس، عندها يرى بعقله الواعي، عظمة الخالق المدبر، القادر المهيمن، خالق كل شيء ومبدعه، إذ ذاك يسبح لله الواحد الصمد، ويردد مع الشاعر أحمد بن يحيى عيسى الإلبيري (5) قوله :

1- أوزاري : من الوزر : الحمل الثقيل. والذنب.

2- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 110.

3- غافر / 54.

4- فصلت / 42.

5- أحمد بن يحيى عيسى الإلبيري : وكنيته أبو عمر، كان شاعرا وأديبا فقيها ومتكلما وزاهدا، عاش في القرن الخامس الهجري. قال ابن بسام في ذمونه « ..إلا أن أكثر ما ألفت له من المقطوعات والأبيات في الزهد والعظات». انظر : الذخيرة ق 1، م 2، ص 848، 847» والصلة لابن بشكوال ص 48. وابن سعيد في المغرب في حلى المغرب، مج 2، ص 95.

يا خَالِقًا خَلَقَ الزَّمَانَ بِقُدْرَةٍ *** في غيرِ حينٍ من أحيينِ الزَّمانِ
يا مُخَدِّثًا لِلْكَلِّ كُنْتُ ولم تَزَلْ *** وكذاك رَبِّي لا يزالُ بِلا مَكان
أنتَ الَّذي جَلَّتْ صِفاتُ جِلالِهِ *** وعلتْ جِلالَتُهُ عَن إدراكِ العيانِ(1)

فالشاعر يقر بأن الله عز وجل هو خالق الزمان والمكان، وخالق كل شيء فما أروع الاعتراف بعظمة الله عز وجل، وقدرته، فهو الخالق المحدث القادر، الأول والآخر، العظيم الجليل، فما أعظمك إلهي، وأعظم صفاتك، والمؤمن من يستشعر من آيات الكون حوله عظمة الله وجلالة الخالق، ويستوحى من ألفاظ القرآن ومعانيه أدوات تعبيرة وأفكاره. قال تعالى: «الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل»(2).

والشاعر إذ يقر بعظمة الخالق وجلاله، يعترف ويؤمن بكل صفاته التي وصف بها نفسه، والأسماء التي تليق بمقامه الجليل، لذلك نجد في قصيدة أخرى:

مَلِكٌ تَعَالَى فَوْقَ غَايَاتِ الْعَلَا *** يَقْضِي الْقَضَاءَ عَلَى نَهَائِيَاتِ الثَّرَى
من فوقِ فوقِ الفُوقِ يَنْفِذُ حُكْمَهُ *** في تَحْتِ تَحْتِ التَّحْتِ تَحْتِ الْاِنتِها
قُرْبًا وَبُعْدًا وَهُوَ أَبْعَدُ مَنْ نَأَى *** مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ أَقْرَبُ مَنْ دَنَا
جَلَّتْ صِفاتُ جِلالِهِ فَجِلالُهُ *** قد جَلَّ عَن تَحْدِيدِ كَيْفٍ وَمَنْ وَمَا(3)

فالله مالك الملك، العلي العظيم القدير، القريب البعيد، تحيط به البصائر ولا تدركه الأبصار، جلَّت صفاته وعلا شأنه، فالشاعر هنا يقف مع نفسه، وبعد تفكره وتدبره، اهتدى إلى الحقيقة التي تطمئن لها القلوب، وترتاح إليها الضمائر، حقيقة أن الله خالق مالك عظيم جلَّت صفاته، وبهذا التسليم لله عز وجل، تطمئن النفس وتعيش في رحاب ربها متطلعة إلى رضاه، مطمئنة إلى رعايته، وقد استوحى الشاعر معانيه وأفكاره من القرآن الكريم، مدرسة المسلم الأولى، وهو إذ يعترف بأن الملك لله

1- الذخيرة، ق1، م2، ص850.

2- الزمر/59.

3- الذخيرة ق1، م2، ص850.

تعالى، نجده يقتبس ذلك من قول الله عز وجل: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ»⁽¹⁾، ولعل الذي أنطق الشاعر بهذه الكلمات الرقيقة، وأطلق لسانه من عقاله، هو امتلاء قلبه بالحب، والإيمان، ذلك الحب الذي بإمكانه أن يضيء على القلب إشراقة جميلة تضيء للإنسان طريقه وتقوده إلى معرفة ربه، فيسبح له بكرة وأصيلا، قال تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»⁽²⁾، غير أننا نرى الشاعر قد أكثر من التكرار والتلاعب بالألفاظ، ومع ذلك لا تحس معها بالملل الذي قد يعتريك لو كنت في غير هذا الموقف الذي كان فيه الشاعر وهو تعبير عن علو مكان الله عز وجل «قدرا وشأنا» وقربه من عباده الذين تقربوا منه بالطاعات والعبادات، فلو قرأنا قوله: «مِن فَوْقِ فَوْقِ الْفَوْقِ يَنْفَذُ حُكْمَهُ .. فِي تَحْتِ تَحْتِ التَّحْتِ تَحْتِ الْإِنْتِهَاءِ» لأحسنا بثقل القاف على اللسان، وقرعها للأذن، غير أننا نلتذذ بتريديها لإيماننا بالله عز وجل وسمومكانته، ودنو مكانته مخلوقاته حتى تكون تحت وأدنى مما قاله الشاعر «في تحت تحت التحت تحت الانتها» وما يزيد الفكرة توكيدا استعماله للطباق: «قُرْبًا وَبُعْدًا» وكأنَّ بالشاعر لا يجد الكلمات المعبرة عن سمو مقام ربه في نفسه، فراح يتضرع إلى ذلك بكل وسيلة، مرّة يلجأ إلى التكرار وأخرى إلى الطباق وهكذا..

2 - ذكر واعتبار :

إنَّ الإنسان بحكم طبيعته يميل إلى أعمال فكره، ويتطلع دائما إلى الأحسن والأفضل؛ ونضجه العقلي هو الذي يوجهه للإيمان بالله عز وجل إيمانا ذاتيا عقليا، نابعا من إدراكه بما يحيط به من آيات وأدلة، تؤكد وجود الله الخالق العظيم ووحدانيته، لذا نجد أهل النهى، والعقول النيرة، من شعراء أمتنا يلفتون أنظارنا إلى ما فيه حيرنا في الدنيا والآخرة، ويذكروننا بما ينفعنا ويحذروننا من الشرور والآثام، ويسلكون في ذلك مسلك الوعاظ والزهاد.

1- المؤمنون /117.

2 - الفاتحة/1،2،3.

ولنطالع معا هذه القصيدة التي نظمها ابن حزم، في ذكر التعنف وفضله،
والترغيب فيه، على سبيل الوعظ والإرشاد، مبيّنا أنه لا يكون إلا عن طريق معرفة الله
والإهداء إليه بواسطة العقل المتدبر الواعي، الذي كرّمنا وفضلنا به على سائر
المخلوقات وتما جاء فيها قوله :

يا نفسُ جدي وشمري ودعي *** عنك أتباع الهوى على لغبة⁽¹⁾،
وسارعي في النجاة واجتهدي *** ساعية في الخلاص من كربه⁽²⁾
يا أيها اللاعبُ المجدُّ به الـ_____ ذَهْرُ أَمَّا تَقِي شَبَابَ⁽²⁾ نَكْبَهُ⁽²⁾
كفناك من كلِّ ما وَعِظْتَ بِهِ *** ما قد أراك الزمانُ من عَجَبِهِ
دع عنك دارا تَفْنَى غَضَارَتِهَا⁽³⁾ *** وَمَكْسَبًا لَاعِبًا بِمَكْتَسِبِهِ⁽³⁾
لم يضطرب في محلِّها أحدٌ *** إِلَّا نَبَا⁽⁴⁾ حَدُّهَا بِمُضْطَرِبِهِ⁽⁴⁾
مَنْ عَرَفَ اللَّهَ حَقَّ مَعْرِفَةٍ *** لَوَى⁽⁵⁾ وَحَلَّ الْفَوَادِ فِي رَهْبِهِ⁽⁵⁾
ما منقضي الملكِ مثلَ خالدهِ *** وَلَا صَحِيحَ النَّقِيِّ كَمُوتِ شَيْبِهِ⁽⁶⁾
ولا بقي الوري كفاسِقِهِمِ *** وَليْسَ صِدْقُ الْكَلَامِ مِنْ كَذْبِهِ⁽⁶⁾
فلو أمانًا مِنَ الْعِقَابِ وَلَمْ *** نَخَشَ مِنَ اللَّهِ مُتَقِي غَضَبِهِ⁽⁷⁾
ولم نخف نارهُ الّتي خُلِقَتْ *** لِكُلِّ جَانِي الْكَلَامِ مُحْتَفِبِهِ⁽⁷⁾
لكانَ فَرَضًا لِرُؤْمِ طَاعَتِهِ *** وَرَدَّ وَفَدَّ⁽⁸⁾ الْهَوَى عَلَى عَقْبِهِ⁽⁸⁾
وصحَّةُ الزَّهْدِ فِي الْبَقَاءِ وَإِنْ *** يَلْحَقُ تَفْنِيدُهَا⁽⁹⁾ بِمِرْتَقِبِهِ⁽⁹⁾
فقد رأينا فعلَ الزَّمانِ بأهْلِ _____ كَفِعَلِ الشَّوَاظِ⁽¹⁰⁾ فِي حَظْبِهِ⁽¹¹⁾

1 - لغبة : تعبه. 2 - شبا كلِّ شيء : حدّه و طرفه. 3 - غضارتها : حورها وخصبها.

4 - نبا حدّ السيف : لم يقطع. 5 - لوى الحبل : فتلّه. 6 - موتشيب : مخلوط غير صريح.

7 - المحتضب : الحبل الذي يشد به. 8 - وفد الهوى : ما وفد عليه منه : قدم.

9 - تفنيدها : التفتيد: اللوم وتضعيف الرأي. 10 - الشواظ : اللهب الذي لا دخان فيه.

11 - طوق الحمامة لابن حزم. ص 309.

فها هو الشاعر ينصح بالعودة إلى حياة الجَدِّ والعمل الصَّالح، وترك الدُّنيا الفانية، لأنَّ من عرف الله امتلاً قلبه خوفاً وخشوعاً وطاعة.

واستمدَّ الشاعر هذا المعنى من القرآن الكريم، ولتدبَّر قوله عزَّ وجلَّ :
«إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ»⁽¹⁾، فالعالم بوجود الله وقدرته عزَّ وجلَّ هو الذي يتَّقِيه، ويخشى حسابه وعقابه، لذا فالتَّقوى هي خير ما يتزوَّد به الإنسان في هذه الحياة، لأنَّ الدُّنيا دار عمل والآخرة دار حساب وجزاء، وحتى لو لم تكن هناك جنة ولا نار، ولا حساب وعقاب أو ثواب، لكان فرضاً علينا إفناء العمر في طاعته وعبادته، لأنَّه فضلنا على جميع المخلوقات وامتنَّ علينا بالنعمة والخيرات، فله الحمد والشكر، وفي ذلك قال ابن حزم في القصيدة نفسها :

والحمدُ لله في تفضُّله *** وقمعه للزمان في نُوبه

فاسمع ودع من عصاه ناحية *** لا يحمل الحمل غير محتطبه⁽²⁾

وهي دعوة صريحة إلى طاعة الله عزَّ وجلَّ على سبيل النَّصح والإرشاد. فطوبى لمن عرف طريق ربِّه واهتدى إلى الطَّريق المستقيم.

وإذا كانت الدُّنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء وعقاب، فإنَّ الله عزَّ وجلَّ حذرنا من أتباع شهواتنا، وحثنا على العمل الصَّالح، وهناك من الشعراء الذين تشبَّعوا بهذه الرُّوح الإسلامية، فحملوا لواء النَّصح والوعظ، ودعوا إلى العمل والطَّاعة، ومن بين هؤلاء الوعاظ الشاعر : أبو محمد غانم⁽³⁾، إذ يقول :

1 - فاضل/28.

2 - طوق الحمامة، ص310.

3 - أبو محمد غانم بن الوليد بن عمر بن غانم الأشبوني الملقب بالخزومي، كان ناثراً وشاعراً وعالمنا جليلاً. توفى حوالي سنة 470هـ.

انظر ترجمته في : الذخيرة ق1، م2، ص853 - 854. والمغرب في حلي المغرب ج1، ص317. والصلة لابن بشكوال، ص450. ومعجم الأدباء لياقوت الحموي : 16/167. وبغية الوعاة للسيوطي ص371. والمغرب لاس دحية ص84.

صَرَفَ بِقَايَا الْعَمْرِ فِي طَاعَةِ *** وَلَا يَغْرُنْكَ كَيْدُ الْغُرُورِ(1)
وَارْحَلْ إِلَى الْأُخْرَى بِزَادِ التَّقَى *** فَإِنَّمَا الدُّنْيَا مَتَاعُ الْغُرُورِ(2)

والشاعر في هذين البيتين ينصحنا ويعظنا، ويحثنا على الطاعة والعبادة، والعمل الصالح، ويحذرننا من اتباع الشيطان وكيده، ولطالما حذرنا منه الله عز وجل، كما جاء في قوله تعالى : «..فَلَا تَغْرُنْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُنْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ»(3)، لأن الحياة الدنيا دار غرور وفناء، والآخرة خير وأبقى، لذا حثنا الشاعر على التروء للدار الخالدة، بالتقوى لأنها أفضل الزاد، كما جاء ذلك في قول الله عز وجل : «..وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى»(4)، وهكذا نرى الشاعر يغترف من معين القرآن الفيض معنى ولفظا فجاءت ألفاظه عذبة سلسة، ومعانيه عميقة وهادفة إلى بناء فرد قوي الإيمان، مستقيم السلوك حسن الأخلاق.

ولا نبرح هذا الموضوع، حتى نجد شاعرا آخر كأبي الوليد الباجي ينصحنا ويحثنا على الطاعة والعمل الصالح إذ يقول :

إِذَا كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمًا يَقِينًا *** بَأَنَّ جَمِيعَ حَيَاتِي كَسَاعَةٌ
فَلِمَ لَا أَكُونُ ضَيْئًا بِهَا *** وَأَجْعَلُهَا فِي صِلَاحٍ وَطَاعَةٍ(5)

فالإيمان الصادق، والعقيدة الصحيحة سبيل الاستقامة والأخلاق الفاضلة، والطاعة الخالصة لله عز وجل وإذا كان العلم الصحيح سبيل إلى الجنة، فإن الشاعر قد اقتبس هذه الفكرة من قوله تعالى : «..كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ..»(6).

1 - الغرور : كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشهوة وشيطان. والمقصود بها هنا الشيطان وهو أحبب الغاوين.

2 - الذخيرة، ق 1، م 2، ص 858.

3 - لقمان/32.

4 - البقرة/196.

5 - المغرب في حلي المغرب ج 1 ص 404. وتاريخ فضاة الأندلس للباهي ص 95.

6 - الأحقاف / 34.

ولما كانت النفس أمانة بالسوء، واتباع الهوى مهلكة، حذرنّا ابن حزم من

ذلك في قوله :

أقولُ لنفسي ما ميينُ كحالك *** وما الناسُ إلّا هالكُ وابنُ هالكِ
صنّ النفسَ عمّا عابها وارضِضِ الهوى *** فإنّ الهوى مُفْتاحُ بابِ المهالكِ
رأيتُ الهوى سهلاً المبادي لذيذها *** عقاباهُ مرُّ الطعمِ ضنك(1)، المسالكِ
فما لذّةُ الإنسانِ والموتُ بعدها *** لو عاشَ ضعيفي عمرِ نوح(2)، بنِ لامِك
فلا تتبعُ داراً قليلاً لبائها(3)، *** فقد أنذرتنا بالفناءِ المواشِك(4)،
وما تزكُّها إلّا إذا هي أمكثُ *** وكم تاركِ إضماره غير تارك
فما تاركُ الآمالِ عجا جوادِر(5)، *** كتاركِها ذاتِ الضروعِ الحواشِك(6)،
وما قابلُ الأمرِ الذي كان راغباً *** بشهوةٍ مُشتاقٍ وعقلٍ مُبارِك
لأجدبي عباداً لله بالفوزِ عندهُ *** لدى جنّةِ الفردوسِ فوقِ الأرائِك
ومن عرّفَ الرحمنَ لم يعصِ أمرهُ *** ولو أنه يُعطى جميعَ الممالِك(7)،

فالشاعر في هذه القصيدة يحذّر من اتباع الهوى، لأنّه مفتاح المخاطر والمهالك. كما ذكر بفساء الدنيا وزوالها، ورغب في الطاعة والأعمال الفاضلة. ودعا إلى معرفة الرحمن، لأنّ معرفته سبيل إلى الطاعة والعبادة والاستقامة.

فما أحوجنا إلى هذه المعرفة التي تغينا عن كنوز الدنيا بأسرها.

1 - العنك : الضيق.

2 - نوح بن لامك : هو سيدنا نوح عليه السلام أوّل رسول بعث إلى الناس، وقد كان عبدا شكورا، عمر طويلا، ويذكر أنّه عاش ألف وسبعمائة ومائون سنة. انظر : قصص الأنبياء لابن كثير مكتبة الشركة الجزائرية 1981م ص61.

3 - اللبث، واللبث : المكث. 4 - المواشك : المستعمل.

5 - الجلودر : ج جوادِر وجاذر : ولد البقرة الوحشية. 6 - الحواش - من حوش : جمع.

7 - طرق الحمامة، ص298.

وهذا أبو محمد عبد الله بن سارة¹، يدعوننا إلى الاعتبار والاعتاظ بالكبير

والشيب إذ يقول:

يَأْمَنُ يُصِيحُ²، إلى دَاعِي السِّفَاهِ³، وقد *** نَادَى بِكَ النَّاعِيَانِ⁴، الشَّيْبُ والكَبِيرُ
إِنْ كُنْتَ لِاتَّسَعُ الذِّكْرَى ففِيمَ تَرَى *** فِي رَأْسِكَ الوَاعِيَانِ : السَّمْعُ والبَصْرُ
ليس الأَصْمُ ولا الأَعْمَى سِوَى رَجُلٍ *** لَمْ يَهْدِهِ الهَادِيَانِ : العَيْنُ والأَثَرُ⁵،
لا الذَّهْرُ يَبْقَى ولا الدُّنْيَا ولا الفلْكَ الـ *** أَعْلَى و لا النِّيرَانِ : الشَّمْسُ والقَمَرُ
ليرْحَلَنَّ عَنِ الدُّنْيَا وَإِنَّ كَرِهَتْ *** فراقها الثَّوَابِيَانِ⁶، البدو والحضر⁷،

إن هذه الأبيات تستدعي حضور قول زهير بن أبي سلمى⁸، في معلقته :

إِنَّ سِفَاهَ الشَّيْخِ لَا حِلْمَ بَعْدَهُ *** وَإِنَّ الْفَتَى بَعْدَ السِّفَاهَةِ يَحْلُمُ⁹،

هذا إذا سلمنا مع الشاعر بأن الشيب والكبير هما الناعيان، أما إذا تدبرنا الأبيات
وتقصينا غرض الشاعر فإننا نجد يدعو إلى الاعتبار والاعتاظ بالسن والشيب، والسَّمْع
والبصر، كما يذكرنا بزوال الدنيا وفنائها علنا نجد في ذلك مزجرا وواعظا.

1 - ابن سارة : هو عبد الله بن محمد بن سارة البكري الأندلسي وكنيته أبو محمد، شاعر وكاتب ولد في
شنتين، وطاف بأحاء الأندلس شرقا وغربا طلبا للرزق، واستقر أخيرا في بطليوس في بلاط بني الأفطس أيام
المشركل أبي حفص. عمر الذي حكم مع أخيه سنة [460هـ] ثم انفرد بالحكم بعد وفاة هذا الأخير سنة
[473هـ] إلى أن قتل من طرف المرابطين بعد استيلائهم على مدينة بطليوس سنة 487هـ. فرحل الشاعر إلى
إشبيلية واشتغل بالوراقة (نسخ الكتب) واعتزل الناس في أواخر أيامه إلى أن توفي بالمريّة سنة 517هـ الموافق
1123م. نظم الشعر في المحاء والمدح والغزل والوصف والرثاء، والحكمة والزهد. انظر : الفلائي في 4،
ص 299. المغرب في حلي المغرب مج 1 ص 419. شذرات الذهب ج 4، ص 55. المطرب لابن دحية
ص 78. التكملة لابن الأبار ص 462.

2 - بصيح إصاحه : استمع وانصت. 3 - السفاه : من السفه : الجهل / نقيض الحلم.

4 - الناعيان : مثنى الناعي : الذي يأتي بخير الموت. 5 - الأثر : الأجل. 6 - الثاويان : من ثوى، ثواء بالمكان : أقام به.

7 - الحريرة : قسم شعراء المغرب والأندلس (2) ص 321. تحقيق أذرناش أذرنوش - تفريح محمد المرزوقي -
محمد العروسي المطوي - الجليلاني بن الحاج يحيى، نشر الدار التونسية 1971.

8 - زهير بن أبي سلمى شاعر الحكمة، جاهلي من أصحاب المعلقات.

9 - ديوان زهير، ص 89، دار بيروت للطباعة، 1982.

ومن أحسن الكلام وأرق الشعر في هذا الموضوع قول الحميدي (1) :

كلامُ الله عزَّ وجلَّ قولِي *** وما صَحَّتْ به الآثارُ دينِي

وما اتَّفَقَ الجميعُ عليه بدءًا *** وعودًا فهو حقٌّ مبین

فدغ ما صد (2)، عن هذي وخُذها *** تكنُ منها على عين اليقين (3)

وهكذا فالشاعر ينصحنا باتباع الرسول (ص) فيما دعا إليه وعمل به، وأن نجعل كلام

الله عزَّ وجلَّ قولنا وعملنا، لأن من سلك هذه الطريق فقد هدي إلى الصراط المستقيم.

إن أحسن طريق وأفضل عمل، هو تقوى الله عزَّ وجلَّ، واتباع طريق

الصِّلاح والفلاح، طريق الزهد الذي عرفه بعض الشعراء (4)، فدعوا إليه ونصحوا

بانتهاجه، وفي ذلك يقول الحميدي واعظا :

طريقُ الزهد أفضلُ ما طريق *** وتقوى الله باديةُ الحقوق

فَتَقِ بِاللهِ يَكْفِيكَ وَاسْتَعْنِهِ *** يُعِينُكَ وَذَرِ بُنْيَاتِ (5) الطَّرِيقِ (6)

وهكذا نرى الشاعر في هذين البيتين ينصحنا بالزهد، مبيِّنا أنه أحسن طريق وأفضل

عمل، إنه مفتاح الخير كله، كما نصح بتقوى الله، لأنها باب الزهد في الدنيا، فمن

لزم التقوى اشتاق إلى مفارقة الدنيا (7)، والشاعر في كل ذلك يصدر عن القرآن

1 - هو أبو عبد الله محمد بن فتوح الأزدي الحميدي، المورِّخ الأديب أصله من قرطبة، وولد بميورقة (جزيرة

بالأندلس) حوالي سنة [420هـ - 1029م]، رحل إلى المشرق سنة 448هـ بعد أدائه لفريضة الحج استغفبه

المقام في بغداد إلى أن وافته المنية سنة [488هـ - 1095م]. ومن آثاره جذوة المقتبس. انظر: معجم الأدباء

ج 58/7. جذوة المقتبس (6 - 18) والأعلام للزركلي، ج 6، ص 327، وتاريخ الأدب العربي لعمرو فروخ، ج 4، ص 723.

2 - ما صد : الذي أعرض ومال.

3 - نفع الطيب للمقري، مج 2، ص 115.

4 - أعني شعراء الزهد في القرن الخامس الهجري في الأندلس.

5 - بنيات الطريق : الطرق الصغيرة المتشعبة من الجادة. ومنه «دغ بنيات الطريق».

6 - نفع الطيب للمقري، مج 4، ص 348.

7 - الرسالة القشيرية في علم التصوف، للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري (465هـ) مكتبة ومطبعة

محمد علي صبيح وأولاده - ميدان الأزهر، ص 47. (د - ت).

الكريم، إذ جاء في قوله تعالى : « اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ » (1).

ومن اتقى الله ووثق به فإنه سيكفيه شر نفسه والعالمين، ويعينه على الطاعات والعبادات.

وكما رغبتنا الشاعر في الزهد نراه يرغبنا في العلم، لأنه باب من أبواب الجنة، فدعا إلى العلم وطلب الاستزادة منه. فقال :

مَنْ لَمْ يَكُنْ لِلْعِلْمِ عِنْدَ فَنَائِهِ *** أَرْجُ (2) فَإِنَّ بَقَاءَهُ كَفَنَائِهِ
بِالْعِلْمِ نَجَا الْمَرْءُ طَوْلَ حَيَاتِهِ *** فَإِذَا انْقَضَى أَحْيَاءَهُ حُسْنُ ثَنَائِهِ (3)

فالعلم هو إكسير الحياة، فلا حياة لمن لا علم له، والعلم الذي يقصده الشاعر وينصح به، هو الذي يهدي صاحبه للتي هي أقوم، ويقوده إلى النور والحق والإيمان، لا العلم الذي يميت الأجنة في البطون والبسمة على الشفاه.

وها هو في موضع آخر يصرح بذلك العلم الذي يحثنا على تعلمه فيقول :

النَّاسُ نَبَتْ وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ لَهُمْ *** رَوْضٌ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَاءُ وَالزَّهْرُ
مَنْ كَانَ قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ حَاكِمُهُ *** فَلَا شُهُودٌ لَهُ إِلَّا الْأُلَى ذُكْرُوا (4)

فالعلم عنده هو علم الحديث، الذي نتعلم منه قول رسول صلى الله عليه وسلم، فما أجل تلك الصورة التي رسمها لأصحاب الحديث إذ شبههم بالماء والزهر، وهي صورة رقيقة رغم بساطتها، إلا أنها فواحة عطرة كأريج الزهر. والشاعر لا يتعدى هذا الباب حتى يلجج من جديد فيقول :

دينُ الفقيهِ حديثٌ يَسْتَضِيءُ به *** عند الحجاج وإلا كان في الظلم (5)

1 - آل عمران/102.

2 - أرج : أرجا وأريجاً : فاحت منه رائحة طيبة فهو أرج، وقصد به هنا الأثر الطيب .

3 - نفع الطيب، بم، 4، ص 337.

4 - المصدر نفسه.

5 - المصدر نفسه.

وإن تاه ذو مذهبٍ في قفرٍ مُشكِلَةٍ *** لآخ الحديثُ له في الوقتِ كالعلمِ 1،
 والشاعرُ يلجُ إلحاحاً كبيراً على الدُّعوة إلى تعلم الحديث، لأنَّه النور الذي يستضيء به
 الفقيه، ويهتدي بنوره السَّاري والغافل، وهو العلم الذي يقود العلماء إلى حلِّ
 مشكلات أمتهم في كلِّ عصر وزمن. وكما حثوا على طلب علم الحديث ورغبوا
 فيه، حثوا على العلم النَّافع بصفة عامة ويبنوا فضله، ورموا بالجهالة من فضَّلوا المال
 على العلم؛ وهذه المعاني نجدُها متجسِّدة في قصيدة لأبي إسحاق الإلبيري في الزهد،
 وهي قصيدة طويلة بلغ عدد أبياتها 112 بيتاً، ومما جاء فيها قوله :

تَفَتُّ فَوَادِكُ الْإِيَّامِ فَنَّا *** وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْنًا
 وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دَعَاءَ صِدْقِي *** أَلَا يَا صَاحِبَ : أَنْتَ أُرِيدُ أَنَّنَا
 أَرَاكَ نَحْبُ عِرْسًا (2) ذَاتَ غَدْرٍ *** أَيْتُ (3) طَلَّاقَهَا الْأَكْيَاسُ بَنَّا
 تَنَامُ الدَّهْرُ وَيَحْكُ فِي غَطِيظٍ (4) *** بِهَا حَتَّى إِذَا مِتَّ أَنْتَبَهْتَنَا
 فَكَمْ ذَا أَنْتَ مَخْدُوعٌ وَحَتَّى *** مَنِي لَا تَرْغُوعِي (5) عَنْهَا حَتَّى
 أبا بَكْرٍ (6) دَعْوَتِكَ لَوْ أُجِبْنَا *** إِلَى مَا فِيهِ حَظُّكَ إِنْ عَقَلْنَا (7)
 إِلَى عِلْمٍ تَكُونُ بِهِ إِمَامًا *** مُطَاعًا إِنْ نَهَيْتَ وَإِنْ أَمَرْنَا
 وَتَجَلَّوْا مَا بَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا (8) *** وَتَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْنَا
 وَتَحْمَلُ مِنْهُ فِي نَادِيكَ تَاجًا *** وَيَكْسُوكَ الْجَمَالَ إِذَا اغْتَرَبْنَا
 يَنَالُكَ نَفْعُهُ مَا دَمْتَ حَيًّا *** وَيَقِي ذُخْرَهُ لَكَ إِنْ ذَهَبْنَا

- 1 - نفع الطيب، مج4، ص337.
- 2 - عرسا: امرأه، وهما كتابة عن الدنيا. 3 - أيت: من البت: القطع المتناصل.
- 4 - غطيظ: من غط في نومه غطيظا: نحر. 5 - لا ترغوي: لا تكف/ لا ترجع.
- 6 - أبا بكر: كنية المخاطب في القصيدة، وجعل الشاعر الحديث إليه وسيلة لبيسط آرائه. انظر ديوان أبي إسحاق الإلبيري (المامن) ص26.
- 7 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص25، 26.
- 8 - عشاها: العشا: سوء البصر بالليل والنهار / ضعف البصر.

هو العَضْبُ (1)، المهْنَدُ ليس يَنْبُو (2)، *** تُصِيبُ به مَقَاتِلَ مَنْ ضَرَبْنَا
وَكثَرَا لَا تَخَافُ عَلَيْهِ لَصَا *** خَفِيفَ الْحَمْلِ يُوجَدُ حَيْثُ كُنَّا
يَزِيدُ بِكَرَّةِ الْإِنْفَاقِ مِنْهُ *** وَيَنْقُصُ إِنْ بِهِ كَفَا شِدْدَتَا
فَلَوْ قَدْ ذُقْتَ مِنْ حُلُوَاهُ طَعْمَا *** لِآثَرَتِ التَّعَلُّمِ وَاجْتِهَدَتَا
وَلَمْ يَشْغَلْكَ عَنْهُ هَوَى مُطَاعٍ *** وَلَا دُنْيَا بِزُخْرِفِهَا فِتْنَا
وَلَا أَلْهَاكَ عَنْهُ أُنَيْقُ رَوْضٍ *** وَلَا حِدْرٌ (3)، يَرْبُرِبُهُ (4)، كَلَفْنَا
فَقَوَتْ الرُّوحُ أَرْوَاحُ الْمَعَانِي *** وَليْسَ بَأَنَّ طَعِمْتَ وَأَنَّ شَرَبْنَا
فَوَاطِبُهُ وَخَذَّ بِالْجِدِّ فِيهِ *** فَإِنَّ أَعْطَاكَهُ اللهُ أَخَذَتَا (5).

فالشاعر في هذه القصيدة أفرغ جهده في حثنا على طلب العلم ، محاولا إقناعنا بفضله
ومزاياه ، فجعله طريق العزة والسيادة ، والتاج الذي يزين صاحبه ، وينفعه في الدنيا
والآخرة ، وبعد هذا الترغيب في العلم وتزيينه ، يدعو إلى العمل به فيقول ناصحا واعظا :

وَإِنَّ أَوْتَيْتَ فِيهِ طَوِيلَ بَايَعٍ *** وَقَالَ النَّاسُ إِنَّكَ قَدْ سَبَقْنَا
فَلَا تَأْمَنْ سَوَالَ اللهِ عَنْهُ *** بتوييح: عَلِمْتَ فَهَلْ عَمَلْنَا؟
فِرَاسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللهِ حَقًّا *** وَليْسَ بَأَنَّ يُقَالَ : لَقَدْ رَأَسْنَا
وَضَائِي (6)، ثَوْبَكَ الْإِحْسَانَ لَا أَنْ *** تَرَى ثَوْبَ الْإِسَاءَةِ قَدْ لَبَسْنَا
إِذَا لَمْ يُفَيْدِكَ الْعِلْمُ خَيْرًا *** فَخَيْرٌ مِنْهُ أَنْ لَوْ قَدْ جَهَلْنَا
وَإِنَّ أَلْفَاكَ فَهْمُكَ فِي مَهَاوٍ *** فَلَيْتَكَ ثُمَّ لَيْتَكَ مَا فَهَمْنَا
سَتَجَنِّي مِنْ ثَمَارِ الْعَجْزِ جَهْلًا *** وَتَصْفُرُ فِي الْعَيُونِ إِذَا كَبَرْنَا

- 1 - العَضْبُ: السيف القاطع. 2 - "ليس" يبو : بنا السيف عن الضربة نبوا ونبوة ، إذا لم يقطع .
- 3 - حدر: الحدر: سرمد للمرأة في ناحية البيت / كل ما وارك من بيت والحجر.
- 4 - يربره : بصاحبه .
- 5 - ديوان أبي إسحاق الألبيري ، ص 26 .
- 6 - ضاى الثوب : سافه .

وَتَفَقَّدُ إِنْ جَهِلْتَ وَأَنْتَ بَاقٍ *** وَتُوجَدُ إِنْ عَلِمْتَ وَقَدْ فُقِدْتَ
وَتَذْكُرُ قَوْلِي لَكَ بَعْدَ حِينٍ *** وَتَغْبُطُهَا(1) إِذَا عَنِهَا شُغِلْنَا
لَسَوْفَ تَعْضُ مِنْ نَدَمٍ عَلَيْهَا *** وَمَا تُغْنِي النَّدَامَةُ إِنْ نَدِمْنَا

* * * *

وَلَا تَحْفَلْ بِمَالِكَ وَالْأَهْلُ عَنْهُ *** فَلَيْسَ الْمَالُ إِلَّا مَا عَلِمْنَا
وَلَيْسَ بِالْجَاهِلِ فِي النَّاسِ مَعْنَى *** وَلَوْ مُلْكُ الْعِرَاقِ لَهُ تَأْتَى(2)
وَسَيَنْطِقُ عَنْكَ عِلْمُكَ فِي نَدْيٍ(3) *** وَيُكْتَبُ عَنْكَ يَوْمًا إِنْ كَتَبْنَا
وَمَا يُغْنِيكَ تَشِيدُ الْمُبَازِي *** إِذَا بِالْجَهْلِ نَفْسَكَ قَدْ هَدَمْنَا
جَعَلْتَ الْمَالَ فَوْقَ الْعِلْمِ جَهْلًا *** لَعَمْرُكَ فِي الْقَضِيَّةِ مَا عَدَلْنَا(4)

وهنا الشاعر يحض على طلب العلم ، لأنه السبيل إلى تقوى الله ، والخلق الحسن ، وعمل الخير ، وفي ذلك عز الإنسان ومجده في الدارين ، وهو إذ يدعو إلى ذلك يصدر عن عقيدة صحيحة ، وإيمان قوي ، أو لم يقل الرسول (ص) : «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا»(5).

والعلم المفيد هو ذلك الذي يفيد صاحبه والناس ، ويغني عن الجاه والمال والثراء ، فخير الناس من انتفع بعلمه ، وحرر نفسه من الجهل الذي يهدم بيت العز والشرف ، وهكذا ينصح الشاعر بالعلم والعمل به ، ويفاضل بين المال والعلم ، مفضلا هذا الأخير لما له من مزايا وفي ذلك يقول :

1- تغبطها: تحسدها .

2- ديوان أبي إسحاق الإلبري ، ص 27 .

3- الندي : المجلس ما داموا فيه مجتمعين ، فإذا تفرقوا عنه فليس بندي .

4- ديوان أبي إسحاق الإلبري ص 27 .

5- رواد مسلم في صحيحه ، مج 4 ، ص 2060 . تح: محمد فؤاد عبد الباقي / نشر دار الكتاب المصري

واللبناني . (د - ت) .

وبينهما بنصرِ الوحيِ بُسُوْنٌ *** ستعلمُهُ إِذَا «طَه» قرأتَا
لَئِنَّ رَفَعَ الْغِنَى لَوَاءَ مَالٍ *** لَأَنْتَ لِوَاءِ عِلْمِكَ قَدْ رَفَعْنَا
وَإِنَّ جَلَسَ الْغِنَى عَلَى الْحَشَايَا(1) *** لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْنَا
وَإِنَّ رُكِبَ الْجِيَادَ مَسُومَاتٍ(2) *** لَأَنْتَ مَنَاهِجَ التَّقْوَى رُكِبْنَا
وَمَهْمَا أَتَضَّرَّ أَبْكَارَ الْغَوَايِي *** فِكْمِ بِكْرٍ مِنَ الْحِكْمِ اقْتَضَضْنَا(3)

وهكذا بعد هذه الموازنة اللطيفة، يصل بنا الشاعر إلى تفضيل العلم على المال، لأن الله عز وجل أمرنا به، ورغبنا فيه، وإشارة الشاعر إلى سورة «طه» دليل قاطع وبرهان لا يحتاج إلى نقاش، لأن كلام الله عز وجل هو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهكذا فهو الحجّة الدامغة قال تعالى : «... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»(4)، فإذا كان المال يحقق لصاحبه الغنى المادي فيركب أحسن الجياد، ويجلس على أفخم الحشايا، فإن العلم يهيء لصاحبه السعادة في الدارين الأولى والآخرة؛ وذلك لعمرى أحسن وأفضل.

وهؤلاء الشعراء نصحوا بالعلم، وبالععمل، لأنه خير زاد نتزود به للدّار الأخرى، وفي ذلك قال الطرطوشي(5) :

اعْمَلْ لِمَعَادِكَ يَا رَجُلُ *** فَالِنَّاسُ لَدُنْيَاهُمْ عَمِلُوا
وَادْخِرْ لِمَسِيرِكَ زَادٌ تُقَى *** فَالِقَوْمُ بِلَا زَادٍ رَحَلُوا(6)

- 1 - الحشايا : المجلس ما داموا فيه مجتمعين، فإذا تفرّقوا عنه فليس بندي.
- 2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 27.
- 3 - رواد مسلم في صحيحه، مج 4، ص 2060. تح : محمد فؤاد عبد الباقي /نشر دار الكتاب المصري والساني (د.ت).

4 - طه / 111 .

- 5 - الطرطوشي : نسبة إلى طرطوشة، مدينة بالأندلس تقع شرقي بنسبية وقرطبة، قريبة من البحر على نهر أبرة، استولى عليها الإفرنج سنة 543هـ. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي، ط 1 - 1323هـ - 1906م. مط السعادة المصرية، مج 6، ص 44.

- 6 - كتاب فلاسفة الإسلام في الغرب العربي، جمعية نراس الفكر، دار كرتماديس للطباعة - تطوان - ط 1، 1961م، مقال : فلسفة أبي بكر الطرطوشي، لجمال الدين الشيبان، ص 218.

والشاعر هنا يقول : إن الناس قد عملوا لديناهم، فبنوا وشيدوا، وادخروا الأموال، واقتنوا ما شاءوا من الأشياء والحاجات وتنافسوا في ذلك، ونسوا أن يتزودوا بزاد التقوى لأنه خير الزاد وهو الزاد الحقيقي لأن الدنيا فانية زائلة، والعمل الصالح باق.

وقد تظهر الحكمة وتلوح أحيانا بين ثنايا هذا الشعر، ونقرأ ذلك في قول ابن حمديس الصقلي :

أليس بنو الزمان بنو أيكا *** فجرد عن حقائقك الشكوكا
ولا تسأل من المملوك شيئا *** فترجع حائبا وسل المليك(1)
فلمست تبال رزقا لم تنله *** ولو أبصرته مما يليكا
فكم خير ظفرت به نضيجا *** وكنت حُرمت رؤيته فريك(2,3)

معان صائبة وأفكار صحيحة، مستقاة من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، فالناس كلهم إخوة، « كلكم لآدم.. » فلا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، وكلنا عباد الله لا نملك لأنفسنا نفعا ولا ضرا، لذا فالشاعر يطلب من ابن آدم ألا يسأل عبدا مملوكا مثله، مهما أوتي ذلك العبد من مكانة وجاه في الدنيا، لأنه يظل لا يملك شيئا، لقد قال الله تعالى في ذلك ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ ﴾ (4)، لذلك إذا أردت يا ابن آدم أن تسأل فسل الله عز وجل، ربك وخالقك، بيده الرزق يؤتیه من يشاء. قال تعالى : ﴿ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ (5).

1 - المليكا : الله عز وجل، القائل جل شأنه « في مقعد صدقٍ عند مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ » القمر/55.

2 - فريك : يقال أفرك الحب : اشتد ونضج، أخرج من قشره.

3 - ديوان ابن حمديس، تحقيق : إحسان عيسى - دار صادر - بيروت للطباعة والنشر، 1379هـ - 1960
ص 849.

4 - النحل/75.

5 - الشورى/29 .

ومن الحكمة أيضا أن يقنع الإنسان بما قسم له، ويثق بربه العليم القدير،

وفي هذا المعنى يقول ابن حمديس :

كُنْ وَاثِقًا بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ *** فهو الَّذِي يَصْرَفُ عَنْكَ الْخَطُوبَ
واضْرِفْ إِلَيْهِ الْوَجْهَ عَنْ مَعْشَرٍ *** قد صَرَفُوا عَنْكَ وَجْهَ الْقُلُوبِ (1)

فالشاعر يدعو إلى الله والثقة به عز وجل، لأن وعده حق، وهو الذي يصرف عن الإنسان المصائب والخطوب، ويسر له الأمور ومن ثم فهو الجدير وحده بالعبادة والشكر والحمد، فسبحانه لا إله إلا هو، وهو العزيز الحكيم، الذي وعد المؤمنين التائبين بجنات عدن، فقال جل شأنه: ﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرُبُكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرُبُكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (2).

ورغم ذلك ما أكثر غفلة الإنسان وجهله، وما أكثر نسيانه لأوامر ربه وتوجيهات نبيه، لذلك فهو في حاجة كبيرة لمن يذكره بقرب نهايته، ويوم الحساب والعقاب، لذا كانت المقابر أحسن مكان للتذكر والاعتبار، وقلما مرّ بها الإنسان ولم تحرك في نفسه عاطفة حزن وأسى، أو مشاعر خوف من المجهول الذي ينتظره.

وقد وقف الحكماء من الشعراء على القبور وقفة استعبار، وكان ابن

خفاجة واحدا من أولئك الذين استوقفتهم المقابر فقال معتبرا ومحدّرا :

ألا صمّت الأجداثُ (3) عني فلم تجب *** ولم يُغنيني أنني رفعتُ بها صوتي
فيا عجباً لي كيف آنس بالمنسى *** وغاية ما أدركتُ منها إلى فوّتِ
وهل من سرورٍ أو أمانٍ لعاقِلٍ *** ومُفضّى غُبورِ الغابرين إلى الموتِ (4)

1 - ديوان ابن حمديس، ص 44.

2 - لقمان/32.

3 - الأجداث : القبور.

4 - ديوان ابن خفاجة، ص 309.

فها هو الشاعر يقف أمام القبور ويسألها، فلا ترد عليه، فيتعجب من نفسه وجهلها، واستكانتها إلى الدنيا وأمانيتها الباطلة وزخرفها الزائل، وينكر على الغافلين تناسيهم بل جهلهم للنهاية التي تنتظرهم، والموت المتربص بهم.

فالعاقل من حذر الموت، وتزود للدار الأخرى بأحسن الزاد.

ولعل حركة الروي المكسور الذي اختاره الشاعر لأبياته هو مفتاح نفسه المكسورة، المتألمة المتحسرة على ما فاتها، إذ قضى عمره في اللهو والانغماس في ملذات الحياة، فيا حسرته على تلك الأيام التي مرت دون رجعة، ويا ألم نفسه وهي ترى نهايتها ونهاية كل حي.

وكما وفق الشاعر في اختيار الروي المكسور، كذلك وفق في اختيار البحر الطويل الذي تتسع حركاته وسكناته لهجوم الشاعر وأساه العميق الذي أحس به ساعة وقوفه على تلك المقابر.

وها هي الطبيعة التي أسرت قلب الشاعر ورافقتة في مسيرته الطويلة، وكانت في الأندلس ملاذ العابثين والعاشقين، استنطقوا زهرها وماءها، وأشجارها وطيورها، بثوها آمالهم وأحلامهم، وأشركوها في فرحهم وترحهم، هذه الرفيقة المحببة لم تكن بمعزل عن أولئك الشعراء الذين عرفوا طريق الهداية، فوقفوا أمام مظاهرها معتبرين متعظين.

وكان ابن خفاجة من الشعراء الذين اتخذوا الطبيعة وسيلة للهجوم وعبثهم حيناً من الدهر، بل لقد كان من بين أولئك الذين تفرغوا بمواهبهم لوصف الحدائق والجنان⁽¹⁾، وتفنن في ذلك، فأحسن وأجاد، أما في مرحلة التوبة والعودة إلى محراب ربه، فقد اتخذ الطبيعة موضوعاً للاعتبار والاستعبار، وكانت قصيدته في وصف الجبل من أحسن ما نظمته في ذلك الغرض، ومما جاء فيها قوله :

1 - حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة - حمدان حجاجي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ط2، 1982، ص225.

بعيشك هل تدري أهوجُ، 1) الجنائب، 2) *** نخبُ، 3) برحلي أم ظهورُ النَّجائبِ، 4)
 فما لحتُ في أولى المشارِقِ كوكبا *** فأشرقْتُ حتى جبتُ آخرى المغاربِ
 وَحِيدًا، 5) تهاداني الفَيَّابِي فَأَجْتَلِي، 6) *** وَجُوهَ المنايا في رِنَاعِ الغياهِبِ، 7)
 وَأرْعَنَ، 8) طَمَاحِ الذُّؤَابَةِ، 9) باذخِ *** يُطاولُ أعنانَ السماءِ بَغَارِبِ، 10)
 يسدُّ مهبَّ الرِّيحِ عن كلِّ وجهَةٍ *** ويزحمُ ليلاً شُهْبَهُ بالمناكِبِ
 وقورٍ علي ظهرِ الفلاةِ كأنه *** طِوالَ الليالي مُطَرِّقٌ في العواقبِ
 يلوثُ، 11) عليه الغيمُ سودَ عمائمِ *** لها من وميضِ البرقِ حَمْرُ ذِوَابِيهِ
 أصحْتُ إليه وهو أخرسُ صامتٌ *** فحدثني ليلُ السرى بالعجائبِ
 وقالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلَجًا فَاتِكِ، 12) *** وموطنَ أوَاهِ تبتلُ تائبِ
 وكم مرَّ بي من مُدْجِجٍ، 13) ومُؤوَّبٍ، 14) *** وقالَ، 15) بِظِلِّي مِنْ مِطْيِ وَرَاكِبِ
 ولاطمَ من نُكْبِ الرِّياحِ مَعاطِفِي *** وزاحمَ من خُضْرِ البحارِ جوانِي
 فما أخفقَ أبكي غيرَ رَجْفَةٍ أضلَعِ *** ولا نوحَ ورقي غيرَ صرخةِ نادبِ
 وما غيَّضَ السُّلوانَ دَمْعِي وإثما *** نَزَفْتُ دُموعي في فراقِ الأصاحبِ
 فحتى متى أبقى ويظعنُ، 16) صاحِبُ *** أودَّعُ منه راحلاً غيرَ آيبِ
 وحتى متى أرى الكواكبَ ساهراً *** فمِنَ طالِعِ آخرى الليالي وغاربِ
 فرحماكُ يا مولاي دعوةَ ضارِعِ *** يمدُّ إلى نِعْماك راحةَ راغِبِ، 17)

- 1 - أهوج : شجاع. 2 - الجنائب : يقال خيل جنائب : أي مقادة.
- 3 - نخب : تسرع. الخبب : ضرب من العدو يواعد فيه الفرس بين يديه ورجليه.
- 4 - النجائب : الكرمة. 5 - تهاداني : من قولهم : تهادى الرجل : إذا مشى وحده مشياً ضعيفاً متمائلاً.
- 6 - اجتلي : انظر إليها. 7 - الغياهب : ج مفرد الغيبب : الرجل الغافل الضعيف. 8 - أرعن : جبل طويل.
- 9 - الذؤابة : ج ذوايب : الشعر المصفور من شعر الرأس. 10 - بغارب : بكاهل. 11 - يلوث : يلف / يغطي.
- 12 - الفاتك : الجريء الشجاع. 13 - مدجج : سائر الليل كله أو آخره. 14 - مؤوب : راجع.
- 15 - قال : نام في القافلة. أي في منتصف النهار زمنها القيلولة. 16 - ظعن : سار ورحل.
- 17 - ديوان ابن خفاجة، ص 15 و 16.

واستعني من وشمعي كل عيرة *** ليخمد عني رسا شحرا
 فلي بما أبكى وسرى² بما شحا *** وكان على ليل السرى حير فحجب
 وقلت وقد نكيتهم³ عنه لصية *** سلام فإنا من مقب ودهب⁴.

فهاهو الشاعر قد أحسن وأبدع، إذ شخص الخيل، وأيسه حنه من بوفر، وفيه
 والحكمة، فهو المحدث الخروب، الذي جاءنا بالعذاب والغرائب، وحق مسر الحكمة
 والموعظة، غير من خلاله عن مشاعره ووصفه وتوحيده، وأباح عن مكنون نفسه
 وآلامها، وعودتها إلى ربها تائه متضرعة راجية برحمة والعطف من عبور راجية.
 وحلص إلى الحكمة التي وعظ بها نفسه والناس وهي: أن الدنيا تمر، وكك ذهب
 عنها مهما طالت إقامتنا.

هنا هو جبل ابن حفاحة، العمامد الشمع، إنه مترج، وعثر من حلال
 على أفكاره وأحاسيسه، فكان رومانسيا بحسه ومشاعره وخياله بوسع من قبل أن
 تعرف الرومانسية الغريبة.

ووقوف الشاعر أمام الجبل هو وقوف مع النفس لانتهابها ومنصافها
 وحثها على الاعتبار والتوبة إلى الله عز وجل.
 حقا إنه من الحكمة الإلهية الواضحة، أن جعلنا شأنا آيات في ككون وفي
 أنفسنا، تدل على وجوده وعظمته وقدرته، إذ أننا حينما أرمنا انصرنا تكنت من أن
 حية كمن ما فيها عرض زائل، وأنها مجرد طريق وجسر إلى النذر باقية، وفي هذا
 مبرح يقول أبو إسحاق الإبري:

يا صاح سِرُّ في الأرض كَيْمَا تَرَى *** مَا فَوْقَهَا مِنْ عَيْرٍ مَآ
 وَكَمْ بِنَا مِنْ عَيْرَةٍ تَحْتَهَا *** فِي أُمِّ صَارَتْ بِنَا مَآ⁵

1- عيرة بكسر العين: المعطة. 2- سرى، سرية: تقوى. وكشف.

3- كك: عدل وتحي.

4- ... من حدة من 117

5- ... أبي إسحاق الإبري، من 64

مِنْ مَلِكٍ مِنْهُمْ وَمِنْ سُوْقَةٍ *** حَشْرُهُمْ هَيْنًا، عَلَى اللَّهِ
 وَالْحِظُّ بِعَيْنِكَ أَدِيمًا، السَّمَاءُ *** وما يَبْهَا مِنْ حِكْمَةِ اللَّهِ
 تَرَى بِهَا الْأَفْلَاقَ دَوَّارَةً *** شَاهِدَةً بِالْمُسْلِكِ لِلَّهِ
 مَا وَقَفْتُ مُدًّا أُجْرِيَتْ لِحْمَةٌ *** أو - دُونَهَا - خَوْفًا مِنَ اللَّهِ
 وَمَا عَلَيْهَا مِنْ حِسَابٍ وَلَا *** تَخَشَى الَّذِي يُخَشَى مِنَ اللَّهِ
 وَهِيَ مَا غَابَ وَمَا قَدْ بَدَأَ *** مِنْ آيَةٍ فِي قَبْضَةِ اللَّهِ
 تُوَحَّدُ اللَّهُ عَلَى عَرْشِهِ *** فِي غَيْبِهِ قَالِ الْمُرُّ لِلَّهِ
 وَمَا تَسْمَى أَحَدًا فِي السَّمَاءِ *** وَالْأَرْضِ غَيْرُ اللَّهِ بِاللَّهِ،

فيها هو الشاعر في هذه القصيدة يرشدنا ويلفت بصرنا نحو الكون، والحياة والموت،
 ويدعونا إلى التفكير والتأمل والاعتبار، إذ أننا حيث أرسلنا البصر في ملكوت الله،
 شاهداً آياتٍ ناطقةٍ بعظمته عز وجل، ففي الأمم البائدة لنا آيات على قدرته، وهو
 القائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (4). أما إذا نظرنا إلى السماء
 فنرى آيات تذل على حكمة الله الواحد الأحد، والأفلاك السيارة خير شاهد على أن
 الله واحد أحد، وكفانا عبرة إذا علمنا أنها تسبح كلها لرب الكون وتوحده في جميع
 الأوقات.

إنها لمعان جميلة، صادرة عن حرارة الإيمان وصدق العبودية لله عز وجل،
 وكفاها سمواً أنها مستمدة من الكتاب العزيز الحكيم، وقد جاء فيه قوله تعالى :
 ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ (5)، وفي نفس المعنى قوله تعالى :
 ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ..﴾ (6).

1 - هين : سهل . 2 - أديم السماء : وجهها .

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 64.

4 - البقرة/201.

5 - الرعد/16.

6 - الحل/49 .

لذا فإن أعمال الفكر يوهل الإنسان للإيمان بالله عز وجل، إيماناً كاملاً ناتجاً عن إدراك ما يحيط به من الآيات والأدلة الدالة على حقيقة وجود الله والإقرار بوحدانيته وعظمته، ثم تقديسه وتعظيمه وعبادته، والتسييح طريقة للعبادة وصورة من صورها.

3 - التوبة والندم على المعصية :

التوبة : هي الرجوع عما كان مذموماً إلى ما هو محمود في الشرع، وطريقها الندم على ما فات، وتلك منزلة عظيمة لا يبلغها إلا عباد الله الصالحون الذين نظر إليهم الرحمن بعين الرحمة. « وإن الله عبداً نظر إليهم بالرحمة فمنهم عليهم بالتوبة، وفتح أبصار قلوبهم فتمثل قبح المعاصي في دورهم، حتى نظروا إلى سوء ما عاملوا الله به، وانكشفت لهم العاقبة عن مسكن العصاة، فبادروا بالتزوع عنها، فقوى الله عزهم وأيدهم بتوفيقه.. » (1)، وأولئك هم الذين أخصهم الله بمحبته، إذ قال جل شأنه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ﴾ (2).

وابن آدم خطاء، لذلك كان عليه أن يكثُر من الاستغفار والتضرع إلى الله في خشوع وندم، وقد كان من سنة الرسول (ص) دوام الاستغفار (3). والعامل إذن من تاب وآب وبكى ذنوبه، وأعلن حسرتة وندمه على ما سلف من تفریطه، وشروره وآثامه، وانغمسه في ملذاته واتباع هواه. والمؤمن من عرف خطأه واعترف به، وعزم على تركه وعدم معاودته وتدارك ما يمكن تداركه من الأعمال الصالحة.

ومن الشعراء الذين أدركوا نفوسهم بتدارك خطاياهم، الشاعر أبو الوليد الباجي، والذي قال معاتباً نفسه :

1 - كتاب منازل العباد من العبادة أو منازل الفاضلين إلى الله، للترمذي. تحقيق : محمد إبراهيم الجيوشي، نشر : دار النهضة العربية، ص 37، (د.ت).

2 - البقرة/220.

3 - الرسالة القشيرية في علم التصوف، للإمام عبد الكريم بن هوازن القشيري، المتوفى سنة 465. مكتبة ومط. محمد علي صبيح وأولاده. ميلان الأزهر، ص 47، (د.ت)

يا قلبُ إِمَّا تُلْهِئِي كَاذِبًا *** أَوْ صَادِقًا(1) عَنِ الْهُدَى جَائِرًا
تُشْغِلُنِي عَنْ عَمَلِ نَافِعٍ *** فِي مَوْقِفِ أَلْقَاكَ لِي ضَائِرًا(2)
أُخْرِ(3) بَانَ تَسْلِمِي نَادِمًا *** إِنَّ لِمَ أَلَقَ اللهُ لِي عَاذِرًا
وَحَاقَ(4) بِي مَا جَاءَ عَنِ رَبِّنَا *** «وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا»(5)

لقد يظلم الإنسان نفسه، ويمجد عن جادة الصواب، ولولا توبة الله عليه ورحمته به لكان من الخاسرين. والأدهى من ذلك أنه ينغمس في الملهيات ويفترق من الشهوات، لكنه عندما يحس بدنو الأجل، لا يجد أمامه بابا سوى أبواب ربه فيقف أمامها نادما باكيا مسترحما. وهذا أبو الصلت(6) يقول في لوم نفسه على كثرة إفراطها وتفريطها :

حَسْبِي فَكَمْ بَعُدْتُ فِي اللّهُوِ أَشْوَاطِي *** وَطَالَ فِي الْغَيِّ(7) إِسْرَافِي وَإِفْرَاطِي
أَنْفَقْتُ فِي اللّهُوِ عُمْرِي غَيْرَ مُزْدَجِرٍ *** وَجَدْتُ فِيهِ بِوَفْرِي غَيْرَ مَحْتَاطٍ
فَكَيْفَ أَخْلَصُ مِنْ بَحْرِ الذَّنُوبِ وَقَدْ *** غَرَقْتُ فِيهِ عَلَى بُعْدِ مِنَ الشَّاطِي
يَارَبَّ مَالِي مَا أَرْجُو رِضَاكَ بِهِ *** إِلَّا اعْتِرَافِي بِأَنِّي الْمَذْنُوبُ الْخَاطِي(8)

فمن للمذنب التائب سوى ربّ غفور رحيم، ومن رحمته تعالى أنه يبعث الأمل في النفوس القانطة، حتى وإن لم تجد شيئا تدعوه به سوى اعترافها وإقرارها بظلمها وبدنوبها، فيتلقاها بالتوبة والمغفرة سبحانه عز وجل، وهو القائل : « قَالَ : رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ، إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ »(8).

لهذا فالشاعر ابن خفاجة لا يكي نفسه، وضياع شببته في اللهو واللعب

1- صادفا: عادلا، مانلا. 2- ضائرا: ضارا. 3- أحر من حرّي: حدير وخليق. 4- حاق به: نزل به وأحاط به.

5- الذخيرة ق 2، م 1، ص 104.

6- أبو الصلت: هو أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الداني، ولد سنة 460هـ، عرف بالذكاء والفضة. وأخذ العلم عن فطاحل عصره، حتى نبغ في العلوم والفنون، من نظم ونثر، وطب، وفلك ورياضيات وموسيقى، وله ديوان شعري جمعه وحققه محمد المرزوقي. انظر نفع الطيب، مج 2، ص 308. الخريدة قسم شعراء المغرب والأندلس ص 148 (الهامش) معجم الأدباء ج 7، ص 20. عيون الأنباء ج 3، ص 86.

7- الغي: الضلال.

8- ديوان أبي الصلت، ص 115، 116.

9- الفصص/15.

فقط، بل إنه يرى البكاء والنواح أمرا يسيرا على المجرمين. وفي ذلك يقول :

كفى حُزناً أن لا وُجودَ شَيْبَةٍ *** ولا توبة تُرضي الإله نَصُوحُ
وَأَنِّي وقد أودتْ لِذَاتِي (1)، وَأَسْرَتِي *** سَاعِدُوا وَرَاءَ الْقَوْمِ أَوْ سَارُوحُ
فلم يُفْنِ نَوْحاً المنونُ بِمَرَصِدِ *** تُرَابِهِ أَنْ كَانَ عَمَرَ نَوْحُ
فَذَرَنِي أَنحَ حُزناً وَقَلَّ بِمَحْرَمِ *** تَدَانَتْ خُطَاهُ أَنْ يَكُونَ بِنُوحِ (2)

فالشاعر يبكي نفسه، ويتحسر على عمر قضاه في اللهو واللعب، وحري به أن يبكي وجدته ذهبت، وساعته اقتربت، وهو لم يدخر شيئا، فلا طاعة ولا عبادة، لقد أصبح يرى أن البكاء والنواح غير مجديين لأن ساعته اقتربت، وأجله قد حان.

وهكذا، فقد عودنا الشعراء على التوبة والندم في آخر حياتهم، بعد استفراغ طاقات الشباب في اللهو والعبث، والإقبال على الدنيا بشغف وشراسة، ولم يشذ شعراء الأندلس عن هذه العادة. ولا أقول القاعدة المطردة - التي تلفت نظر كل دارس للأدب، ولا سيما نشعر الزهد .

وابن خفاجة لم يخالف من سبقه من الشعراء، إذ سار على دربهم ولم يفكر في الإقلاع عن الشهوات، وملأذ الحياة إلا بعد أن بلغ من العمر أقصاه، ولما أحس بدنو الأجل لم يجد بدا من التوبة والاستعداد للقاء ربه، مفضلا دار النعيم والبقاء على دار الفناء (3). ومما جاء في شعره معبرا عن ندمه وتوبته قوله :

طوبى لِعَبْدٍ قَامَ خَشِيَةً رَبِّهِ *** وَاللَّيْلُ قَدْ ضَرَبَ الظَّلامَ رِوَاقًا (4)،
حَضِلَ (5)، المدامجِ خَوْفَ عَرَضَةِ مَالِكٍ *** خَضَعَ الْمَلُوكُ لَهُ بِهَا أَعْنَاقًا
وَالنَّاسُ مِنْ كَابِ (6)، هُنَاكَ وَسَابِقِ *** قَدْ أَلْزَمُوا أَعْمَاهُمْ أَطْوَقًا

1 - للاتي : أترابي.

2 - ديوان ابن خفاجة، ص 310.

3 - الذخيرة في 3، مج 2، ص 542.

4 - رواقا: الرواق: ستر يمد دون السقف. 5- حضل: بكى حتى اهتلت مدامعه/حضل مبتل. 6- كاب : تحسر.

فَحَنَّاكَ اللَّهُمَّ فِي عَبْدٍ قَدْ غَوَى *** زَمْنَا فَشَدَّ إِلَى الْفُسُوقِ نِطَاقًا
 قَلْبِي الْمَضَاجِعَ بَاتَ يَقْرَعُ سِنَهُ *** نَدْمًا وَيُرْسِلُ دَمْعُهُ إِشْفَاقًا
 سَحَبَ الشَّبِيبَةَ فِي الْغَوَايَةِ (1) ضَيْلَةً *** حَتَّى تَسْرِبَلَ (2) ثَوْبَهَا أَخْلَاقًا
 فَلَيْتَن سَطُوتَ بِهِ فَلَا ظُلْمًا لَهُ *** وَلَيْتَن صُنَعْتَ لَهُ فَلَا اسْتِحْقَاقًا (3)

فلا اعتراف بالذنب فضيلة، والبكاء على النفس وخطاياها رحمة وشفاء، فطوبى لمن
 خشي ربه، وعبده وتاب إليه؛ وحرى بنا أن ندعومع الشاعر خاشعين متضرعين :
 رحماك وحنانك وغفرانك يا أرحم الراحمين.

والشاعر المزهف الإحساس قد يقف مع نفسه موقف اللائم المعاتب،
 فيلومها على إفراطها في الغي، ويعظها ويذكرها بدنو الأجل، وقرب الساعة،
 ويزجرها ويحذرهما من الدنيا التي سلبتها قوة الشباب وجدته، ويرغبها في التوبة
 والإقلاع عن الذنوب، والرجوع إلى الله عز وجل، عله يقبل توبتها ويغفر لها زلتها.
 وفي ذلك يقول ابن حمديس مخاطبا نفسه :

وَعُظَّتْ بِلَمْتِكَ (1) الشَّابِّهِ *** وَفَقَدِ شَبِيبتِكَ الدَّاهِبَهُ
 وَسَبْعِينَ عَامًا تَرَى شَمْسَهَا *** بَعَيْنِكَ طَالِعَةً غَارِبَهُ
 فَوَيْحَكَ هَلْ عَبَّرْتَ سَاعَةً *** وَنَفْسِكَ عَنْ زَلَّةٍ رَاغِبَهُ
 فَرَعْتَ لِصَنَعِكَ مَا لَا يَقِيكَ *** كَأَنَّكَ، عَامِلَةٌ نَاصِبَهُ
 وَغَرَّتْكَ دُنْيَاكَ إِذْ فَوَّضْتَ *** إِلَيْكَ أَمَانِيهَا الْكَاذِبَهُ
 أَصَاحِبَةُ خَلْتِهَا؟ إِنِّهَا *** بِأَحْدَاثِهَا بَسَّتِ الصَّاحِبَهُ
 أَمَا سَلَبْتَ مِنْكَ بُرْدَ الشَّبَابِ *** فَهَلْ يَسْتَرِدُّ مِنَ السَّالِبِهِ (5)

1 - الغواية - بفتح (الغين) - : الانهماك في الغي والضلال. 2 - تسربل، السربال : القميص والدرع الوافي.

3 - ديوان ابن خفاجة، ص 214.

4 - بلمتك : اللمة : شعر الرأس.

5 - ديوان ابن حمديس، ص 40-41.

وَإِنَّ دَقَائِقَ سَاعَاتِهَا *** لِعُمْرِكَ أَكْلَةً شَارِبَهُ
 وَإِنَّ الْمَنِيَةَ مِنْ نَحْوِهَا *** عَلَيْكَ بِأَظْفَارِهَا وَائِبَهُ
 أَلَمْ تَرَهَا بِحِصَاةِ الرَّدَى *** لِكُلِّ حَمِيمٍ لَهَا حَاصِبُهُ (1) ؟
 كَانَ لِنَفْسِكَ مَغْطِيسًا *** غَدَّتْ لِلذَّنُوبِ بِهَا جَازِبَهُ
 فَيَا حَاضِرًا أَبَدًا ذَنْبُهُ *** وَتَوْبَتُهُ أَبَدًا غَائِبَهُ
 أَذِيبُ مِنْكَ قَلْبًا يُجَارِي بِهِ *** سَوَابِقَ عَيْرَتِكَ السَّابِكَةَ
 عَلَى كُلِّ ذَنْبٍ مَضَى فِي الصَّبَا *** وَأَتَعَبَ إِثْبَاتَهُ كَاتِبَهُ
 عَسَى اللَّهُ يَدْرَأُ (2) عَنْكَ الْعِقَابَ *** وَإِلَّا فَقَدْ ذَمَّتِ الْعَاقِبَةُ (3)

فحميل أن يحاسب المرء نفسه ويعاتبها، ويتوجه إلى ربه متضرعا راجيا مغفرته، وطالبا رحمته، دون تعليق على مشيئته تعالى، لأن ذلك يتنافى مع شريعتنا، وقد علمنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كيف يكون الطلب والدعاء فقال: « إذا دعا أحدكم فلا يقل: اللهم اغفر لي إن شئت. ولكن ليعزم المسألة وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء » (4).

إذن إذا طلب أحدنا مسألة من الله عز وجل فيستحب أن يطلبها في غير ضعف، لأنه يكره التعليق على المشيئة كما بين لنا ذلك الحديث النبوي الشريف. لذا كان على الشاعر أن يقف موقف الحازم الجازم في طلبه للمغفرة والرحمة من واسع المغفرة، ومتى كانت نيته صادقة وتوبته خالصة، فليعلم أن الله عز وجل قال: ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ ﴾ (5).

وقد تستحوذ فكرة الذنوب والخطايا على نفس المرء، فيتذكرها في كل

1 - حاصبة : الحصب : الرمي بالحجارة أي الحصباء. 2 - بدرأ : من الدرء : الدفع.

3 - ديوان ابن حمديس، ص 41.40.

4 - رواه مسلم في باب العزم بالدعاء، مج 4، ص 2063.

5 - يوسف / 87.

وقت، بل يصبح كل شيء يذكره بها، حتى هديل الحمام، مثل ما اعتقد أبو فراس(1)،
الحمداني يوما أن الحمامة المفردة على غصن الشجرة بالقرب من نافذة سجنه،
تشاطره همومه وأحزانه، وتبكي لبكائه، ثم سرعان ما اتضح له الفرق بينه وبينها،
فهي حرة طليقة بينما هو سجين مقيد الحرية.

إلا أن هذا الأسر عند أبي إسحاق، هو أسر الذنوب والخطايا الذي ملأ
نفسه حزنا وهماء، فبكى ولما سمع حمامة تبكي بالقرب منه رأى أن بكاءها غير بكائه
فخطبها قائلاً :

أحمامة البيداء(2)، أَطَلَّتِ بُكَاءِكَ *** فِإِحْسِنِ صَوْتِكَ مَا الَّذِي أَبْكَاكِ؟
إِنْ كَانَ حَقًّا مَا ظَنَنْتُ فَإِنَّ بِي *** فَوْقَ الَّذِي بَكَ مِنْ شَدِيدِ جَوَاكِ(3)،
إِنِّي أَظُنُّكَ قَدْ دَهَيْتِ بِفِرْقَةٍ *** مِنْ مُؤْنِسٍ لَكَ فَارْتَمَضْتِ(4)، لِدَاكِ
لَكِنَّ مَا أَشْكُوهُ مِنْ فَرْطِ الْجَوَى *** بِخِلَافِ مَا تَجِدِينَ مِنْ شَكْوَاكِ
أَنَا إِنَّمَا أَبْكِي الذُّنُوبَ وَأَسْرَهَا *** وَمُنَايَ فِي الشَّكْوَى مَنَالُ فَكَاكِي
وَإِذَا بَكَيْتُ سَأَلْتُ رَبِّي رَحْمَةً *** وَتَجَاوَزًا فُبُكَائِي غَيْرُ بُكََاكِ(5).

فالشاعر يبكي ذنوبه، ويسأل ربه الرحمة والمغفرة، وألم وحرقة الحزن للشعور بالذنب
أنكى وأشد على النفس من حرقة فراق المؤنس أو حرقة الرمل والشمس.

وإذا كانت الحمامة ذكرت الشاعر بهمومه وأحزانه، فبكى ذنوبه وتضرع

إلى الله طالبا المغفرة، فإن غيره من الشعراء نعوأ على نفوسهم غفلتها وطموها، التي

1 - أبو فراس الحمداني : هو الحارث بن سعيد بن حمدان الحمدوني ولد في الموصل عام 320هـ. ابن عم
سيف الدولة، أمير حلب، كان شاعرا وكاتبا وفارسا. وحارب الروم، وأسر في إحدى الوقائع معهم، وطال
أسره وتأخر سيف الدولة في مفاداته، ونظم في أسره أروع الأشعار وأرقها، وإن كان في شعره كله يمتاز
بالرقة والجودة والسهولة. توفي عام 357هـ.

2 - البيداء : وهو اسم ممدود أصله : « البيداء » وقصره الشاعر لضرورة الشعرية والبيداء هي الصحراء،

وتجمع : بيد. 3 - جواك : الجوى : الحرقة وشدة الوجد من الحزن.

4 - ارتمضت : من الرمش : شدة وقع الشمس على الرمل وغيره. وأرمضته الرمشاء : أحرقت.

5 - ديوان أبي إسحاق الإلبوري، ص35.

أنستهم ربهم فأنساهم نفوسهم، وأسلمهم لغيرهم وجهلهم، فانغمسوا في الملذات، التي خذرت عقولهم وألفت فكرهم، فمن لهؤلاء غير رب غفور رحيم.

وفي هذا المعنى يقول أمية بن أبي الصلت :

ما أغفل المرءُ وألهاهُ *** يعصِي ولا يذُكرُ مؤلَاهُ
يأمرُ بالغيِّ شيطانُهُ *** والعقلُ - لو يرشدُ ينهَاهُ
عزَّةُ دُنياهُ فلم يَسْتَفِقْ *** من سكرها يوماً لأخراهُ
يا ويحُّ المسكينُ يا ويحُّ *** إن يكن يرحمهُ اللهُ

إن في هذه الآيات تنبيه وتحذير من الغفلة، والانغماس في اللهو والمعاصي، وما أكثر غفلة الإنسان وجهله، يقترف الآثام ويخطيء متعمداً أو بلا عمد. وتنبهه هنا ضروري ليعلم أن رحمة ربه واسعة، تشمل عباده المخلصين الذين إذا أذنبوا عادوا إلى ربهم تائبين، مستغفرين نادمين فغفرهم. قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إن الله يَسْطُرُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ، لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسْطُرُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » (2).

ومن الغفلة أيضاً أن يفتخر الإنسان بدنياه، وقوته وصباه، فيقبل على الحياة وملذاتها، وينسى أن الشرور قبيحة، والخطايا والذنوب تخرب الروح وتركها جافة، لذا عليه أن يسارع بالتوبة، والرجوع إلى الله عز وجل، فيسأله من فضله العميم، لأنه لا نجاة له إلا إذا عاد إلى ربه، وأطاعه، وأقام الليل تقرباً وتعبدًا، دعاه قانتاً مخلصاً، وتجنب الذنوب. وفي ذلك يقول أبو إسحاق الإلبيري في قصيدة طويلة بلغت خمسين بيتاً (50)، وقافيتها جميعاً لفظة «الله» منها :

1 - ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 157.

2 - صحيح مسلم، مج 4، ص 2113.

يا أيها المغترُّ باللهِ *** فرَّ من الله إلى الله
 ولذُّ به واسأله من فضله *** فقد نجأ من لاذَّ باللهِ
 وقم له والليل في جنحه *** فحجداً من قام باللهِ
 وآتل من الوحي وكوآية *** تكسى بها نوراً من الله
 وعفراً⁽¹⁾ الوجه له ساجداً *** فعزَّ وجهه ذلَّ لله
 فما نعيم كمناجاته *** لقانيت يخلص لله
 وأبعد عن الذنب ولا تاته *** فبعده قرب من الله⁽²⁾

وهكذا نرى الشاعر يرغب في التوبة، وينصح بالعبادة، معتمداً في ذلك على ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من معان وأفكار. فالدعوة إلى قيام الليل جاءت في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾⁽³⁾. وإن ما يظفي على القصيدة حلاوة وطلاوة هو أنها تخاطب فينا العقل أولاً، ولذلك نرى الشاعر قد اعتمد على أسلوب التوكيد والتعليل للإقناع.

وبناء القصيدة على قافية واحدة وهي لفظة الجلالة «الله» أضفى عليها جواً من الخشوع والإذعان، إذ تحس عند قراءتك للقصيدة وترديد آياتها كأنك في محراب تدعو الله العزيز الحكيم، وتسبحه راجياً عفوه ومغفرته.

ومن الحكمة أن يلتفت الإنسان إلى نفسه، فيحاسبها ويصلح من شأنها قبل قوات الأوان، وقبل أن يرى نذير الموت، لأنه عندها سيصبح في موضع السخرية والازدراء والذم، خاصة إذا أصر على غيه وعصيانه، وأعرض عن نذير الشيب، وانغمس في الفجور، غافلاً عن رحيله القريب، ومصيره الخطير. وهذه الفكرة شائعة ومطروقة بكثرة في شعرنا العربي. وكثيراً ما ألحت على شاعر كأبي إسحاق الإلبيري:

1 - عفر : من العفر والعفر : ظاهر الزب، عفر وجهه بالتراب : مرغه. والمقصود هنا اسجد على التراب

كثيراً حتى يتعفر وجهك به.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 63.

3 - الزمئل/1.

بل كادت أن تسيطر على شعره الزهدي، فرددها كثيرا، ومن بين ما قاله في ذم الشيخ المتصابي :

ما أقبَحَ الشَّيْخَ إِذَا مَا صَبَا *** وَعَاقَةُ الْجَهْلُ عَنِ اللَّهِ
وَهُوَ مِنَ الْعُمْرِ عَلَى بَازِلٍ (1) *** يَحْمِلُهُ حَتَّى إِلَى اللَّهِ
هَلَا إِذَا أَشْفَى (2) رَأَى شَيْئَهُ *** يَنْعَاهُ فَاسْتَحْيَ مِنَ اللَّهِ
كَأَنَّمَا رَيْنَ (3) عَلَى قَلْبِهِ *** فَصَارَ مَحْجُوبًا عَنِ اللَّهِ
وَمَا يُعْذِرُ الْجَاهِلُ فِي جَهْلِهِ *** فَضْلًا عَنِ الْعَالِمِ بِاللَّهِ (4)

وقد يخاطب أبو إسحاق الشيخ المتصابي بسخرية فيقول :

الشَّيْبُ نَبْهٌ ذَا النُّهَى (5) فَتَنَّبَهَا *** وَتَهَى الْجَهْلُ فَمَا اسْتَفَاقَ وَلَا انْتَهَى (6)
وهكذا فالشاعر يوجه الخطاب إلى نفسه، ويدعوها إلى الاستقامة، ويحذرها من التهافت على الدنيا، وينذرها من سوء العاقبة، والموت الذي يأتي بغتة ودون سابق إنذار.

وكثيرا ما تردّد موضوع ذمّ الشيخ المتصابي في شعر أبي إسحاق الإلبيري، ولعل ذلك مرتبط بنفسية الشاعر، الذي لم يتب إلا بعد أن اعتلاه الشيب، وها هو يمهّد بهذا الموضوع لقصيدة نظمها في مدح القاضي ابن توبة (7)، والذي كان شاعرنا كاتبًا له حينًا من الدهر.

وهو في استهلاله لقصيدة المديح بهذا الموضوع، قد استعاض به عن شعر النسيب الذي عودنا الشعراء على استفتاح القصائد به. ومما جاء في ذلك قوله :

1 - بازل : رجل بازل تشبيهه له بالبعير الطاعن في السن. 2 - أشفى : برأ من السقم.

3 - رين على قلبه : غطى. ران من الرين : الصداً ونحوه مما يغلب ويفشى.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 65.

5 - النهى : العقل.

6 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 46.

7 - ابن توبة : علي بن محمد بن توبة أبو الحسن، توفي سنة 445هـ، ولي القضاء لباديس بن حبوس.

ما عناءُ الكبيرِ بالحسناءِ *** وهو مثلُ الحبابِ (1)، فوقَ الماءِ
 يتصابى ولأتَ حينَ تصابٍ *** يعيونُ المهاَ وسرِبَ الطِّباءِ
 ولعمرِي لما نُحِبُّ فتاةً *** يفنا (2)، لو غداً من الخلفاءِ
 ونحِبُّ الفنى الرقيقَ الحواشي *** حبَّ ذي الجذبِ صادقِ الأنواءِ
 * * * *

فمنَ الرأى أن تكونَ جباناً *** سامرياً (3)، يدينُ بالأنزواءِ
 عجباً كم رأيتُ مالاَ مصوناً *** وفؤادا نهياً بأيدي النساءِ
 وإذا حازمٌ على المالِ أبقى *** فقواه أحقُّ بالإبقاءِ
 فتساوى الرجالُ في مثلِ هذا *** فالجانينُ فيه كالعقلاءِ
 أي خيّر لوالدي في بنيه *** وهو عنهم يفرُّ يومَ الجزاءِ
 والتقى المتوفى البتر منهم *** عدم كالسماعِ بالعنقاء (4)،
 * * * *

وازدرى بالشيوخِ واعترضَ الدأ *** ماء (5)، جهلاً بنفشه الرقاء (6)،
 ذنبُ أبتَرَدَ لعمرِكَ خسرٌ *** من طويلٍ يجرُّ في الأقداء (7)،
 ومن الغبنِ هجرُ دارِ خلودٍ *** وبقاء، ووصلُ دارِ الفناءِ
 واشتغالٌ يفرتنى وبلبني *** ويدعدُّ عن خطبةِ الحوراء (8)،

فالشاعر في هذه القصيدة عبر بوضوح عن جانب من جوانب شخصيته، وكشف

- 1 - الحباب : نفخاته وحقايقه التي تطفو فوقه. 2 - يفنا : شيئا كبيرا.
- 3 - السامري : هو ضال مضل، منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لهم السامرة، وكان منافقا قد أظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر. أضل قوم موسى عند غيابه، وقد عوقب في الدنيا بعدم مخالطة الناس وحرم عليهم ملاقاته ومخالطته ومكالمته، وألأ يماس الناس ولا يمسوه إلى يوم القيامة. (تفسير الكشاف، مج4، ص43.42).
- 4 - العنقاء : أكمة فوق جبل مشرف. 5 - الدأماء : البحر، على وزن فعلاء. والدأ ما غطاك من شيء.
- 6 - الرقاء : صاحب رقى، والرقية : العوذة. 7 - الأقداء : النزاب المدقق.
- 8 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص81.79.

القناع عن نفسيته، فهو لم يتسل عن رغبات الشباب إلا بعد أن ولت عنه قوته وشبابه.

فإعراضه عن الحسب في شيخوخته يعود إلى عجزه البدني لا إلى اقتناع زهدي، لذلك فهو يسخر من الشيخ المتصابي ويدعوه إلى الابتعاد عن الملذات وأولها المرأة. وقد يلاحظ على الشاعر هنا تطرف ووقاحة لم نعهدهما عند شعراء الزهد من قبل، إلا أن هذا الأسلوب الجريء الصريح عبر عما يعجز غيره عن البوح به خشية وتحرجاً، وليس خوفاً وورعاً، لذا فالشاعر رغم هذا الأسلوب الحرج، الذي فيه كثير من الوقاحة، فقد أبان عن نفسه، وعن كثير من النفوس التي يتغلب عليها الضعف البشري وتنزل في مهاوي الشيطان، فهو إذن صادق العواطف والشاعر. وقد وفق في كثير من المعاني، فمن دعوة إلى الاستعداد للدار الأخرى، دار الخلود والبقاء، إلى نصح بالترفع عن الدنيا وزخرفها. وقد اقتبس كثيراً من المعاني من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فمثلاً قوله :

أي خير لو ألد في بنيه *** وهو يفر منهم يوم الجزاء (1)
مقتبس من قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاحَّةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ (2).

وفي موضع آخر يتعجب من الشيخ المتصابي الغافل عما ينتظره، الناسي موعد الرحيل المتربص به، ويرى أن منظره أفبح منظر، لذا فهو يفضل الشيخ الذي يزينه لباس التقوى فيقول :

يا عَجَبًا مِنْ غُفْلِي بَعْدَ أَنْ *** نَادَانِي الشَّيْبُ الْأَفْرَحْلَنُ!
وَأَدْرِكِ الْفَائِتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ *** يُفْحَاكَ الْمَوْتُ فَلَا تُنْظَرُنْ
أَفْبَحُ مِنْ تَرْمُقِهِ مُقْلَةً *** مُبْصِرَةً، شَيْخُ خَلِيعِ الرَّسَنِ (3)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 81.

2 - عبس/من 33 - 37.

3 - خليع الرسن : خليع : بين الخلاعة/مستهتر/ الرسن هو الحبل. خليع الرسن : ليس له ما يتنعه.

تَقَادَهُ الدَّهْرُ دَوَاعِي الهَوَى *** إلى الصَّبَا مِثْلَ اقْتِيَادِ البُدْنِ (1)
يَأْمَلُ آمَالَ فَتَى يَافِيعٍ *** كَأَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْخٍ يَفْسَنُ (2)
لَيْسَ جَمَالُ الشَّيْخِ إِلَّا التَّقَى *** وَالْحَوَى لِلسُّوءِ بِفِعْلِ حَسَنٍ (3)

فالشيب نذير شوم، يعلن عن الرحيل القريب، لذلك كان على الإنسان أن يسارع إلى العمل، ويتزود من الحياة ببحر الزاد قبل مباغته الموت له، كما يرى أن الشيخوخة هي سن التقوى والعمل الصالح، وقبيح بالشيخ أن يرى متصايا تتجاذبه آمال الشباب وأمانى الصبا.

ولقد كانت الشيخوخة هي الزاجر الواعظ لأبي إسحاق الإلبيري، فهو دائما يردد الفكرة نفسها وفي مواضع شتى، وقد تطرق إلى هذا الموضوع في رثائه لزوجته، إذ يقول :

مَنْ جَاوَزَ السَّنِينَ لَمْ يَجْمَلْ بِهِ *** شُغْلٌ بِجَمَلِ الرَّبَابِ (4) وَغَادِرٌ
بَلْ شُغْلُهُ فِي زَادِهِ لِمَعَادِهِ *** فَالزَّادُ أَكْدُ شُغْلِ كُلِّ مُسَافِرٍ
وَالشَّيْخُ لَيْسَ قُصَارُهُ إِلَّا التَّقَى *** لِأَنَّ يَهِيمَ صَبَابَةٍ بِجَادِرٍ
نَفَرَتْ طِبَاعُ الغَيْدِ عَنْهُ كَرَاهَةً *** وَمِنْ العِنَاءِ عِلَاقَةٌ بِمُنَافِرٍ
هَلْ يَلْتَقِي قِرْنٌ بِقِرْنٍ فِي الوَعَى *** إِلَّا بِأَزْرَقٍ (5) أَوْ بَعْضِبٍ (6) بَاتِرٍ
وَإِذَا تَقَحَّمْ أَعْزَلٌ فِي مَازِقٍ *** كَانَ الأَسِيرَ وَلَمْ يَكُنْ بِالأَسِيرِ
مَا يَشْتَهِي نَهْدًا وَلِحْظًا فَاتِرًا *** إِلَّا الخَلِيَّ فِي زَمَانٍ فَاتِرِ
حَسْبِي كِتَابُ اللَّهِ فَهُوَ تَنْعَمِي *** وَتَأْنِسِي فِي وَحْشِي بِدَفَاتِرِي
أَفْتَضُّ أَبْكَارًا بِهَا يُغْسِلُنَ مَنْ *** يَفْتَضُّهُنَّ بِكُلِّ مَعْنَى طَاهِرِ
وَإِذَا أَرَدْتُ نَزَاهَةً طَالَعْتُهَا *** فَاجْهَلُ مِنْهَا فِي أُنْبُقِ زَاهِرِ

1 - البدن : السمن والاكتناز. 2 - يفسن : كبير في السن.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 95.

4 - الرباب : من أسماء المرأة، تردد كثيرا في شعر العزل فدلتها. 5 - الأزرق : السنان. 6 - العضب : السيف القاطع.

وَأَرَى بِهَا نَهْجَ الْهُدَايَةِ وَاضِحًا *** يَنْجُو بِهِ مَنْ لَيْسَ عَنْهُ بِجَائِرٍ
 قَدْ أَنْ لِي أَنْ أَسْتَفِيقَ وَأَزْعُوِي *** لَوْ أَنَّي مِمَّنْ نَصَحَ بِصَائِرِي
 فَلَكُمْ أَرْوَحُ وَأَعْتَدِي فِي غَمْرَةٍ *** مُتَرَدِّدًا فِيهَا كَمِثْلِ الْحَائِرِ
 وَأَرَى شَبَابِي ظَاعِنًا فِي عَسْكَرٍ *** عَنِي وَشَيْءٍ وَافِدًا بِعَسَاكِرِ (1)

فالشاعر يدعو إلى التقوى والإيمان، وقراءة القرآن الكريم، لأن قراءته كانت على المؤمنين فرضاً مكتوباً، لقوله عز وجل : ﴿ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (2). وهو السبيل إلى العلم الذي ينير العقول ويهدي إلى الصراط المستقيم، وجدير بالإنسان أن يرعوي قبل فوات الأوان. وإن من صحت بصيرته هو الذي يعبد ربه، ويصدق بأوامره، وينتهي عن نواهيه في سره وعلايته، ويأخذ بتعاليم دينه منذ نعومة أظفاره. وقد حفلت القصيدة بالصور البيانية والمحسنات البديعية المختلفة فحاءت كحديقة غناء اختلفت ألوانها وتعددت أنواع الجمال فيها، وأفصحت عن مكنونها.

وإذا كان الإلبيري من بين شعراء الزهد، الذين استطاعوا التعبير عن الضعف البشري إزاء مغريات الحياة، وعلى رأسها الشهوة العارمة، التي لا يستطيع المرء التخلص منها حتى إذا بلغ من السن حد الضعف والعجز، فإنه يشاركه في التصريح بذلك الإحساس وتلك المعاناة، وصراع شهوات النفس، والشيخوخة، الشاعر ابن حمديس إذ يقول :

أَرَى الشَّيْخَ يَكْرَهُ فِي نَفْسِهِ *** مَشِيئًا أَفَاضَ عَلَيْهِ النَّهَارَ
 وَضَعْفًا يَهْدُّ قُوَى جِسْمِهِ *** وَيَنْقُلُ مِنْهُ حُطَاهُ قِصَارًا
 فَكَيْفَ يُحْشِمُهَا طِفْلَةً *** يَطِيرُ بِهَا الْقَلْبُ عَنْهُ نَفَارًا
 وَعَارًا عَلَى الشَّيْخِ تَقْرِيئُهُ *** فَتَاءُ تَرَى قُرْبَةً مِنْهُ عَارًا
 وَقَدْ جَبَلَ الْغَانِيَاتُ الصَّغَارُ *** عَلَى بُغْضِهِنَّ الشُّيُوخَ الْكِبَارَ (3)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 75-76.

2 - المزمّل/3.

3 - ديوان ابن حمديس، ص 266.

فالشاعر يقف من الشيخ الذي لا زال يهيم بالفناني، موقف سخرية وازدراء، عنه
يرعوي ويتوب إلى ربه، ويتعظ بشيئه.

ومن التوبة أيضا بكاء الذنوب، ورناء النفس، ولقد وقف الشعراء موقف
المرثي لنفوسهم، فبكوا الذنوب، ودعوا الله راجين الرحمة والمغفرة. ومن الذين وقفوا
موقف الرائي المعزي لأنفسهم أبو إسحاق الإلبيري، الذي برع في تصوير هذا
الموقف، واستنطاق الصورة. ومما قاله في رثاء نفسه هذه القصيدة التي تذوب رقة
وحزنا:

كَأَنِّي بِنَفْسِي وَهَمِي فِي السَّكْرَاتِ *** تَعَالَجُ أَنْ تُرْقَى إِلَى اللَّهَوَاتِ

* * * *

وَمَا شَجَانِي وَالشُّجُونُ كَثِيرَةٌ *** ذُنُوبٌ عِظَامٌ أَسْبَلْتُ عِبْرَاتِي
وَأَقْلَقَنِي أَنِّي أَمُوتُ مُفْرَطًا *** عَلَى أَنِّي خَلَفْتُ بَعْدُ لِدَاتِي
وَأَغْفَلْتُ أَمْرِي بَعْدَهُمْ مُتَبَطِّطًا⁽²⁾ *** فَيَا عَجَبًا صَنِي وَمِنْ غَفْلَاتِي
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو جَهْلَ نَفْسِي فَإِنَّهَا *** تَمِيلُ إِلَى الرَّاحَاتِ وَالشَّهَوَاتِ
فَيَا إِخْوَتِي مَهْمَا شَهِدْتُمْ جَنَازَتِي *** فَتَقُومُوا لِزَيِّي وَاسْأَلُوهُ بِحَايِي
وَجِدُّوا ابْتِهَالًا فِي الدَّعَاءِ وَأَخْلِصُوا *** لَعَلَّ إِلَهِي يَقْبَلُ الدَّعَاوَاتِ
وَقُولُوا جَمِيلًا إِنْ عَلِمْتُمْ خِلَافَهُ *** وَأَغْضُوا عَلَيَّ مَا كَانَ مِنْ هَفَوَاتِي
وَلَا تَصِفُونِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ *** فَاشْقَى وَحَلُونِي بِخَيْرِ صِفَاتِ
وَلَا تَتَأَسُّوْنِي فَقَدْمًا ذَكَرْتُكُمْ *** وَوَأَصَلِّكُمْ بِالْبَرِّ طَوْلَ حَيَاتِي
وَبِالرَّغْمِ فَارَقْتُ الْأَجْبَةَ مِنْكُمْ *** وَلَمَّا تَفَارَقْتَنِي بِكُمْ زَفَرَاتِي⁽³⁾

1 - ديوان ابن حمديس، ص 266.

2 - متبطًا: مشغلا.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 5251 و 555.

فهذه القصيدة تنطق بالحزن والأسى، وتعبر عن الألم والمرارة التي يحسها الإنسان عند دنو أجله. وأما ابن حمديس فيتحسر على أيامه، وعمره الذي قضاه في اللهو، واقتراف الآثام والشرور، لذلك فهو يبكي تلك الأيام بحزن وأسى، عسى الله أن يغفر له، فيقول :

أبيعُ من الأيامِ عُمرِي وأشترِي *** ذُنُوبًا كَأَنِّي حِينَ أَحْسَرُ أُرْبِعُ
فَهَلَّا أَذْبَتُ الْقَلْبَ مِنْ حُرَاقِ الْأَسَى *** وَصَيَّرْتَهُ دَمْعًا مِنَ الْحَزَنِ يُسْفَحُ
وَأَتَى فِي عُنُقِي الشَّبَابِ عُقُوبَةً *** أَسْرُبُ بِهَا - بِسَمِّ السَّرُورِ - وَأَفْرَحُ (1)

وفي قطعة أخرى يلوم نفسه، ويحذرهما من سوء العاقبة، ويرجو رحمة ربه، فيقول :

إِلَى كَمِّ أَرَانِي فِي هَوَى النَّفْسِ خَائِضًا *** وَلَمْ أَتَيِ الْإِغْرَاقَ مِنْهَا عَلَى نَفْسِي
وَقَدْ شَمَلْتَنِي شَيْبَةٌ لَمْ أَبْتُ بِهَا *** فَمَالِي فِي لَيْلِي وَقَدْ طَلَعَتْ شَمْسِي
عَرَسْتُ بِكَيْفِي الْمَعَاصِي جَاهِدًا *** وَلَا شَكَّ أَنِّي أَحْتَجِي لَمَرَّ الْغُرْسِ
إِلَى اللَّهِ أَشْكُو جُمْلَةً أُرْتَدِي بِهَا *** وَأَصْبَحُ مِنْهَا فِي الذُّنُوبِ كَمَا أُمْسِي
فِيأُ وَحَشْنِي مِنْ سُوءِ مَا قَدَّمْتُ بِيَدِي *** إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي الْقَبْرِ مِنْ رَحْمَةِ أَنْسِي (2)

ويتضح لنا بعد عرض هذه الأشعار، أن بكاء الذنوب والتلوم النفسي من المواضيع التي كثر طرفها من قبل شعراء الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، وذلك راجع إلى أنها نظمت في السنوات الأخيرة من حياتهم، وأن معظم هؤلاء الشعراء لم يخالف من سبقوه من الشعراء الذين نظموا في هذا الغرض (غرض الزهد)، إذ ساروا على نهجهم، في كونهم لم يفكروا في الإقلاع عن الشهوات والملاذ الدنياوية إلا بعد أن شعروا بدنو الأجل، وععبء السنين، وعندما تابوا إلى رشدهم وربهم وجلبوا نفوسهم مثقلة بالذنوب والخطايا، فلم يجدوا بدا من بكائها فتوجهوا إلى

1 - ديوان ابن حمديس، ص 107.

2 - المصدر نفسه، ص 281.

الله عز وجل طالبين الرحمة والمغفرة، ومن هنا نجد إحساسهم صادقاً، وعواطفهم
جياشة، فكلهم يريد التوبة ويرجو المغفرة، والمؤمن تهفو نفسه دائماً إلى رحمة ربه
ورضوانه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ثانيا : التحذير من الدنيا وفتنها :

لقد ساهمت في ظهور شعر الزهد في القرن الخامس بالأندلس مؤثرات تاريخية، وسياسية واجتماعية وفكرية، ومنازع ذاتية. وكان للدين الإسلامي دور فعال وبارز في صوغ هذه التجربة الحيوية، المعيرة عما يخالج في وجدان الإنسان من مشاعر الرغبة والرغبة والأمل والرجاء. وبما أن القرآن الكريم يأبى الانحراف لأتباعه، فإنه دعاهم إلى الاستعلاء على كل المغريات الدنيوية، والترفع عن كل ما من شأنه أن يحط من قيمتهم، أو ينزلق بإنسانيتهم وكرامتهم، فتهدى إلى الدرك الأسفل. لذا نجد العديد من الآيات الكريمة، التي تدعو إلى نبذ الحياة، وتصرف الناس عنها إلى الآخرة، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرًا كَثِيرًا ۖ وَتَنْزِيلُ الْكِتَابِ نِعْمَ الْفَيْضُ الَّذِي أَنْزَلْنَا لِلرِّسَالِ ۗ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (1) وقال جل شأنه في سورة أخرى : ﴿ إِنْ تَرَىٰ أَكْثَر النَّاسِ فَسَادًا فَاعْتَدِ لِلرَّحْمَةِ إِذَا دُخِلَ عَلَيْهِمْ الْقُبُورُ ۚ فَهَٰذَا يَوْمَ يَأْتِيكُمُ الْمَوْتُ أَتَىٰ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (2) وتبلغ بنا الآيات الكريمة الذروة في التفسير من الدنيا في قوله تعالى : ﴿ ... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ (3). لذا كانت غاية الأنبياء والرسل ومن عمل بدعوتهم، التفسير من الدنيا، والحث على العمل الصالح. فهذا نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم يقول : « الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ » (4). يعلمنا ذلك لتجنب كل الشهوات، ونقبل على الطاعات ونصير على أدائها رجاء وأملا فيما وعدنا به الله من نعيم دائم يوم القيامة. لذا أقبل شعراء الزهد على هذا الموضوع، لعلمهم بحقارة الدنيا وزيفها، فرغبوا في الآخرة، وحذروا من الدنيا وفتنها. وقد أحسن شعراء القرن الخامس - في الأندلس - التعبير عن ذلك، فحذرت معظم معانيهم للتعبير عن مرارتهم من الحياة، التي عرکوها وعركتهم، وانغمسوا في ملذاتها حيناً من الزمن، لكن عندما استفاقوا من غفلتهم وجدوها على

1 - محمد/37.

2 - الحديد/19.

3 - السورة والآية نفسها.

4 - صحيح مسلم، مج4، ص2272.

الصورة التي رسمها لها رسول الله صلى الله عليه وسلم محذرا وناهيا في قوله : « إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ مَحْضِرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَحْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ »(1).

ومن هنا كانت الدعوة إلى الزهد في الدنيا من المواضيع التي حملها إليهم لئمانهم، ورغبتهم في الآخرة ونعيمها، فكثرت شعرهم في ذم الدنيا، والدعوة إلى الإعراض عنها، والترغيب في الدار الآخرة.

وسواء أكانوا صادقين في زهدهم أم لا، إلا أن ما بين أيدينا من شعرهم يعبر بجملة عن تلك المعاني، بألفاظ رقيقة عذبة تشد القارئ، وتستهوئ السامع، وقد اتخذوا لذلك وسائل شتى وطرق مختلفة منها :

1 - ذم الدنيا وإظهار حقيقتها :

ومن بين الشعراء الذين أكثروا من ذم الدنيا، وإظهار حقارتها، شاعر الزهد في الأندلس بلا منازع : أبو إسحاق الإلبيري، ومن نظمه في ذلك قوله :

مَنْ لَيْسَ بِالْبَاكِي وَلَا الْمَتْبَاكِي *** لِقَيْحِ مَا يَأْتِي فَلَيْسَ بِزَاكٍ(2)
 نَادَتْ بِي الدُّنْيَا فَقَلَّتْ لَهَا : أَقْصِرِي(3) *** مَا عُدُّ فِي الْأَكْيَاسِ مَنْ لَبَّاكٍ
 وَمَا صَفَا عِنْدَ الْإِلَهِ وَلَا دَنَا *** مِنْهُ أَمْرٌ وَصَافَاكَ أَوْ دَانَاكَ
 وَمَا زَلَّتِ خَادِعَتِي بِبَرْقِ خُلْبٍ *** وَلَوْ اهْتَدَيْتُ لَمَا انْخَدَعْتُ لِذَاكَ
 قَالَتْ : أَعْرَكَ مِنْ جَنَاحِكَ طُولُهُ *** وَكَأَنَّ بَعْدَهُ قُصْرٌ فِي أَشْرَاكِي
 تَأَلَّفَ مَا فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ رَاحَةٍ *** إِلَّا وَقَدْ نَصَبْتُ عَلَيْهِ شِبَاكِي
 طَرَهُ كَيْفَ شِئْتَ فَأَنْتَ فِيهَا وَاقِعٌ *** عَانَ(4) بِهَا لَا يُرْجَى لِفَكَكَ
 مَنْ كَانَ يَصْرَعُ قِرْنَهُ فِي مَعْرَكٍ *** فَعَلَى صَرَغَتِهِ بَغِيرَ عِيْرَاكَ
 مَا أَعْرِفُ الْعَضْبَ(5) الصَّقِيلَ وَلَا الْقَنَأَ *** وَلَقَدْ بَطَشْتُ بِذِي السَّلَاحِ الشَّكَاكِي

1 - صحيح مسلم، مج4، ص2098.

2 - زاك : طاهر من الذنوب. 3 - أقصرى : كفى. 4 - عان : متعب، نصب.

5 - العضب : السيف القاطع.

كَمْ ضَيْغَمٍ (1) عَفْرَتُهُ بِعَرِينِهِ *** وَلَكُمْ فَتَكْتُ بِأَفْتِكِ الْفَتَاكِ
فَأَجْمَبْتَهَا مُتَعَجِّبًا مِنْ غَدْرِهَا: *** أَجْرَيْتِ بِالْبَغْضَاءِ مَنْ يَهْوَاكِ (2)؟!!

فالشاعر في هذه القصيدة ذم الدنيا، وحاول إظهارها على حقيقتها البشعة، فهي دائما تغدر بمن أحبها وسكن إليها، وهذه صورة مستمدة من القرآن الكريم، إذ جاء فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (3).

ورغم غدر الدنيا بمحبيها، فإن الإنسان لغفلته ينحذب نحوها بقوة، كما تنحذب المواد والأجسام نحو بعضها انجذابا مغناطيسيا. لذا فالشاعر يذمها ويدعو إلى مخالفتها ونبذها، فيقول أبو إسحاق الإلبيري:

لَأَجَلْتُ عَيْنِي فِي بَيْتِكَ فَكُلَّهُمْ *** أَشْرَاكِ أَوْ جَرَحَاكِ أَوْ صَرَعاكِ!
لو قَارَضُوكِ (4) عَلَى صَنِيعِكَ فِيهِمْ *** قَطَعُوا مَدَى أَعْمَارِهِمْ بِقِلَاكِ (5)
طَمِئَسَتْ عُقُوقُهُمْ وَنُورُ قُلُوبِهِمْ *** فَتَهَافَتُوا جِرْصًا عَلَى حَلْوَاكِ
فَكَانَتْهُمْ مِثْلُ الذُّبَابِ تَسَاقَطَتْ *** فِي الْأَرْيِ (6) حَتَّى اسْتَوْصِلُوا بِهَلَاكِ
لَا كُنْتُ مِنْ أُمَّ لَنَا أَكَالَةَ *** بَعْدَ الْوِلَادَةِ مَا أَقَلَّ حَيَاكِ!
ولقد عَهَدْنَا الْأُمَّ تَلَطَّفُ بِابْنِهَا *** عَطْفًا عَلَيْهِ وَأَنْتِ مَا أَقْسَاكِ!
ما فَوْقَ ظَهْرِكَ قَاطِنٌ أَوْ ظَاعِنٌ *** إِلَّا سِيْهَشُمُ فِي نِفَالِ رَحَاكِ
أَنْتِ السَّرَابُ وَأَنْتِ دَاءٌ كَامِنٌ *** بَيْنَ الضُّلُوعِ فَمَا أَعَزَّ دَوَاكِ
يُعْصَى الْإِلَهُ إِذَا أُطِعَتْ وَطَاعَتِي *** لِلَّهِ رَبِّي أَنْ أَشَقَّ عَصَاكِ
فَرَضَ عَلَيْنَا بَرْنَا أَمَانَا *** وَعُقُوقَهُنَّ مَحْرَمٌ إِلَّاكِ
ما إِنْ يَبْدُومُ الْفَقْرُ فَيْكِ وَلَا الْغِنَى *** سَيَّانَ فَفَرُّكِ عِنْدَنَا وَغَنَاكِ (7)

1- الضيفم : الأسد.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 36.

3- الحديد/ 19..

4 - قارضوك : ذموك. 5 - فلاك : بغضك. 6 - الأري : العسل.

7 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 37.

فها هو الشاعر يرهبنا من الدنيا، بالكشف عن وجهها الحقيقي فهي متقلبة تغدر بأصحابها الذين يدعون لها، أولئك الذين طمست عقولهم فتهافتوا على زخرفها وفي ذلك هلاكهم، فما أحقرها وأبشع صورتها، فهي كالأم التي تغدر بأبنائها وتأكلهم بعد ولادتهم.

فما أبشع الدنيا وأفظعها، إنها كالرحى تطحن الناس طحنا قويهم وضعيفهم، فقيرهم وغنيهم، وإن فكرة الزوال والفناء التي تؤول إليها الدنيا تتجلى من خلال قول الإلبيري :

أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأُلَى وَرِيَّاشُهُمْ *** قد بَاشَرُوا بَعْدَ الْحَرِيرِ ثَرَاكَ
 وَلَطَالَمَا رُدُّوا بِأَرْدِيَةِ الْبِهَاءِ(1) *** فَتَعَوَّضُوا مِنْهَا رِدَاءَ رَدَاكَ(2)
 كَانَتْ وَجُوهُهُمْ كَأَقْمَارِ الدَّجَا *** فَغَدَّتْ مَسْحَاةً(3) بِثُوبِ دُجَاكَ
 وَعَنْتَ لِقِيَوْمِ السَّمَاوَاتِ الْعُلَا *** رَبُّ الْجَمِيعِ وَقَاهِرِ الْأَمْثَلِكِ
 وَجَلَالِ رَبِّي لَوْ تَصِحَّ عُرَائِمِي *** لَزَهَّدْتُ فَيْكِ وَلَا بَتَيْتُ سِوَاكَ
 وَأَخَذْتُ زَادِي مِنْكَ مِنْ عَمَلِ التَّقَى *** وَشَدَّدْتُ إِيمَانِي بِنَقْضِ عُرَاكَ(4)

وبعد أن بين الشاعر أن الدنيا دار عمل، دعا إلى التقوى والإيمان والإعراض عن الدنيا لحقارتها، ورغب في الزهد فيها لأنها غير دائمة، وفي ذلك يقول :

مَهَلًا عَلَيْكَ فَسَوْفَ يُلْحَقُكَ الْفَنَاءُ *** فَتُرِيَّ بِلَا أَرْضٍ وَلَا أَفْلَاكَ
 وَيُعِيدُنَا رَبُّ أَمَاتٍ جَمِيعَنَا *** لِيَكُونَ يُرَضِّي غَيْرَ مَنْ أَرْضَاكَ
 وَاللَّهِ مَا الْمَحْبُوبُ عِنْدَ مَلِيكِهِ *** إِلَّا لِيَبُّ لَمْ يَزَلْ يَشْنَاكَ
 هَجَرَ الْغَوَائِبِي وَأَصِيلًا لِعَقَائِلِ *** يَضْحَكُنْ حُبًّا لِلْوَلِيِّ الْبَاكِئِي
 إِنِّي أَرَقْتُ لَهْنَ لَا لِلْحَمَائِمِ *** تَبْكِي الْهَدِيلَ عَلَى غُصُونِ أَرَاكَ(5)

1- البها : قصر وأصله ممدود : البهاء : الحسن. 2- رداك : هلاكك. 3- مسحاة : مغطاة.

4- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 37، 38.

5- المصدر نفسه ص 38.

فها هو الشاعر يرهبنا من الدنيا، بالكشف عن وجهها الحقيقي فهي متقلبة تغدر بأصحابها الذين يدعون لها، أولئك الذين طمست عقولهم فتهافتوا على زخرفها وفي ذلك هلاكهم، فما أحقرها وأبشع صورتها، فهي كالأم التي تغدر بأبنائها وتأكلهم بعد ولادتهم.

فما أبشع الدنيا وأفظعها، إنها كالرحى تطحن الناس طحنا قويهم وضعيفهم، فقيرهم وغنيهم، وإن فكرة الزوال والفناء التي تؤول إليها الدنيا تتجلى من خلال قول الإلبيري :

أَيْنَ الْجَبَابِرَةُ الْأُلَى وَرِيَاشُهُمْ *** قد باشروا بعد الحرير ثراك
ولطالما رُدُّوا بأردية البها(1) *** فتعوضوا منها رداء رداك(2)
كانت وجوههم كأقمار الدجا *** فعدت مسحاة(3) بثوب دجاك
وعنت لقيوم السموات العلاء *** ربُّ الجميع وقاهر الأملاك
وجلال ربِّي لو تصحُّ عزائمي *** لزهدت فيك ولا بتغيث سواك
وأخذت زادي منك من عمل التقى *** وشددت إيماني بنقض عراك(4)

وبعد أن بين الشاعر أن الدنيا دار عمل، دعا إلى التقوى والإيمان والإعراض عن الدنيا لحقارتها، ورغب في الزهد فيها لأنها غير دائمة، وفي ذلك يقول :

مهلاً عليك فسوف يلحقك الفناء *** فتزني بلا أرض ولا أفلاك
ويعيدنا ربُّ أمات جميعنا *** ليكون يرضي غير من أرضاك
والله ما المحبوب عند مليك *** إلا ليب لم يزل يشاك
هجر الغواني واصلا لعقائل *** يضحكن حبا للولي الباكي
إنني أرقن لمن لا لحمائيم *** تبكي الهديل على غصون أراك(5)

1- البها : قصر وأصله ممدود : البهاء : الحسن. 2- رداك : هلاكك. 3- مسحاة : مفضاة.

4- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 37، 38.

5- المصدر نفسه ص 38.

لَا عَيْشَ بَصُرُوا لِمَسْوِكَ وَإِنَّمَا *** نَصَمُوا وَتَعَمَّدُوا عَيْشَةَ النَّسَاكِ
وَمِنَ الْإِلَهِ عَلَى النَّحْيِ صَلَاتُهُ *** عَدَدَ النَّحْمِومِ وَعِلَّةَ الْأَمْلَاكِ 1

وما دامت الدنيا زائلة وكل لى ذهاب، فالشاعر يرغب في الزهد فيها لأن الله تعالى يحب من عادى الدنيا، وعاش عيشة الساك.

ويبلغ الشاعر عسى فكرة زوال الدنيا وفنائها تهون عسى نفوسنا.

فجعلها دار عمل وعبادة، وفي ذلك يقول أبو إسحاق الإلبيري :

كُلُّ أَمْرٍ فِيهَا يَدِينُ يَدَانُ *** سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانُ
يَا عَلِمَ الدُّنْيَا لِبِتْكُنْهَا وَمَا *** هِيَ الَّتِي يَتَّقَى بِهَا سُكَّانُ
تَقَى وَتَقَى الْأَرْضُ بَعْدَكَ مِثْمَا *** يَتَّقَى السَّاحُ وَتَرْحَلُ الرُّكَّانُ
أَسْرَى فِي الدُّنْيَا بِكُلِّ زِيَادَةٍ *** وَزِيَادَتِي فِيهَا هِيَ التَّقْصَانُ 2

فالدنيا متقلبة لا تدوم على حال، يوم تسرك وآخر تحزنك، فهي كإفضل أو أحمم الجميل الذي لا يتحقق أبدا، من أحبها أسرته، ومن تخلى عنها اكسى شوب العز. وعلى الإنسان أن يعتز بمن سبقوه، ويعلم أن الدنيا لم تخلق لتعمر أديا، وإنما خلقت لتكون جسرا نعيم عليه إلى دار البقاء والجنود.

لذلك علينا أن نتزود منها بأحسن الزاد وهو العمل والتقوى، وفي ذلك يقول أبو

إسحاق الإلبيري :

فَلَيْسَتْ هَذِهِ الدُّنْيَا بِشَيْءٍ *** تَسْوُوكَ حَقَبَةً وَتَسْرُ وَقْتَنَا
وَعَايِنَهَا إِذَا فَكَّرْتَ فِيهَا *** كَفَيْتِكَ، أَوْ كَحَلِيمِكَ إِنْ حَمَمْنَا
سَحِيتَ بِهَا وَأَنْتَ هَا مَحِبٌّ *** فَكَيْفَ نَحِبُّ مَا فِئْرَ سَحِينَا؟
وَتَطْعَمُكَ الطَّعَامُ وَعَنْ قَرِيبٍ *** سَطْعَمُ مَنْكَ مَا مِنْهَا طَعْمَانَا
وَتَعْرِى إِنْ لَيْسَتْ هَا ثِيَابًا *** وَتُكْسَى إِنْ مَلَأْسَهَا حَقْفَانَا 3

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 38.

2 - المصدر نفسه، ص 111.

3 - العمى : الغل.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 28.

وَتَشْهَدُ كُلَّ يَوْمٍ دَفْنَ جَلِيٍّ *** كَأَنَّكَ لَا تُرَادُ بِمَا شَهِدْنَا
 وَلَمْ تُخْلَقْ لِتَعْمُرَهَا وَلَكِنْ *** لِتَعْبُرَهَا فُجِدَّ لِمَا خُلِقْنَا
 وَإِنْ هُدِمَتْ فَرَدَّهَا أَنْتَ هَدْمًا *** وَحَصَّنَ أَمْرُ دِينِكَ مَا اسْتَطَعْنَا
 وَلَا تَحْزَنُ عَلَى مَا فَاتَ مِنْهَا *** إِذَا مَا أَنْتَ فِي أَخْرَاكَ فُرْتَا
 فَلَيْسَ بِنَافِعٍ مَا نَلْتَ فِيهَا *** مِنَ الْفَانِي، إِذَا الْبَاقِي حُرْمَتَا،¹

فالشاعر يذم الدنيا، ويكشف عن حقيقتها البشعة، وذلك لينفر منها، ويرغب في
 العبادة والطاعة، للفوز بالدار الآخرة دار السواب والخلود، والشاعر قد ألبس هذه
 النصائح حلة جميلة من الصور التي زادت المعنى وضوحاً وتأثيراً في النفس.

ومن الشعراء الذين أكثروا من ذم الدنيا أيضاً أبي القاسم بن فرج الإلبيري

المعروف بالسميسر، وقد كان كثير التيرم بالناس والدنيا، ومما قاله في ذلك :

لَا تَفْرَنْكَ الْحَيَا *** ةُ فَمَوْجُودُهَا عَدَمٌ
 لَيْسَ فِي الْبَرَقِ مُتْعَةٌ *** لِأَمْرِي يَخْبُطُ الظُّلْمُ،²

فالدنيا عنده دار غرور أيضاً، ومع ذلك فهي غير دائمة، إنها كالعدم أو كالربق الذي
 يخطف الأبصار، لكنه ما إن تراه حتى يزول بسرعة.

ويصر الشاعر على إظهار الدنيا على حقيقتها، ويؤكد زواها وأفوها.

ويبين بخل الدهر واضطرابه، ويدعو إلى تقوى الله استعداداً ليوم الحساب فيقول :

حُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابٌ *** مِثْلُ مَا قَالُوا خَرَابٌ
 وَالَّذِي مِنْهَا مَشِيدٌ *** فَخَرَابٌ وَبَيْتٌ
 وَأَرَى الدَّهْرَ بَجِيلاً *** أَيْدَا فِيهِ لَضِطْرَابٌ
 سَائِبٌ مَا هُوَ مُعْطٍ *** فَالَّذِي يُعْطِي ذَهَابٌ،³

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 2926.

2 - النخوف، 3، مج 2، ص 884.

3 - ياب : خراب.

4 - المصدر نفسه، ص 889.

وليوم الحشر أنعمَ _____ سؤَالَ وجوابُ
 وصراطٌ مُستقيمٌ *** يومَ لا يُطوى كِتابُ
 فاتقِ اللهَ وجنّبْ *** كُلَّ ما فيه حِسابُ(1)

فالشاعر يدعونا في هذه الأبيات إلى ترك الدنيا والإعراض عنها لأنها فانية، والعمل من أجل الدار الآخرة، لأنها ستكون دار حساب وعقاب، ولذا علينا أن نتجنب كل الشرور والآثام التي من شأنها أن تعرضنا للحساب والعقاب. إن هذه المعاني الرقيقة والألفاظ العذبة مستوحاة من كتاب الله العزيز الحكيم، والذي جاء فيه قوله تعالى :

﴿ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾(2).

وإذا كانت الدنيا دار هو وفتنة، فعلىنا أن نغض عنها الطرف، ونتخذها سبيلا للعمل الصالح، ودارا للعبادة والتقوى. وفي ذلك يقول أبو الوليد الباجي :

تَبَلَّغْ إِلَى الدُّنْيَا بِأَيْسَرِ زَادٍ *** فَإِنَّكَ عَنْهَا رَاحِلٌ لِمَعَادِ
 وَعُضَّ عَنِ الدُّنْيَا وَزُحْرِفِ أَهْلِهَا *** جَفَوْنَكَ وَاكْحَلْنَهَا بِطُولِ سُهَادِ
 وَجَاهِدْ عَنِ اللذاتِ نَفْسَكَ جَاهِدًا *** فَإِنَّ جِهَادَ النَّفْسِ خَيْرُ جِهَادِ
 فَمَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارِ إِقَامَةٍ *** فَيَعْتَدُّ مِنْ أَغْرَاضِهَا بَعَادِ
 وَمَا هِيَ إِلَّا دَارٌ هُوَ وَفِتْنَةٌ *** وَإِنَّ قُصَارَى أَهْلِهَا النِّفَادِ(3)

فالشاعر يحذرننا من الدنيا وزخرفها، لأنها دار هو وفتنة، ومصير أهلها إلى فناء ونفاد. وهذه الفكرة ليست جديدة على رجل مسلم، لأنه قرأها في القرآن الكريم وفي العديد من آياته، إذ قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ ﴾(4). ويدعونا إلى مجاهدة أنفسنا وصرفها عن متاع الدنيا وزخرفها

1 - الذخيرة، ق 1، مج 2، ص 889.

2 - الإسراء/13.

3 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 103.

4 - عمدة/37.

لأنه قليل مقارنة بنعيم الآخرة ، وجاء في ذلك قول الله عز وجل : ﴿قَلِيلٌ مِّنَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ (1).

لذا فمن عرف الدنيا على حقيقتها، أعرض عنها غير نادم، وقليلون أولئك الذين أدركوا حقارتها ودناءتها، فصوروا المتهافتين عليها في صور بشعة، ومن بين هؤلاء الشعراء ابن سارة إذ يقول :

بَنُوا الدُّنْيَا بِمِجْهَلٍ عَظُمُوهَا *** فَجَلَّتْ عِنْدَهُمْ وَهِيَ الحَقِيرَةُ
بِهَارِشٍ (2) بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهَا *** مُهَارِشَةُ الكِلَابِ عَلَى عَقِيرِهِ (3)

وابن السيد البطليوسي من الذين ذموا الدنيا أيضا، ورغبوا في الآخرة، وفي ذلك يقول :

وَمَا دَارُنَا إِلَّا مَوَاتٌ لَوْ أَنَا *** نُفَكَّرُ وَالْأُجْرَى هِيَ الْحَيَوَانُ (4)
شَرِبْنَا بِهَا عِزًّا بَدُونِ جِهَالَةٍ *** وَشَتَانٌ عِزٌّ لِلْفَتَى وَهَوَانُ (5)

فالدنيا دار هوان، والآخرة دار عز لمن أدرك حقيقتها، وعمل عملا صالحا في الدنيا. والشاعر إذ تعرض لهذه الفكرة فقد ضمن الآية الكريمة : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (6). فالدار الأخرى هي الحياة السرمدية التي لا تنفى أبدا، أما الدنيا فحياة زائلة فانية، وهذه الحقيقة قررها القرآن الكريم، وأدركها العقلاء، والحكماء منذ سالف العصور، ولم يتوان شعراء الزهد في التذكير بها. وما هو ابن خفاجة يقول :

1 - النساء/76.

2 - بهارش : يقاتل ويخاصم.

3 - الخرَيْدَةُ، قسم شعراء المغرب والأندلس (2)، ص 331.

4 - المِهْوَانُ : الحياة.

5 - الخرَيْدَةُ، قسم شعراء المغرب والأندلس (3)، ص 480.

6 - العنكبوت/64.

لَا الْعَطَايَا وَلَا الرَّزَايَا بَسَوَايَ *** كُلُّ شَيْءٍ إِلَيَّ بِلَىٍّ وَدُنُورٍ(1)
 قَالَهُ عَنْ حَالَتِي سُورٍ وَحُزْنِي *** فَبِإِي غَايَةِ بَحَارِي الْأُمُورِ
 وَإِذَا مَا انْقَضَتْ صُرُوفٌ(2) اللَّيَالِي *** فَسَوَاءٌ لَيْلُ الْأَسَى وَالسُّرُورِ(3)

فما دامت الحياة إلى زوال، فلماذا الحزن والسرور؟ إن الدنيا زائلة بكل ما فيها من حطام، لذلك فالحزن عليها والسرور بها غير مجدٍ، كما قال أبو العلاء المعري :

غَيْرُ مُجِدِّ فِي مِلَّتِي وَاعْتِقَادِي *** نَوْحُ بَاكِ وَلَا تَرْنَمُ شَادِرٍ(4)

وهكذا فهذا المعنى متداول بين الشعراء في الحكمة والزهد.

وقد يتطرق الشاعر إلى ذم الدنيا قصد التبصير بحقيقتها والتزهد فيها، كما جاء في قول أبي إسحاق الإلبيري :

لَا غَارَتِ الدُّنْيَا وَلَا أُجِدَّتْ *** فَالْعَاقِلُ الحَرُّ بِهَا مُتَحَنٌ
 مِمْلٌ لِلأَحْمَقِ مِنْ أَهْلِهَا *** وَهِيَ عَلَى عَاقِلِهِمْ تَضْطَغِنٌ(5x6)

فالدنيا دنية لا تقبل إلا على الحقير الأحمق وأما العاقل فهو ممتحن بها ومبتل بشهواتها ومفاتها. وفي البيتين حكمة مستقاة من تعاليم الإسلام السمحة فقد جاء عن سعيد بن المسيب (رض) قوله : « الدنيا نذلة مميل إلى الأندال »(7). ومما جاء في التبصير بحقيقة الدنيا والدعوة إلى الزهد فيها قول ابن العسال :

انظُرِ الدُّنْيَا فَإِنْ *** أَبْصَرْتَهَا شَيْئًا يَدُومُ
 فَاغْدُ مِنْهَا فِي أَمَانٍ *** إِنَّ يُسَاعِدَكَ النَّعِيمُ(8)

1 - دنور : بلى. 2 - صروف الليالي : نوابها.

3 - ديوان ابن خفاجة، ص 157.

4 - ديوان أبي العلاء، ص 7.

5 - تضطغن : تنطوي على الحقد وتضمره.

6 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 95.

7 - محاضرات الأدباء، لأبي القاسم الراغب الأصبهاني، ج 1، ص 509.

8 - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطون - لإحسان عباس، ص 135.

وَإِذَا أَبْصَرْتَهَا مِنْكَ عَلَى كَرِّهِ تَهَيَّبُ
فَأَسْأَلُ عَنْهَا وَأَطْرَحُهَا*** وارْتَحِلْ حَيْثُ تُقِيمُ(1)

فالدنيا دار هو وفتنة، والعاقل من غرض عنها الطرف واتخذها سبيلا للدار الأخرى، دار الإقامة والخلود، وقد وفق الشاعر في اختيار أسلوب الأمر الذي يصلح للنصح والإرشاد.

وجدير بمن عرف الدنيا على حقيقتها أن يتقى الله، باعث الحياة، القدير العليم، الذي أحاطت قدرته وعلمه بكل شيء، إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي به القلوب، لذا فقد حذرنا الرسول صلى الله عليه وسلم من الدنيا وأنذرنا بالحساب والعقاب يوم لا يجد الإنسان سوى ما قدمت يداه.

ولقد بلغنا قول الله عز وجل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (2). فما بعد الموت إلا الجنة أو النار؛ فإن كانت الجنة نعيم دائم وخير عميم، وراحة وسعادة دائمة، وإن كانت النار، فنار حامية: ﴿وَجُودٌ يُوقِدُ خَاشِعَةً * غَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً﴾ (3)، ورحمة الله واسعة، ستسبغ على كل مسلم صدع بأوامره، وانتهى عن نواهيه في سره وعلانيته، وأخذ بتعاليم دينه، وسار على نهج نبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم. لذا كثيرا ما نصحنا شعراء الزهد بالابتعاد عن الدنيا، ورجعوا في الإعراض عن شهواتها وزخرفها الفاني.

2 - ذم المال والغنى :

لقد اتخذ شعراء الزهد هذا الموضوع وسيلة من وسائل التحذير من الدنيا وثرواتها الفانية، فحذروا من المال والغنى، ودعوا إلى الكفاف والقناعة، لأن المال

1 - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين - لإحسان عيسى، ص 135.

2 - الزلزلة/8،9.

3 - العاشية/2،3،4.

عرض زائل من أعراض الدنيا، ومهما بالغ الإنسان في اكتنازه وادخاره فإنه لن يأخذ منه شيئاً يوم موته. وقد استقوا هذه الفكرة من تجاربهم وحياتهم، ومن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. ومن بين الشعراء الذين تناولوا هذه الفكرة، السبيري ومما قاله :

دَعَّ عَنْكَ حَاجَهَا وَمَالَآ *** لَا عَيْشَ إِلَّا الْكَفَافُ
قُوَّةٌ حَلَالٌ وَأَمْنٌ *** مِنْ الرَّدَى وَعَفَافُ
وَكُلُّ مَا هُوَ فَضْلٌ *** فَإِنَّهُ إِسْرَافُ(1)

إذن فلا الجاه ولا المال يعني صاحبه غداً، إنه لا يصحب معه منهما شيئاً. وقد رغبت الرسول صلى الله عليه وسلم في القناعة إذ قال : « ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس »(2).

ومن هنا كثر ذم الغنى في شعر الزهد، ومما قاله السبيري في ذلك :

المالُ ذلٌّ وذُلُّ *** أَلَا يُرَى لَكَ مَالُ
فأحْرِصْ كَأَنَّكَ بَاقٍ *** فَمَا لِيذِي الْفَقْرِ حَالُ
واقنعَ فَإِنَّكَ فَانٍ *** غَدًا وَكُلُّهُ مُحَالُ(3)

قال المال ذل، لأنه مصدر من مصادر الفتنة في الدين والدنيا، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾(4). وقد تكون كثرة الأموال والرزق سبباً من أسباب البغي والظلم، لقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾(5). كما يكون الغنى كثير الهم والخوف، ومثل ما في الغنى من خطورة فإن الفقر أيضاً خطير، لأنه يقود إلى الجهل والضلالة، وذلك ما يؤكد قول

1 - الذخيرة، ق2، م1، ص891.

2 - صحيح الترمذي، ج9، ط1، 1934م، مط الصاري - مصر - ص183.

3 - الذخيرة، ق2، م1، ص892.

4 - التباين/15.

5 - الشورى/25.

الرسول صلى الله عليه وسلم : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى وَالتَّقَى وَالعِفَافَ (1) وَالغِنَى » (2). والغنى هنا ليس الثراء وكثرة الأموال، وإنما هو غنى النفس بالقناعة. لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو ربه بهذه الكلمات « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوْتًا » (3).

وقد أصاب الشاعر فيما دعا إليه، خاصة أنه قرنه بالدعوة إلى القناعة، وهي كثر لا يفتنى.

وهذا أبو إسحاق الإلبيري يقول في ذم الغنى :

وَذِي غِنَى أَوْهَمَتْهُ هِمَّتُهُ *** أَنْ العِنَى عَنْهُ عَمْرٌ مُنْفِصِلِ
فَخَرَّ أَذْيَالَ عَجَبٍ بَطْرًا (4) *** وَاخْتَالَ لِلِكِبْرِيَاءِ فِي حُلَلِ
بَزْتُهُ (5) أَيَدِي الخَطُوبِ بَزْتُهُ (6) *** فَأَعْتَاضَ بَعْدَ الجَدِيدِ بِالسَّمَلِ (7)
فَلَا تَبْقُ بِالغِنَى فَاغْتَهُ الـ فَفَقْرٌ وَصَرَفَ الزَّمَانِ ذُو دَوْلِ
كَفَى بِنَيْلِ الكِفَافِ مِنْهُ غِنَى *** عَنْهُ فَكُنْ فِيهِ عَمْرٌ مُخْتَفِلِ (8)

وله في المعنى نفسه أيضا :

لَاشِيءَ أَخْسَرَ صَفْقَةً مِنْ عَالِمٍ *** لِعِبْتٍ بِهِ الدُّنْيَا مَعَ الجَهَالِ
فَغَدَا يُفَرِّقُ دِينَهُ أَيَدِي سَبَا *** وَيُزِيلُهُ جِرْصًا جَلْمَعَ المَالِ (9)

1 - العفاف : والعفة، التنزه عما لا يباح، والكف عنه.

2 - صحيح مسلم (كتاب الذكر: باب التعمد من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل)، مج4، ص2087.

3 - المصدر نفسه: كتاب الزهد والرفاق. مج4، ص2281.

4 - بطرا : تكبرا. 5 - بزته : سلبته فهرا. 6 - بزته : زيباه. 7 - السمل ج/الأسمال : الثوب الخلق البالي.

8 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري. ص109.

9 - المصدر نفسه، ص40.

لا تَحْمَدُ فِي كَسْبِ الْحَرَامِ وَقَلَمًا *** يُرْجَى الْخَلَاصُ لِكَايِبِ الْحَلَالِ
 فَخَذِ الْكَفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ (1) *** فَالْفَضْلُ تَسَالُ عَنْهُ أَيُّ سُؤَالٍ
 وَدَرَجِ الْمَطَارِفِ (2) وَالْمِطْيَ لِأَهْلِهَا *** وَأَنْتَعِ بِأَطْمَارٍ (3) وَلَبَسِ نِعَالِ
 فَهَمُّ وَأَنْتَ وَفَقْرُنَا وَغِنَاهُمْ *** لَا يَسْتَقِرُّ وَلَا يَدُومُ بِحَالٍ (4)

فهاهو الشاعر يحض على الكفاف، وينهى عن كسب الحرام، لأنه يجر على صاحبه الخبائث، ومن أصاب ماله من الحرام ينفقه في الحرام لأن الخبيث ينفق في إسراف. ثم إنه سيسأل المرء غدا عن ماله من أين اكتسبه وقيم أنفقه. كما حذرنا من اكتناز المال مستلهما معانيه من قول الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (5).

وهو إذ ينهى عن الغنى فلاضرارته بصاحبه، وفي ذلك يقول أبو إسحاق الإلبيري :
 فَمِنَ الْغِنَى مَا قَدْ يَضُرُّ بِصَاحِبِهِ *** وَالْفَقْرُ عِنْدَ اللَّهِ لَيْسَ بِضَائِرٍ (6)

1- ذا فضلة : الفضلة : البقية من الشيء / فضل : زاد. 2- المطارف ج المطرف : الثوب من الخنز.

3- أطمار ج طمر : الثوب البالي.

4- ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص 40، 41.

5- التوبة/34.

6- ديوان أبي إسحاق الإلبيري ص 77.

وقد اقتبس الشاعر الفكرة هنا من قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴾ (1).

وأما كون الفقر ليس بضائر، فلأنه كما يقال «الفقر ملك ليس عليه محاسبة». والقناعة من أهم عوامل الزهد، لأن الإنسان الذي يعود نفسه على الرضى ويحملها على القناعة، يتخلص من أدران الطمع والحسد. وحياة المسلم حياة نقية مستقيمة، بعيدة عن البغي والعدوان، خالية من الفحش والقتل والنهب والسلب، والغية والنميمة والكبرياء والفخر، إنها حياة طاهرة نقية، خالية من الشوائب، حياة وضع لها الدين الإسلامي نظامًا اجتماعيًا سديدًا يكفل للبشر مايلتق بهم من كمال، وإنسانية وعقلانية.

1- المؤمنون /65.

ثالثاً : ذكر الموت والقبر :

1- ذكر الموت :

إن فكرة الموت جزء من إحساس الشاعر وفكره، لأنها صورة متكررة أمام عينيه، يراها كل يوم في الأهل والأقارب، والأصدقاء وعامة الناس، وذكره لا يحتاج لتخصيص موضوع قائم بذاته، إلا أن شاعر الزهد أكثر قرباً من هذا الموضوع، فيتناوله من باب تذكير الناس بمصيرهم وحثهم على العمل الصالح والتقوى استعداداً للدار الآخرة، دار الجزاء والعقاب، لذا ترددت فكرة الموت كثيراً في هذا الشعر عملاً بقول الرسول الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «أَكْثَرُوا مِنْ ذِكْرِ هَٰذِهِمِ اللَّذَاتِ» (1)، ومن الأشعار التي تناولت هذا الموضوع قصيدة ابن حمديس :

ما الَّذِي أَعَدَدْتَ لِلْمَوْتِ فَقَدْ *** قَدِرَ الْمَوْتُ بِلَا شَكِّ عَلَيْكَ
أَذُنُوبًا كَانَتْ عَدَا الْحَصَى *** بِشَسْ مَا اسْتَكْرَتْ مِنْ كَسْبِ يَدَيْكَ؟!
بِشَسْ مَا يُسْمَعُ مِنْ تَعْظِيمِهَا *** مَلَكَا الْقَبْرِ بِهِ مَلَكَيْكَ
أَيُّ خَطْبٍ فَادِجٍ فِي رُقْدَةٍ *** يُوقِظُ الْحَشْرَ إِلَيْهِ مُقَلَّتَيْكَ
فَلَكَ الْوَيْلُ مِنَ النَّارِ إِذَا *** مُقَلَّةُ الرَّحْمَنِ لَمْ تَنْظُرْهُ إِلَيْكَ (2)

لقد اتخذ الشاعر الموت وسيلة لتحسيد فكرة البعث والنشور، وخير ما يجسد هذه الفكرة هو ذلك القبر المظلم الموحش، وسؤال الملكين ثم يأتي بعد ذلك البعث والحشر والصراط، يومها لا ينجو من النار والعذاب إلا من نظر إليه ربه بعين الرحمة، وذلك هو الفوز العظيم. وهكذا فالموت لم يحدث في نفس الشاعر ذلك الفزع الذي قد يحدثه في نفوس أخرى غير مؤمنة. فالإيمان هو الذي حول فكرة الموت إلى أمر عادي يذكره الشاعر غير خائف منه، وإنما خوفه هو من قلة الزاد، وغضب الرحمن، وما يؤكد لنا عدم خوف الشاعر من الموت هو إقراره بكونه حقيقة كالحياة، لذلك

1 - صحيح الترهذي، (باب الزهد)، ج9، ص187.

2 - ديوان ابن حمديس، ص346.

فهو ينظر إليه نظرة اعتبار، فالموت والحياة حقيقة، وسيظل العالم كذلك إلى يوم
البعث الذي لا تفاضل بين الناس فيه إلا بالأعمال الصالحة، فيقول ابن حمديس معبراً
عن ذلك :

إِنَّ اللَّيَالِيَّ وَالْأَيَّامَ يُدْرِكُهَا *** شَيْبٌ وَيَعْقُبُهَا مِنْ بَعْدِهِ هَلْكَ
فَشَيْبٌ لَيْلِكَ مِنْ إِصْبَاحِهِ يَفْقَهُ (1) *** وَشَيْبٌ يَوْمِكَ مِنْ إِمْسَانِهِ حَلْكَ
وَالعَيْشُ وَالْمَوْتُ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي شَغْلٍ *** حَتَّى يُسَكِّنَ مِنْ خَيْرِيكَ الْفَلَكَ
وَيَبْعَثُ اللَّهُ مِنَ جَوْفِ الثَّرَى أُمَّماً *** كَانَتْ عِظَامُهُمْ تُبَلَى وَتُنْتَهَكُ
فِي مَوْقِفٍ مَا لَخَلِقٍ عَنْهُ مِنْ جَوْلٍ (2) *** وَلَا يُحَقَّرُ فِيهِ سَوْقَةٌ مَلِكٌ (3)

فالموت كالحياة، حدث واقع وليس للمرء حيلة في التخلص منه، ورغم ذلك فهو لا
يبعث في النفس المومنة الفزع والهلع وإنما يشير فيها موضوعاً آخر، وهو البعث
والنشور، ذلك اليوم الذي من شأنه أن يشير في النفوس الهلع والفزع، فتسارع إلى
العمل الصالح علها تنجو من الهلاك.

وهكذا فذكر الموت تذكير للوعظ، وحديث الشاعر عن مصير الإنسان
الذي ينتظره دافع لعمل الخير. وقد وفق الشاعر في التصوير إذ شبه حياة الإنسان
بالدهر، فإذا كانت الليالي والأيام تبلى فكذلك الإنسان، بعد الصبح يدركه المساء
والموت، غير أن هذا الموت ليس فناء، وإنما هو انتقال حياة أخرى، إنه البعث الذي
يحسّ معه الشاعر بالراحة والطمأنينة لأنه الحياة التي تتحقق فيها العدالة الإلهية فلا ملك
ولا سوقة، فالناس كلهم سواء أمام الله.

فلا خوف ولا فزع من الموت، لأنه سنة من سنن الله في الكون، وكذلك

1 - يفق : شديد البياض.

2 - حول : انتقال.

3 - دهبان ابن حمديس، ص 347.

يتغنى الشاعر المؤمن الراضي بمشيئة الله عز وجل، ويقول أبو عبد الله محمد بن
خلصة⁽¹⁾ :

كُنَّا صَائِرًا إِلَى اللَّهِ حَتْمًا *** واستراح العذولُ والمعدولُ
وقصارى⁽²⁾، بَيْنَ الْقُصُورِ قُبُورٍ *** وَيَهْبُ الصَّبَا بِهَا وَالْقَبُولُ⁽³⁾
سُنَّةَ اللَّهِ فِي الْعِبَادِ وَمَا فِي *** سُنَّةِ اللَّهِ لِلْوَرَى تَبْدِيلُ⁽⁴⁾
حُكْمِهِ الْفَصْلُ لَيْسَ عَنْهُ انفِصَالٌ *** وَهُوَ الْعَدْلُ لَيْسَ عَنْهُ عُدُولُ.

فالشاعر بحكمة العقلاء يسلم لأمر الله وقضائه، و ينبه الغافلين ويبين لهم أن الموت
أمر لا بد منه، ونهاية الإنسان هي الرجوع إلى خالقه، لذلك فلا بد من العمل الصالح
والامثال لأوامر الله عز وجل، حتى نلقاه بقلوب مطمئنة. فالشاعر قد وفق في إبراز
الفكرة ونقلها إلى الأذهان وإن كانت بلغتنا مجردة عارية من الصور الخلابية والتعابير
المؤثرة البليغة، وذلك ليس عن عجز وتقصير من الشاعر وإنما هو راجع إلى كون
معظم هذا الشعر جاء بأسلوب مباشر، يخاطب فينا العقول، لأنهم هؤلاء الشعراء
هو تبليغ الفكرة واضحة إلى الأذهان.

وإذا كان الموت شيء لا بد منه، فعلى المرء أن يسلم أمره لله تعالى
ويرضى بحكمته وحكمته، فإليه مرجعنا، وقد قال جل شأنه : ﴿ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾⁽⁵⁾، وذكر الموت لا يدع لمؤمن فرحاً، بل يدعوه

1 - هو محمد بن خلصة، أبو عبد الله الشنوني الداني البصرى، كان عالماً في اللغة، وله حظ وافر من النثر
والنظم. لكنه كان إلى العلماء أقرب منه إلى الشعراء. عاش في القرن الخامس الهجري انظر : الذخيرة ق3،
بج1، ص322، وجزوة المتنبس للحميدي ص97.

2 - قصارى : من قصر - قصراً : ضد طال. 3 - القبول : ربح الصبا لأنها تستقبل القبور.

4 - الذخيرة مج1، ق3، ص329.

5 - المائدة / 20.

إلى الالتفات إلى الحياة الآخرة، وفي ذلك جاء قول أبي الحسن الطيطل(1):

يا غافلاً شأنه الرُقَادُ *** كأنما غيرك المُسْرَادُ
والموتُ يرعاك كلَّ حينٍ *** فكيف لم يحفك المهَادُ
فهي زادا وزد مَزَادًا *** فقد طوي عمرك النَفَادُ
إذ سَفَرُ الموتِ فيه شَحَطٌ(2) *** والقربُ منه هو العِبَادُ
ما حالُ سَفَرٍ يغيّرُ زاجرٍ *** والأرضُ قفرٌ ولا مَزَادُ
ضَمَرٌ(3) جواداً ليومٍ سَبَقِ *** لئله يرفَعُ الجَوَادُ
أينَ فلانٌ وكمَ فلانٍ *** قد غُيِّبوا في الثرى فَبَادُوا
لأتبغ دُنيا فإنَّ عَتهَا *** المؤمنُ المتقى بُذَادُ(4)
فابن لها بالتقى بُرُوجًا *** تأمنُ إذا رُوِّعَ العِبَادُ
واعتبرِ الأرضَ كيف مُدَّتْ *** فهي لهذا الورى(5) مِهَادُ
ثم السماءَ التي أظَلَّتْ *** قد رُفِعَتْ ما لها عِمَادُ
كما بناها يَبني سِواها *** كما بَداناً كذا نَعَادُ(6)

فالشاعر يذكر بالموت، مستهلاً قصيدته «بنداء» يستحث به الغافلين، ويحرك نفوسهم، ويشحذ همهم وعزائمهم، يدعوهم للطاعة ويذكرهم بقرب الأجل، ودنو الساعة، إنه يعظ على طريقة الزهاد، فيدعو إلى ترويض النفس وتعويدها على التفكير في الله عز وجل، ليزيدنا تأملنا فهما وقربا من إدراك الحق، فعظمة الخلق تدل على عظمة الخالق، ومن أدرك ذلك ازداد إيمانه، وقويت رغبته في الطاعة، رغبة وأملا في الآخرة، وذلك هو الزاد الذي حثنا الشاعر على التزود به. وقد جاءت ألفاظ الشاعر رقيقة عذبة ومعانيه واضحة، تقرب من الله عز وجل، وكيف لا وهي مستقاة

1 - أبو الحسن الطيطل هو : علي بن إسماعيل الفهري القرشي، كان عالماً وحافظاً للأدب والأشعار. مال إلى الزهد والتفكير في آخر حياته، ونظم في تلك المعاني أشعاراً جيدة رقيقة تناقلها الناس وحفظوها. انظر :

الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر5، ص195 - 196. الذخيرة، ق2، مج2، ص797

2 - شحط: بعد. 3 - ضمَر : أضمر الفرس : ضمرد ضامرا. 4 - بناد : يُدفع. 5 - الورى : الناس/الخلق

5 - الذخيرة، ق2، مج2، ص799.

من القرآن الكريم، ومن الآيات الكريمة التي ضمّنها شعره. قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا...﴾ (1) وقوله جلّ شأنه: ﴿... وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ...﴾ (2). وهكذا ففكرة الموت توقظ الضمائر وتحرك العزائم، وتدفع إلى العمل الصالح، والإيمان القوي.

لذا نرى شعراء الزهد يلحّون على ذكر الموت ليس تشاؤماً، ولا رغبة في الموت للتخلّص من غوائل الحياة، وإنما الموت بالنسبة لهم وسيلة من وسائل الوعظ والاعتاظ، لذلك يدعوننا إلى ذكره، وفي ذلك جاء قول أبي الفضل جعفر بن الأعلّم (3):

الموتُ سُقْلٌ ذِكْرُهُ *** عَن كُلِّ مَعْلُومٍ سِوَاهُ
 فاعمرْ به ربعَ إدْكِمَا *** رِكَ بِالْعِشِيِّ وَبِالْغَدَاهُ
 وأكحلْ به طرفَ اعتبا *** رِكَ طَوْلَ أَيَّامِ الْحَيَاهُ
 قبل ارتكاضِ (4) النَّفْسِ مَا *** بَيْنَ التَّرَائِبِ وَاللَّهَاهُ (5)
 فيقالُ هذا جَعْفَرُ *** زَهْرُنْ بِمَا كَسَبَتْ يَدَاهُ
 عَصَفَتْ به رِيحُ النُّسْرِ *** نِ فَصِيْرَتُهُ كَمَا تَرَاهُ
 فَضَعُوهُ فِي أَكْفَانِيهِ *** وَدَعُوهُ يَجِيئُ مَا جَنَاهُ
 وتمعّنوا بمتاعِهِ المخزُونِ واحسبوا ما حَوَاهُ
 يا مَصْرَعًا مُسْتَبْشَعًا *** بَلِّغِ الْكِتَابُ بِهِ مَدَاهُ
 لقيتُ فيكَ بشارةً *** تشفي فؤادي من جواه (6)

1 - طه / 52.

2 - الغاشية / 18.

3 - الأعلّم: أبو الفضل جعفر بن الأعلّم الششمري، كان فقيهاً وقاضياً وزاهداً ورعاً، لم يصلنا من شعره سوى مقتطفات في الزهد في الحريضة، قسم شعراء المغرب والأندلس، ص 470. ونفع الطيب، ج 2، ص 436. عما نثر في القرن الخامس الهجري.

4 - الارتكاض: التحرك والاضطراب. 5 - اللهاة: ج اللهوات: اللحمة المشرفة على الخلق في أقصى سقف العم

6 - الحريضة، قسم شعراء المغرب والأندلس (3)، ص 470.

ولقيتُ بعدك أَحَمَدًا *** عبد الإلهِ وَجُنُبًا(1)

في دار خفضٍ مَا اشْتَهَتْ *** نفسُ المقيمِ بِهِ أَتَاهُ(2)

فالموت بالنسبة للعبد المؤمن ليس أمراً مفزعاً، وإنما هو وسيلة لبلوغ ما يتمناه من لقاء الله وحييه محمد صلى الله عليه وسلم والعيش في دار النعيم، لذا فهو يذكره في كل حين ويتمنى أن يكون ذكره هو شغله الشاغل في حياته. لذلك فهو يدعو إلى ذكره والاعتبار به طيلة حياتنا.

وما هو أبو إسحاق الإلبيري، المعروف بحكمه ومواعظه يشخص الموت،

فيراها يغازله ويراقبه فيقول :

تُعَاذِلُنِي الْمَيَّةُ مِنْ قَرِيبٍ *** وَتَلْحَظُنِي مُلَاحِظَةَ الرَّقِيبِ

وَتَشْرُرُ لِي كِتَابًا فِيهِ طَيْبِي *** يَخْطُ الدَّهْرُ أَشْطَرَهُ مُشِيْبِي

كِتَابٌ فِي مَعَانِيهِ غُمُوضٌ *** يَلُوحُ لِكُلِّ أَوْأَبٍ مُنِيبِ

أَرَى الْأَعْصَارَ(3) تَعَصِرُ مَاءَ عَوْدِي *** وَقَدِّمًا كُنْتُ رِيَّانَ(4) الْقَضِيبِ

أَدَالُ(5) الشَّيْبُ يَا صَاحِبَ شَبَابِي *** فَعَوَّضْتُ الْبَغِيضَ مِنَ الْحَيْبِ

وَبَدَّلْتُ التَّاقِلُ مِنْ نَشَاطِي *** وَمِنْ حُسْنِ النَّضَارَةِ بِالشَّحُوبِ

كَذَاكَ الشَّمْسُ يَغْلُوهَا اصْفِرَارٌ *** إِذَا جَنَحَتْ وَمَالَتْ لِلْفُرُوبِ

تَحَارِبْنَا جُنُودٌ لَا تَجَارِي *** وَلَا تُلْقَى بِأَسَادِ الْحُرُوبِ

هِيَ الْأَقْدَارُ وَالْأَجَالُ تَأْتِي *** فَتَنْزِلُ بِالْمَطْبَبِ وَالطَّيْبِ

تُفَوِّقُ(6) أَسْهَمًا عَنْ قَوْسِ غَيْبِ *** وَمَا أَغْرَضُهَا غَيْرُ الْقُلُوبِ(7)

1 - الجنبي : المصطفى المختار.

2 - الخرودة، قسم شعراء المغرب والأندلس (3)، ص 470.

3 - الأعصار : الدهر. 4- ريان : من روي من الماء : شرب وشبع/تنعم واخضر. 5 - أدال : غلب و انتصر.

6- تفوق : من تفوق الشراب : إذا أخذ شيئاً فشيئاً.

7 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 34.

فَأَنى بِإِحْتِرَاسٍ مِنْ جُنُودٍ *** مُؤَيَّدَةٍ تُمَدُّ مِنَ الْغُيُوبِ
 وَمَا أَسَى (1) عَلَى الدُّنْيَا وَلَكِنَّ *** عَلَى مَا قَدْ رَكِبْتُ مِنَ الذُّنُوبِ
 فَيَا لَهْفِي عَلَى طُولِ اغْتِرَارِي *** وَيَا وَيْحِي مِنَ الْيَوْمِ الْعَصِيبِ
 إِذَا أَنَا لَمْ أَنْحِ نَفْسِي وَأَبْكِي *** عَلَى حُوبِي (2) بَتَهْتَانِ سَكُوبِ
 فَمَنْ هَذَا الَّذِي بَعْدِي سَيِّكِي *** عَلَيْهَا مِنْ بَعِيدٍ أَوْ قَرِيبِ (3)

فالحياة كتاب خطه الدهر بأحرف بيضاء، والشيب إنذار بقرب الرحيل ومع ذلك
 فالشاعر لا يخشى الموت، ولا يجزن على الدنيا التي هو مفارقها يوماً، ولكنه يخشى
 على نفسه من نفسه، وما ارتكب من ذنوب وخطايا، لذلك فهو عند ما يكي نفسه
 فلكثرة ذنوبها، وحق له أن يكيها.

وقد يلزم ذكر الموت ذلك الشيخ المسن، الذي اعتلاه الشيب فراح

بذكر نفسه بالموت عله يكون لها زاجراً، وفي ذلك يقول أبو إسحاق الإلبيري :

قَدْ بَلَغْتَ السِّتِينَ وَيَحْكُ فَاعْلَمْ *** أَنْ مَا بَعْدَهَا عَلَيْكَ تَلَوُّمٌ
 فَإِذَا مَا انْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّتْ *** فَصَلِّ الْحَاكِمُ الْقَضَاءَ فَأَبْرَمٌ
 أَنْتَ مِثْلُ السُّجْلِ يُنْشَرُ جِينًا *** ثُمَّ يُطَوَى مِنْ بَعْدِ ذَاكَ وَيُخْتَمُ
 كَيْفَ يَلْتَدُ بِالْحَيَاةِ لَيْبٌ *** فَوَقَّتْ (4) نَحْوَهُ الْمَنِيَّةُ أَسْهَمُ
 لَيْسَ يَذْرِي مَتَى يُفَاجِيهِ مِنْهَا *** صَائِبٌ يَقْصِفُ الظُّهُورَ وَيَقْصِمُ
 مَا لِفُضْنِي ذَوَى وَكَانَ نَضِيرًا *** وَلِظَهْرِي أَنْحَى وَكَانَ مُقَوِّمٌ
 وَلِذَهْرِي نَبَا (5) وَكَانَ مُبِيرًا (6) *** وَلِجَيْشِي أَنْشَى وَكَانَ عَرْمَرَمٌ
 بِمَشِيْبٍ عِنْدَ الْحَسَانِ مُذَمَّمٌ *** بِمَشِيْبٍ عِنْدَ الْحَسَانِ مُذَمَّمٌ
 فَأَنَا الْيَوْمَ عَنْ هَوَاهُنَّ سَالٍ *** وَقَلِيمًا بِهِنَّ كُنْتُ مُتَسِيمٌ (7)!

1 - أسى : أحزن. 2 - حوبي : ذني وإلمي.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 34.

4 - فوق : من فوق : موضع الوتر من السهم، وفوق السهم : جعل الوتر فوقه عند الرمي.

5 - نبا : نبوا ونبوة : لم يقطع. 6 - مبيرا : صالحا.

7 - المصدر نفسه، ص 49.

لو بِرُوقٍ(1)، الزمانِ يَنْطَحُ يَوْمًا *** ركن نَهْلان(2)، هَذِهِ فَتَهْدَمُ
نحن في منزلِ الفناءِ وَلَكِنْ *** هُوَ بَابٌ إِلَى البقاءِ وَسَلِّمُ
وَرَحَى الموتِ تَسْتَدِيرُ عَلَيْنَا *** أبدأً تَطْحَنُ الجَمِيعُ وَتَهْشِمُ
وَأنا مُوقِنٌ بِذاكِ عَلِيمٌ *** وَفِعَالِي فِعَالٌ مَنْ لَيْسَ يَعْلَمُ
وَكَذا أَمْتَطِي الهَوِينا إلى أَنْ *** أَتَوْفَى فَعِنْدَ ذَلكِ أَنْدَمُ
فَعَسَى مَنْ لَهُ أَعْفَرٌ(3)، وَجَهِي *** سَرَى فَاقَتِي إِلَيْهِ فَيَرْحَمُ
فَشْفِيعِي إِلَيْهِ حُسْنُ ظُنُونِي *** وَرَجَائِي أهُ، وَأَنْيَ مُسَلِّمُ
وَلَهُ الجَمْدُ أَنْ هَدَانِي لِهَذَا *** عَدَدَ القَطْرِ مَا الحَمَامُ تَرْتَمُ
وَإِلَيْهِ ضَرَاعَتِي وَابْتِهَالِي *** فِي مُعافاةِ شَيْبَتِي مِنْ جَهَنَّمَ(4)

وهكذا نرى الشاعر يذكر الموت دائما، ونذيره في ذلك هو الشيب وكبر السن، ومع ذكره للموت فهو غير متعظ به، لأننا نراه مازال متعلقا بالدنيا وفتنتها، فهو يذكر الصبا والشباب وهيامه بالحسان، وإنما لنحس بجزنه وألمه على ما بلغ إليه من كبر وشيب حتى أصبح مذمم من طرف الحسان، لذلك فسلواه عنهن ليست عن زهد ورغبة في اجتنابهن، وإنما هن اللائي أصبحن ينفرن منه ويتجنبنه، وهذا ليس زهدا، وإنما هو صراع نفسي ومعاناة الشاعر من الضعف الإنساني أمام الحياة ومغرياتها، ومكافحة الشهوة العارمة.

وهو كما قال الدكتور إحسان عباس: «إذا بكى نفسه أحسست أنه ينتزع انتزاعا من هذا العالم الأرضي ويفارقه وروحه معلقة به»(5).

وإذا كان الشيب منذرا بالموت وقرب الأجل، فليس معنى هذا أن الموت شيء جديد على ابن آدم، بل إنه يراه كل يوم، في توديع أخ أو تشييع صديق عزيز

1- الروق: القرن/كتابة عن الشدائد. 2- نهلان: جبل معروف بالحجاز. 3- أعفر: عفر الوجه بالتراب: مرغه فيه
4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 50-49.
5 - تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، لإحسان عباس، ص 137.

كما شيع من قبل أجداده وآباءه، إذن فهو نهاية كل حي، سواء كان قويا أو ضعيفا، فقيرا أو غنيا. وفي ذلك يقول أبو إسحاق الألبيري :

أين الملوكُ وأين ما جمعوا وما *** ذخروهُ من ذهبِ المتاعِ الذهبِ
 ومن السَّوابغِ(1) والصَّوارمِ والقنأ *** ومن الصَّواهِلِ بُدُنٍ وشَوَازِبِ(2)
 كانت سَوَابِقُهَا تُحْمَلُ مِنْهُمْ *** أَمَّارُ أُنْدِيَةِ وَأَسَدُ كَنَائِبِ
 كانوا ليوتَ خفيةٍ لكَتَنَهُمْ *** سَكَنُوا غِيَاضَ(3) أَسِنَّةٍ وَقَوَاضِبِ
 قَصَفَتَهُمْ رِيحُ الرَّدَى وَرَمَتَهُمْ *** كَفَّ الْمُنُونِ بِكُلِّ سَهْمٍ صَائِبِ(4)

ففي الأبيات دعوة للاعتبار والاتعاظ، لأن الموت نهاية كل حي. وأبو إسحاق يذكرنا بذلك فيقول :

فإنَّ الرَّدَى عَالَ أَهْلَ التَّقَى *** فلم يبقَ إلَّا الغشومُ العنيدُ
 وأوَدَى بِكُلِّ خَلِيلٍ وَدُودٍ *** فأينَ - ولا أينَ - خِلٌّ ودُودٌ؟
 وكم من أخي بُقَّةٌ قَدَّ لَحْدَتُ *** فَلِلَّهِ مَا غَيَّنَهُ اللَّحُودُ
 وأنكَلِنِي الأَنْسُ نُكَلَّ البَلَدَاتِ *** فصِرْتُ كَأَنِّي غَرِيبٌ وَجِيذُ
 وكم من شَقِيٍّ يُوَارِي التُّرَابَ *** وَكَمٍ مِنْ سَعِيدٍ يُوَارِي الصَّعِيدَ(5)

وكانا بالشاعر بعد إلحاحه على هذه الفكرة، ينصحنا قائلا : عليك أن تتذكر الموت أيها الإنسان، فلا تطمئن نفسك إلى الدنيا مهما أقبلت عليك، لأن الموت متربص بك يترصدك في كل حين، وهو النهاية الحتمية التي ستنتهي إليها، وارتقبه في كل لحظة، لأنك لا تدري متى يحين أجلك، وتكون نهايتك.

ويذكر شعراء الزهد بالموت، ويعظون بالعمل الصالح والتقوى، لأنها خير

زاد يتزود به الإنسان في دنياه لآخرته.

1 - السوابغ : م سابعة : واسعة. 2 - شواذب : ضامرة. 3 - غياض : وأغياض/الأجمة.

4 - ديوان أبي إسحاق الألبيري ، ص 106.

5 - المصدر نفسه، ص 107.

ولنقرأ قول أبي إسحاق الإلبيري :

كَمْ آمِنٍ لِلْمُنُونِ لَاهٍ *** عن الرَّدَى بَاتَ مُطْمَئِنًا
صَبَّحَهُ وَافِدُ الْمُنَابَا *** فَعَايَنَ الْمَوْتَ حِينَ عَنَا(1)،
حَتَّى إِذَا مَا قَضَى بَكَاهُ *** حَمِيمُهُ مَعْوِلًا مُرِنًا(2)،
وَأَرْوَةٌ فِي لَحْدِهِ وَسَتُوا(3) *** عَلَيْهِ قَيْدَ التَّرَابِ سَنَا
وَانْتَهَبُوا مَالَهُ وَسَتُوا الْغَارَاتِ فِيمَا حَوَاهُ شَنَا
لِيَلَّ هَذَا فَكُنْ مُعِدًا *** مَا قَدْ أَعَدَّ الْهَدَاةُ مِنَا
وَارْتَقِبِ الْمَوْتَ فَهُوَ حَتْمٌ *** يَخْتَرِمُ(4) الْطِفْلَ وَالْمُسِينَا(5)

و«كم» هنا تفيد الكثرة، إذ كثير من الناس لا هين عن الموت، لذا فالشاعر يذكرنا به، ويدعونا إلى الزهد في الحياة، ويحضنا على العمل الصالح لأنه هو الزاد الذي نأخذه معنا إلى القبر، وينصحنا بترقب الموت، وانتظاره في كل حين.

والإنسان العاقل هو الذي يقف أمام الموت وقفة اعتبار، ويعلم بأنها كأس لا بد من شربها، وضريبة لا بد من تسديدها، فكيف ينسأه أو يتناسأه؟ وإذا كانت عامة الناس غافلة عن هذه الحقيقة، فإن الزهاد لا ينسوه أبداً، وكيف تنسى الطريدة

مطاردها وسهامه مصوبة نحوها في كل حين، وفي ذلك جاء قول ابن خفاجة :

شَرَابُ الْأَمَانِي لَوْ عَلِمْتَ سَرَابُ *** وَعُتْبِي(6) اللَّيَالِي لَوْ فَهِمْتَ عَنَابُ
إِذَا أَرْتَجَعْتَ أَيْدِي اللَّيَالِي هِبَاتِهَا(7) *** فَعَايَةَ هَاتِيكَ الْهَبَاتِ نِهَابُ
وَهَلْ مُهَمَّةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا طَرِيدَةٌ *** تَحُومُ عَلَيْهَا لِلْجَمَامِ عَقْسَابُ
تَخْبُ(8) بِهَا مِنْ كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ *** مَطَايَا إِلَى دَارِ الْبَلَى وَرِكَابُ(9)

1 - عن : ظهر. 2 - مرناً : رن رنيناً وأرن : رفع صوته بالبكاء. 3 - سنا : سن التراب : صبه برفق.

4 - يخترم : يشق، واحترمه الموت : أخذه.

5 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 112.

6 - العتبي : الرضى. 7 - هباتها : عطاياها. 8 - تخب : من الخبب وهو ضرب من العدو/السرعة.

9 - ديوان ابن خفاجة، ص 217.

وقد سيطرت فكرة الموت على شاعرنا بعد توبته فراح يرددّها في كل قصيدة رثاء، لأنه رأى الموت حدثاً جسيماً، وحدوثه مؤكداً، وليس لأحد حيلة في رده أو التخلص منه، وهو مع تسليمه لقضاء الله وإيمانه بأن الموت سنة من سنن الله في خلقه، إلا أنه لم يستطع التغلب على غريزة الخوف من الموت، فصورها في أبشع صورة إذ جعلها طيراً جارحاً يحوم حول الطريدة الضعيفة ألا وهي « مهجة الإنسان » والتي لا نجاة لها من العقاب « الموت » الحائمة حولها، فلا مناص من الموت وليس لأحد حيلة في التخلص منه. مهما كانت قوته وجبروته. لذلك فهو يثير في نفوسنا الحزن و الرعب، وكيف لا ونحن نودع كل يوم خلا أو صاحباً، وها هو ينادي جميع الناس مهما كانت وضعيتهم في المجتمع. وفي ذلك يقول ابن خفاجة :

وَكَيْفَ يَغِيضُ الدَّمْعُ أَوْ تَبْرُدُ الْحَشَى *** وَقَدْ بَادَ أَقْرَانُ وَفَاتَ شَبَابُ
فَمَا نَابَ عَنْ خِلِّ الصَّبَا خِلُّ شَيْبَةٍ *** وَلَا عَاضَ مِنْ شَرِّخِ الشَّبَابِ حِصَابُ
أَلَا طَعْنَا(1)، مِنْ صَاحِبٍ وَشَيْبَةٍ *** فَهَلْ هُنَا مِنْ ظَاعِنِينَ لِإِيَابِ
دَحَا(2)، بِهِمَا صَرَفُ اللَّيَالِي إِلَى الْبَلَى *** وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تَرَابُ
فَهَا أَنَا أَبْكَى كُلِّ مَعْهَدٍ رَاحَةٍ *** تَضَاحَكَ أَحْسَابُ بِهِ وَجَبَابُ
أَقْلَبُّ طَرْفِي لَا أَرَى غَيْرَ لَيْلَةٍ *** وَقَدْ حُطَّ عَنْ وَجْهِ الصَّبَاحِ نِقَابُ
كَانِيٍّ وَقَدْ طَارَ الصَّبَاحُ حَمَامَةً *** بِمُدِّ جَنَاحِيهِ عَلَيَّ غُرَابُ
عَلَى حِينٍ لَا غَيْرَ اعْتِبَارِي خَطَابَةً *** فَتَوَعَّى وَلَا غَيْرَ الْعَوْبِلِ جَوَابُ
وَقَدْ جَاشَ بَحْرُ بَيْنِ جَنِيٍّ مَائِحٍ(3)، *** لَهُ زُخْرَةٌ فِي وَجْهِي وَعَبَابُ
فِيالهِمُّ مِنْ رَكِبِ صَحْبٍ تَتَابَعُوا *** فُرَادَى وَهُمْ مُلْدٌ(4)، الْفُصُونِ شَبَابُ
دَعَا بِهِمْ دَاعِي الرَّدَى فَكَأَنَّمَا *** تَبَارَتْ بِهِمْ خَيْلٌ هُنَاكَ عَرَابُ(5)

1 - طعناً وطعناً من طعن : سار ورحل. 2 - دحا : دفع ورمى. 3 - مائج : من ماج : اختلط

4 - ملد الغصن : اهتز ولان. الملدج أملاذ : الشباب/النعمة.

5 - ديوان ابن خفاجة، ص218.

فَهَا مَمَّ وَسَلَّمُ الدَّهْرِ حَرْبٌ كَانَمَا *** جَشَا بِهِمْ طَعْنٌ لَهُ وَضِرَابٌ
هُجُودٌ(1) وَلَا غَيْرَ التَّرَابِ حَشِيَّةٌ *** لِجَنَبٍ وَلَا غَيْرِ القُبُورِ رِقَابٌ
فَحَتَّى مَنَى تَبْرِي اللَّيَالِي سِهَامُهَا *** وَحَتَّى مَنَى أَرْمَى بِهَا فَأُصَابُ(2)

فالموت حقيقة مؤكدة، لا يفر منها أحد. وإذا كان الشاعر هنا يعبر عن حزنه وألمه لفراق الأصحاب والخلان، فهو في موقفه هذا يدعونا إلى لقاء ربنا بنفوس خاشعة راضية، وإنما يعبر بفريزة البشر عن الخوف من الموت، والحزن على الأصحاب، إلا أننا نراه يدعونا إلى التجلد، والصبر في آيات أخرى إذ يقول :

وَلَا عَجَبٌ أَنَّا ذَلَّلْنَا لِجَادِثٍ *** تَذَلُّ لَهُ الْآسَادُ وَهِيَ رِغْصَابٌ
وَأَنَا خَضَعْنَا لِلْمَقَادِيرِ عَنُودٌ *** كَمَا خَضَعَتْ تَحْتَ السَّيُوفِ رِقَابٌ
وَلَوْ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ كَانَ أَصَابُهُ *** لَجَاشَتْ نَفُوسٌ لَا تُقَادُ صِعَابُ(3)

والخلاصة التي ينتهي إليها الشاعر بعد هذه الوقفة على المقابر وتدبر أحوال البشر الذاهبين هي إقراره بأن العمل لا يكون إلا للدار الآخرة، لأن الحياة لا قيمة لها، فيقول :

أَلَا إِنَّ جِسْمًا يَسْتَحِيلُ لِتُرْبَةٍ *** وَإِنَّ حَيَاةً تَنْتَهِي لِخَرَابٍ
فَلَا سَعْيَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لِأَجَلٍ *** وَلَا ذُخْرَ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ثَوَابُ(4)

والشاعر إذ يقف أمام الموت، يقف معتبرا متجلدا، وإن كانت نفسه لا تخلو من دمة حزن، ولكنه مع ذلك فهو صابر ومتجلد، راض بمشيئة الله عز وجل.

1 - هجود : ضد نام/سهر.

2 - ديوان ابن خفاجة، ص 218.

3 - المصدر نفسه، ص 220.

4 - المصدر نفسه، ص 221.

2- ذكر القبر :

إن ذكر الموت والقبر يتلازمان في كثير من القصائد حتى يصعب الفصل بينهما. وفي الحقيقة هما متلازمان لأن القبر مرتبط بالموت، إذ هو الملاذ والمسكن والمستقر، وذكره يكون - غالبا - للاعتبار والوعظ. كما أنهم عندما يذكرون القبر يذكرون الحساب والعقاب : والجنة والنار، كما جاء في قول ابن حمديس :

يُنْكَ فِيهِ مَصْرَعُكَ *** وفي الضريح مَضْحَعُكَ
غَرَّتْكَ دَنِيَاكَ الَّتِي *** لها شرابٌ يُخْدَعُكَ
هِمَّتْ بِحُبِّ فَارِكٍ(1) *** وقلما تمتعك
يُضْرِكُ الحَرَصُ بِهَا *** والزهدُ فيها يَنْفَعُكَ
لا تَأْمَنَنَّ مَنِيَّةً *** إنَّ عَصَاها تَقْرَعُكَ
مَغْرِبُكَ القُبْرِ الَّذِي *** يَكُونُ مِنْهُ مَطْلَعُكَ
إِنَّ فَرَقْتَكَ تَرْبَةً *** فاللهُ سَوْفَ يَجْمَعُكَ
وَالْحَسَابِ مَوْقِفٌ *** أهْوَالُهُ تُرَوِّعُكَ
كَمْ جَرَّ مَا أَشْفَقْتَ مِنْ *** لَمْسِكَ مِنْهُ إِصْبَعُكَ
فكَيْفَ بِالنَّارِ الَّتِي *** مِنْ كُلِّ وَجْهِ تَلْدَعُكَ(2)
يَرَاكَ ذُو العَرْشِ إِذَا *** ناديتُهُ وَيَسْمَعُكَ
فَتَقُّ بِهِ وَلَا يَكُنُّ *** لِنَفْسِيهِ تَضْرَعُكَ(3)

فالشاعر قد اتخذ الموت والقبر وسيلة للوعظ والإرشاد. وهو عندما يذكر القبر، يقرنه بذكر الحساب والعقاب، والنار المحرقة، وأهوال يوم القيامة التي لا ينجو منها إلا العائذ بربه. وقد وفق الشاعر في اختياره لحرف "الكاف" رويًا لقصيدته، إذ "الكاف" من

1- فارك : المرأة الفارك هي التي تبغض زوجها.

2- تلدعك : تلعحك وتحرقك.

3- ديوان ابن حمديس ص 348.

الحروف الانفجارية⁽¹⁾ ذات الصوت القوي الشديد، وذلك بلائيم الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر، فهو قلق على مصير الإنسان الغافل الجاهل، الذي غرته الدنيا وأنسته وظيفته في هذه الحياة، وألته عن التفكير في الدار الآخرة، لذلك فهو يقرع سمعه بهذه القصيدة فيحذره وينذره بقوة، وإلحاحه على قرع النفوس الغافلة دفعه لتكرار حرف "الكاف" ست وعشرون مرة (26)، في القصيدة، إذ ذكره في البيتين الأول والثاني ست مرات. ومما ألزم به الشاعر نفسه أيضا هو : التزامه بحرف "العين" المضموم قبل الروي الساكن، ولعل ذلك ساعد على إعطاء القافية هذا الصوت القوي الذي ينقل إحساس الشاعر وأفكاره بقوة ووضوح. ومع هذا التكلف الواضح في القصيدة : يمكننا أن نقول إنه وفق في اختيار القافية المقيدة، لأنه بدعونا إلى التقييد بذكر الله وطاعته والتضرع إليه. والموت والقبر هنا وسيلة للترغيب في طاعة الله وعبادته وحده لا شريك له.

ويظل الإنسان جاهلا، يسعى لتعمير الدنيا، وينسى أن هناك موتا وحياة أخرى، تكون للجزاء والحساب، يومها يجني الإنسان ما زرعت يدها. لذا فالشعراء اهتموا بهذا الأمر، ودعوا إلى العمل الصالح، والتزود بخير الزاد ليوم المعاد. وفي ذلك يقول ابن خفاجة :

أَلَا نَسَرُّ كُلَّ بَقَاءٍ ذَهَابُ *** وَعَمَّرَانُ كُلَّ حَيَاةٍ خَرَابُ
وَكُلُّ مَدِينٍ بِمَا كَانَ دَانَ *** فَتَمَّ الْجَزَاءُ وَتَمَّ الْحِسَابُ
فَلَا تَجْرُ كَفَّكَ فِي مُهْرَقٍ (2) *** بِمَا لَا يَسُرُّ هُنَاكَ الْكِتَابُ
فِيَانِكَ يَوْمًا بِجَمَازِي بِهِ *** وَإِنَّ يَدَا كَتَبَتْهُ تَرَابُ
وَلَا خُطَّةَ غَيْرِ اثْنَتَيْنِ *** إِمَّا نَعِيمٌ وَإِمَّا عَذَابُ
فَرَحْمَاكَ يَا مَنْ عَلَيكَ الْحِسَابُ *** وَزُلْفَاكَ (3) يَا مَنْ إِلَيْهِ الْمَأْبُ (4)

1- فقه اللغة، لمحمد خضر/ط، 1981م، دار الكتاب العربي. بيروت، ص 231.

2- مهرق : أسم مفعول من أهرق الماء : صبّه. 3- زلفاك : قربك.

4- ديوان ابن خفاجة : ص 213، 214.

فالشاعر يذكرنا بما يكون بعد الموت، ويقول إن هناك أمرين فقط، هما إما النعيم أو العذاب، لذا فهو يطلب الرحمة من صاحب الرحمة.

والشاعر لا يكتفي بذكر الموت والقبور هنا، بل يتعداهما إلى ذكر الحساب والجزاء، ويقف عندما أخبرنا به الله عز وجل في كتابه العزيز، أو ما أوحى به إلى نبيه الكريم (ص) بأن الإنسان في الدار الآخرة إما في الجنة أو النار.

وقد يقف الشاعر عند القبر يسأله عن حال النفس بعد مفارقتها للجسد، فهل سيسمع لسؤاله رداً؟ وإن كنت لم تفعل أنت ذلك، وتاقت نفسك لمعرفة الجواب، فاستمع مع ابن خفاجة لرد الجواب :

يا أيها النَّائِي لَسْتُ بِمُسْمِعٍ *** سَكَنَ الْقُبُورِ وَبَيْنَنَا أَسْدَادُ
ماتَفَعَلُ النَّفْسِ النَّفِيسَةَ عِنْدَمَا *** تَتَهَاجَرُ الْأَرْوَاحُ وَالْأَجْسَادُ
كَشِيفَ الْغِطَاءِ إِلَيْكَ عَنِ سِرِّ الرَّدَى *** فَأَجِبْ بِمَا تَنَدَى بِهِ الْأَكْبَادُ(1)

فالشاعر إذ يقف أمام القبر مخاطباً ومنادياً، لكنه لا يسمع جواباً، وما كان ليبتظر الجواب، لكنه يسأل ليلفت انتباهنا، ويدعونا إلى التفكير في الدار الآخرة، التي ينتهي إليها كل إنسان. فما أجهل من يفتخر بالدنيا وينساق وراء ملذاتها، وينسى أنه سيودع يوماً في قبر مظلم موحش وضع. وقد يعتمد الشاعر هنا إلى ذكر طائفة من الأمثال والحكم حتى يقنع سامعيه فيقول :

أَقْصِرْ فَلَا ذَاكَ الْخَلِيلُ بَأَيِّ *** يَوْمًا وَإِلَّا ذَاكَ الشَّبَابُ مُعَادُ
فَقْصَارُ مَجْتَمَعِ الْأَصْحَابِ فُرْقَةٌ *** وَجَمَارُ أَنْوَارِ الشَّبَابِ رَمَادُ
وَتَرَكَّتَهُ(2) وَالْمَجْدُ بِرَغْمِ أَنْفِهِ *** مَتَوَسِّدًا حَيْثُ التَّرَابُ وَسَادُ
فِي مَوْطِنٍ نَزَلَتْ جُرْهُمُ قَبْلَهُ *** وَتَحَوَّلَتْ إِرْمٌ إِلَيْهِ وَعَادُ(3)

1- ديوان ابن خفاجة : ص 232.

2- تركته هاء العائب ما تعود على الوزير أبي محمد بن ربيعة وهو المرئي في هذه القصيدة. انظر الديوان، ص 231.

3- ديوان ابن خفاجة : ص 232-233.

أُمَمٌ يَغْصُ بِهَا الْفِضَاءُ طَوْتَهُمْ *** كَفُّ الرَّدَى طَيِّ الرَّدَاءِ فَبَادُوا
 سَادُوا وَقَادُوا ثُمَّ أَجْلَى جَمْعُهُمْ *** عَنْ وَحْدَةٍ فَكَأَنَّهُمْ مَا قَادُوا
 عَفَتِ الْبِنَاءُ عَلَى اللَّيَالِي وَالْبَنَى *** وَتَلَا حَقَّ الْأَجْمَادِ وَالْأَوْغَادِ
 فَأَصِخَّ طَوِيلًا هَلْ تَعَى مِنْ مَنْطِقِي *** وَأَنْظُرْهُ مَلِيًّا هَلْ تَرَى مَا شَادُوا
 زَمْرٌ تَعَدُّ بِهَا الْحِصَى مِنْ كَثْرَةٍ *** وَلرَبِّمَا فَنَيْتُ بِهَا الْأَعْدَاءُ
 أَلْوَى بِهِمْ وَلِكُلِّ رُكْبٍ سَائِقٍ *** زَمَنٌ حَدَا بِرُكَايِهِمْ يُقْتَادُ (1)

فالشاعر يذكر الموت، ويذكرنا بأنه نهاية لكل حي، لذلك لا بد لنا من التجلد والصبر،
 والاتعاظ بمن سبقونا، أولئك الذين استفدوا قوتهم في جمع الأموال، وبناء الأجداد
 الدنيوية لكنهم غادروها إلى دار الخلود، ولم يأخذوا منها شيئا. فعلى المرء أن يتعظ،
 وله في هذه الأمثال المقتبسة من التاريخ عبرة وموعظة، وليعلم أنه ليس له إلا القبر
 الموحش المظلم والأرض الصلبة التي ستكون له فراشا بدلا من المطارف والحشايا التي
 كان ينعم بها في الدنيا.

وفي هذه القصيدة رؤية ملحمية، صور الشاعر من خلالها تعاقب الجماهير
 العظيمة التي قضت نحبها وعفا رسمها، ولم يبق فوق هذه الأرض شيء يذكر من
 أجدادها وجبروتها، فعثا جبروتك أيها الإنسان.
 وهكذا يبقى القبر ملهم الشعراء الحكمة والموعظة، وتظل فكرة الموت
 مسيطرة على كل حكيم بصير.

إذ كل من يقف على القبور لا بد أن يعلم أن تلك هي نهايته، وأن الحياة
 زائلة بكل ما فيها ومن عليها. وما أدهش الشاعر ودعاه للتعجب هو اغترار الإنسان
 بالدنيا، وإنهاك قواه في جمع الثروة والمال، وبناء المجد ونسيانه لما ينتظره من موت
 وحساب، لذا فهو يحذر وينذر بالموت المتربص بكل حي.

1- ديوان ابن خفاجة : ص 233.

لهذا فمن طلب الجاه بغير التقى فهو الجاهل الخاسر، لأن الجاه والمال لا يغيان غدا صاحبهما، وما هما إلا عرض من أعراض الدنيا الزائلة، لذا فالشاعر أبو إسحاق الإلبيري من أولئك الشعراء الذين استوقفهم الموت، وذكر بهم بأن هناك في الدار الأخرى منزلتان لا ثالث لهما، وهما إما الجنة أو النار. لذا فهو ينصح ويعظ ويقول:

يا طالباً جاهاً بغير التقى *** جهلت ما يدني من الله
 لا جاه إلا جاه يوم القضا *** إذ ليس حكم لسوى الله
 وصار من يسعد في جنة *** عالية في رحمة الله
 يسكن في الفردوس في قبة *** من لؤلؤ في جيرة الله
 ومن يكن يقضى عليه الشقا *** في حاجم في سخط الله
 يسحب في النار على وجهه *** بسابق الحكيم من الله
 يا عجباً من موقن بالجزا *** وهو قليل الخوف من الله
 كأنه قد جاءه مخبر *** بأمنه من قبل الله
 يارب جبار شديد القوى *** أصابه سهم من الله
 فأنفذ المقتل منه وكم *** أضمت نصمي (1) أسهم الله
 وغاله (2) الدهر ولم تنه *** أنصاره شيئا من الله
 واستل (3) قسراً (4) من فصور إلى الأحداث واستسلم لله
 مرتهنا (5) فيها بما قد جنى *** يخشى عليه غضب الله
 ليس له حول ولا قوة *** الحول والقوة لله (6)

فها هو الشاعر يذكرنا بالحياة الأخرى وبالموت والقبر، ويحضنا على العمل الصالح. وتأخذ وسيلة لذلك ذكر حال الناس يوم القيامة، فهم إما في الجنة العالية يحظون

1 - أصمى : أضمت : سكت / نصمي، تسكت. 2 - غاله : أهلكه وأخذ من حيث لا يدري.

3 - استل : أخذ وسرق خفية. 4 - قسراً : كرها. 5 - مرتهنا : من الرهن : وهو حبس الشيء مطلقاً.

6 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 63- 64 .

وينعمون برحمة ربهم الذي أنزلهم الفردوس وقربهم منه، وإما في النار يشقون.
 والشاعر عندما يتحدث عن الموت والدَّار الأخرى يرغب الناس ويحببهم
 في لقاء ربهم، حاثا إياهم على التقوى وخشية الله، لأنها الوسيلة الوحيدة التي تقربهم
 من رب العزة. وهو بذلك يوافق ما دعا إليه الدين الإسلامي، ويحفز الناس على العمل
 من أجل الفوز بالجنة، ويذكر النار للتحذير منها. قال أبو إسحاق الإلبيري :

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ *** ماذا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ
 تَنفَدُوا¹، مِنْ عَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ *** كَمِرجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ
 فَيَسْتَفِيثُونَ لَكِي يُعْتَبُوا²، *** أَلَا لَعَاءُ³، مِنْ عَشْرَةِ النَّارِ
 وَكُلُّهُمْ مُعْتَرِفٌ نَادِمٌ *** لو تُقَبَّلُ التَّوْبَةُ فِي النَّارِ⁴،

- 1- تنفد : تشرق. 2- يعتبون : من أعتب : أزال عتبه. 3- لعاءك : دعالك : أقامك من عثرتك.
 4- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 85.

يَهْوِي بِهَا الْأَشْقَى عَلَى رَأْسِهِ *** فالويلُ لِلْأَشْقَى مِنَ النَّارِ
فَنَارَةٌ يَطْفُو عَلَى جَمْرِهَا *** وتارةً يَرْسُبُ فِي النَّارِ
وَكَلَّمَا رَامَ (1)، فَرَارًا بِهَا *** فَرُّ مِنَ النَّارِ إِلَى النَّارِ
يَطُوفُ مِنَ أَفْعَى إِلَى أَرْقَمِ (2) *** وَسُمُّهَا أَقْوَى مِنَ النَّارِ
وَكَمَّ بِهَا مِنَ أَرْقَمِ لَابِنِي (3) *** يَلْسَعُ مَنْ يُسْتَعَبُّ فِي النَّارِ
لَا رَاحَةَ فِيهَا وَلَا فَتْرَةَ *** هِيَهَاتَ لَا رَاحَةَ فِي النَّارِ
أَنْفَاسُهَا مُطَبَّقَةٌ فَوْقَهُمْ *** وهكذا الأَنْفَاسُ فِي النَّارِ
سُبْحَانَ مَنْ يُمْسِكُ أَرْوَاحَهُمْ *** فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ
وَلَوْ جِبَالُ الْأَرْضِ تَهْوِي بِهَا *** ذَابَتْ كَذَوْبِ الْقِطْرِ (4) فِي النَّارِ (5)

وإذا كان الشاعر قد عرض أهوال النار، ودرجاتها وأحوال الناس فيها، فذلك لكي يحض الإنسان على العمل من أجل اجتنابها، فيكثر من الطاعات والأعمال الصالحة التي من شأنها أن تجنبه سوء ذلك المصير.

وليس هناك من سبيل سوى الإكثار من ذكر الله عز وجل علّه يهديهم فينعمون بهديه، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ (6).

والشاعر في هذه القصيدة قد بلغ مبلغا عظيما من الجودة والإحسان، وكفاه فضلا أنه ضمنها معاني كثيرة من القرآن الكريم، وقد أحسن التصوير، فألقى الرعب والرهب في القلوب، وفي ذلك دعوة غير مباشرة للعمل الصالح والتقوى، وأي صورة مرعبة تلك التي يصور فيها أصحاب النار وهم يسحبون على وجوههم . وهذا

1- رام : رام الشيء يروم روما ومراما : طلبه. 2- الأرقم من الجيات : الذي فيه سواد وبياض وتجمع أرقام.

3- لابني : لا يضعف. 4- القطر بكسر القاف وتسكين الطاء : النحاس.

5- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 85.

6- طه/120-121 .

المعنى مقتبس من قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ،
ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾ (1).

ولعل تكرار لفظة "النار" وترديدها في القصيدة من أسرار بلاغتها وتأثيرها العميق في
القلب، هذا فضلا عما يحدته ذلك التكرار من جرس موسيقي عذب.

والموت عند هؤلاء الشعراء ليس نهاية وفناء، إنما هو بداية حياة أخرى،
تلك الحياة هي التي يكون فيها الجزاء والعقاب، وبه ينتقل الإنسان من دار عمل إلى
منزل جديد، إما أن يكون روضة من رياض الجنة، أو حفرة من النار، وفي ذلك يقول
ابن حزم مذكرا باليوم الآخر :

تنبه ليوم قد أظلك ورده (2) *** عصب يواقي النفس فيها احتضارها
تبراً فيه منك كلّ محالط *** وإن من الآمال فيه انهيارها
فأودعت في ظلماء ضنك (3) مقرها *** يلوح عليها للعيون اغرارها (4)
تنادي فلا تدري المنادي مفردا *** وقد حطّ عن وجه الحياة خمارها
إذا حشرت فيه الوحوش وجمعت *** صحائفنا وانتال (5) فينا انتشارها
وزينت الجنات فيه وأزلفت (6) *** وأذكي من نار الجحيم استعارها
وكوّرت الشمس المنيرة بالضحي *** وأسرع من زهر النجوم انكدارها (7)
لقد جلّ أمر كان منه انتظامها *** وقد حلّ أمر كان منه انتشارها (8)
وسيرت الأجدال والأرض بدلت *** وقد عطلت من مالكيها عشارها
فإمّا للدار ليس يفنى نعيمها *** وإمّا للدار لا يفكّ إسارها
بحضرة جبار رفيق معاقب *** فتحصى المعاصي كبرها و صغارها
ويندم يوم البعث جاني صغارها *** وتهلك أهلها هناك كبارها (9)

1- القمر/48.

2 ورد : حضر وأنى. 3- الضنك : الضيق من كل شيء. 4- اغرار : مصدر اغير : وهو شدة الغبار.

4- انتال : استخرج ما فيها. 6- أزلفت : قرّبت. 7- انكدرت النجوم : تناثرت. 8- انتشار : رمي وتفرق.

9- طوق الحمامة ص 314,315,316.

سَتْفِطُ أَجْسَادُ وَتَحْيَا نَفُوسَهَا *** إذا ما استوى أسرارها وجهارها
إذا حفهم عفو الإله وفضلُهُ *** وأسكنهم داراً حلالاً عِقَارُهُ(1)،
سَيَلْحَقُهُمْ أَهْلُ الْفُسُوقِ إذا استوى *** بجلبة سَبَقِ طَرْفُهَا وَحِمَارُهَا(2)،

فهاهو يذكر بالموت واليوم الآخر، يوم تنشر الصائف، وتزين الجنات وتسعر النار، يوم تحاسب كل نفس على ما قدمت. إنها معان مستقاة من القرآن الكريم ، وإن مهارة الشاعر لتظهر في حسن اقتباسه وقدرته على التضمين .

وهكذا فالموت عند هؤلاء الشعراء هو نهاية حياة زائلة، وبداية حياة أخروية أبدية.

ويبقى الموت دائما النهاية الأليمة التي تجعل الإنسان سجين حفرة ضيقة، وظلام سرمدي، ويد قوية تنقض على الإنسان فتزديه حفرة عميقة، وتقتل معه آماله وطموحه.

وإذا كانت فكرة الموت تقلق الوجوديين وتمتحن حياتهم، وتجعلهم يعيشون في قلق وضياع، بل تحول حياة بعضهم إلى جحيم من الهم والقلق يفضي بهم أحيانا إلى الانتحار، أو العيش في عبث وفزع واستسلام لليأس والضياع. فالموت هاجس عظيم يستحوذ على أفكارهم ويجعلهم يرتعدون خوفا من غموضه، وربما تمنوا الموت للخلاص من خوفهم منه.

أما المؤمنون بالله، فيرون الموت مرحلة من مراحل الانتقال إلى حياة أخرى، لأنهم يؤمنون بالبعث والحساب. والدنيا عندهم جسر يعبرون منه إلى حياة الآخرة حيث النعيم أو الشقاء.

ومصير الإنسان عندهم ليس غامضا أو مجهولا، لذلك فهو لا يثير في نفوسهم حزنا أو قلقا، أو شكاً وحيرة. لذلك إذا ذكروا الموت إنما يذكرونه للتذكير والاعتبار، والحث على العمل الصالح والإيمان القوي استعدادا للدار الآخرة.

1- العقار : كل ما يعمر أي يبرر ويذبح.

2- طوق الحمامة ص 314,315,316.

ومع ذلك تظل صورة الموت مرعبة ومفزعة، لذا صوروه صيادا والإنسان الطريدة التي لا بد من وقوعها في شراكه، وجسدوه في أبشع الصور وأفظعها ترهيبا وتخويفا، علّ الإنسان يعتبر ويقبل على الطاعات والعبادات.

وإذا لمسنا حزنا عند هولاء الشعراء عند ذكرهم الموت، فذلك راجع لشعورهم بقلّة الزاد وطول السفر، وحزن النفس على ماأفنت من قوة وشباب في السعي وراء الملذات والانغماس في الآثام. فحزّنهم حزن على التقصير في حق رب الكون والعالمين، ومن ثم كانت النار صورة من الصور المرعبة التي تدفع بقوة إلى العمل الصالح اتقاء لها، وخشية الإنسان منها توازيها رغبته في الجنة ونعيمها، ولو كانت قصيدة أبي إسحاق الإلبيري في ذكر "النار" بتيمة في هذا الباب لأغنت عن غيرها من القصائد في هذا المضمار، لما تضمنته من تصوير دقيق وصادق للنار، مما يشير في النفس الملح والفرع، فتنقاد لا شعوريا رغبة ورهبة، وتقبل على الطاعات والعبادات.

وهذا الشعر بغض النظر عن صدق هولاء الشعراء، أو عدم صدقهم يظل زادا لمن أزد التزود بالتقوى.

الفصل الرابع

الدراسة الفنيّة

توطئة

1- بناء القصيدة.

2- اللّغة والأسلوب.

3- التّصوير الفنّي.

توطئة :

قبل أن نتعرض للخصائص الفنية التي تميز بها شعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس للهجرة، كان لابد من الوقوف على إجابات لتساؤلات فرضت نفسها لدى المهتمين بالأدب الأندلسي. وكان من هذه التساؤلات : هل تأثر شعراء الأندلس بشعراء المشرق ؟ وإلى أي مدى كان هذا التأثر ؟ وهل تقليدهم للمشاركة ألقى شخصيتهم الأندلسية ؟.

لقد حاولت تجنّب هذه التساؤلات، ولكن طبيعة البحث في الأدب الأندلسي استدعت هذا الموضوع، لأنّ جلّ الدارسين والباحثين فيه يلحّون دائما على هذه الفكرة، ويحاولون جاهدين إثبات تقليد الأندلسيين للمشاركة، وتأثرهم بهم في الأدب(1)، وكأنّهم يدرسون أديين مختلفين وليس أدبا واحدا(2).

إنّ الأدب الأندلسي أدب عربي(3)، أولا وقبل كلّ شيء، والأندلس الإسلامية كانت جزءا لا يتجزأ من الوطن العربي، منذ الفتح الإسلامي لها إلى سقوطها نهائيا في يد الإسبان عام 1492م(4)، ولعلّ هذا كاف ليجعل أديهم أدبا عربيا، ولا غرابة إذا تشبّث الفرع بالأصل، وحافظ على أصالته العربية(5)، فضلا عن كونه مسلما، يستمد قوته ويثبت وجوده بمحافظته على دينه وعقيدته الإسلامية، التي بدونها سيزول. ومن هنا جاء تعلق الأندلسيين بالمشاركة، لأنّ ذلك نزوع إلى تراثهم وديارهم

1 - انظر الفن ومذاهبه في الشعر العربي، شوقي ضيف - دار المعارف بمصر، ط 1969/7م، ص 416.

- وتاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، لإحسان عباس، ص 110 وما بعدها.

- دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، لطاهر أحمد مكي، دار المعارف، مصر، ط 1987/3م، ص 203.

- والشعر والشعراء في العصر العباسي، مصطفى الشكعة، دار العلم للملايين - بيروت ط 1991/7م، ص 214.

2 - الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني، لحامد حفني داود، ط 1981/2م، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص 7.

3 - تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، لمصطفى عليان عبد الرحيم، مؤسسة الرسالة 1978م، ص 11.

4 - في التاريخ العباسي والأندلسي، أحمد مختار العبادي، ص 287.

5 - تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، لمصطفى عليان عبد الرحيم، ص 111.

وآدابهم وفنونهم، ولا ضير إذا نظر هذا الصغير إلى ذلك الكبير بعين الإعجاب والتقدير، واتخذ مثله الأعلى، وسار على حذوه.

وعلى الرغم من ذلك، فإنه لكل منهما شخصيته التي تميزه عن الآخر في آدابه وفنونه وأتماط حياته، لارتباط كل منهما ببيئته وواقعه(1). وكما أننا لا نفرق بين أدب المشرق فنقول: هذا أدب مصري، وذاك أدب عراقي، وذلك أدب شامي.. إلى غير ذلك من التقسيمات، كذلك لا يمكننا أن نعد الأدب الأندلسي أدبا قائما بذاته(2)، غريبا عن جسم الأمة العربية، وننظر إليه على هذا المنوال، محاولين إخضاعه للمقارنة بينه وبين أدب هذه الأمة في المشرق العربي، مدعين التقليد والتأثر على سبيل فصل هذا عن ذاك. «إن الأدب العربي شعره ونثره كل متكامل، لا يختلف في إقليم عنه في إقليم آخر، فالشعر أو النثر في الشام، أو العراق أو مصر أو بلاد ماوراء النهر أو الأندلس، أو شمال إفريقية أو الحجاز أدب عربي موحد النسج والأداء يعالجه الأدباء في هذه الأقاليم بلغة الأدب وبالأسلوب الفني، لا يختلف فيه أديب عن أديب آخر، فالألفاظ العربية واحدة، وتراكيب الجمل ونسج العبارات واحد، والصور الفنية واحدة، حتى أغراض الأدب شعرا ونثرا لا تكاد تختلف في إقليم عنه في الآخر..»(3).

وإنه لا يليق بنا - نحن أبناء هذه الأمة - أن ننظر إلى الأدب الأندلسي على أنه أدب غريب عن أمتنا العربية، وتتناسى كون أولئك الأدباء - شعراء وكتابا - الذين خضعوا في كتاباتهم لقواعد اللغة العربية، وأسلوبها الكلاسيكي الموروث، الذي سدها ولحمته من لغة قريش، لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، والشعر منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا(4).

1 - تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، لمصطفى عليان عبد الرحيم، ص 92.

2 - المرجع نفسه، ص 11.

3 - الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني، لحامد حفني داود، ص 7.

4 - المرجع نفسه، ص 8.

إن النظرة الإقليمية لهذا الأدب هي نظرة جائرة خاطئة، تحمل في طياتها الضربة القاضية لأمتنا وأدبنا العربي، وهي وحدها كفيلة بإهدار الشحنة العاطفية التي تجمع بين الأقطار العربية الإسلامية. ولقد كان المشرق وسيظل بالنسبة للعرب والمسلمين، مدرج الآباء والأجداد، وموطن العربية الأول، ومهد الرسالة، ومهبط الوحي، لتظل الثقافة العربية الإسلامية واحدة لدى هذه الشعوب. وقد كان تمسك الأندلسيين بالمشرق والتفاتهم إليه؛ محافظة على الأصل وتمسكا به، خاصة عندما زال مجد قرطبة الأدبي مع بداية القرن الخامس الهجري، كما أنه كان إثباتا للذات التي كانت مهددة بخطر الأجنبي المتربص بها، وفي ظل الصراع الإسلامي والنصراني وضحت النزعة العربية الإسلامية، وبرزت أكثر في اتخاذ التراث عنصرا رئيسا في الثقافة والأدب⁽²⁾، «وفي حمى هذه النزعة العربية الإسلامية تضاعف الاهتمام بأدب الأصالة العربية كالشعر الجاهلي والإسلامي»⁽³⁾، وذلك أمر طبيعي، وليس عيبا ينقص من قيمة أدبهم. ولعل أصدق كلمة قيلت في هذا المضمار هي كلمة الدكتور أحمد سليمان الأحمد في حديثه عن العلاقة الجدلية بين اللغة والشعر، إذ قال: «... من حق أي شاعر عربي في أي عصر أن يكتب على الوزن الكامل، ليس من حق أي أحد أن يمنعه أو ينقده لذلك.. لأن البحر الكامل شيء من الشعراء العرب في أي زمان ومكان، كما لغته شيء منه»⁽⁴⁾، وهذا ما رأيناه عندما تحدثنا عن ثقافة هؤلاء الشعراء - أي شعراء الأندلس - والتي استمدت من الثقافة العربية، قواعدها وأسلوبها العربي الموروث، وسداها ولحمها وروحها من الدين الإسلامي الخفيف.

ورغم هذا الاتصال الروحي والوجداني، بين هذه الآداب، إلا أننا عند قراءتنا للشعر الأندلسي، تطالعنا تلك الشخصية الأندلسية، التي تظهر ملامحها من

1 - تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، مصطفى عليان عبد الرحيم، ص 111.

2 - المرجع نفسه.

3 - الشعر الحديث بين التقليد والتجديد، لأحمد سليمان الأحمد، دار العربية للكتاب، 1983م، ص 15.

خلال براعتهم في التصوير، الذي استمدوه من بيئتهم الخلابية، مصدر إلهامهم وشعرهم.

وهذا لا يجعلنا ننفي وجود التشابه بين الأدب الأندلسي والمشرقي، لا سيما في الشكل، لتقيد الأندلسيين وتمسكهم بأصالتهم. أما من حيث المواضيع فطلت تعبر عن أفكارهم وتجاربهم الذاتية التي أفرزتها تلك البيئة بملامحها المختلفة، وسماتها المتميزة⁽¹⁾، فوصف الطبيعة - مثلاً - من الأغراض التي برع فيها الأندلسيون وأظهروا فيها قدرة فائقة على الخلق والابتكار⁽²⁾؛ وقدرتهم في شعر الزهد لا تقل عن ذلك⁽³⁾. وعليه فإننا لا نستطيع أن ننفي عن الأندلسيين شخصيتهم، لأنّ الأدب هو الإنسان، والإنسان ابن بيئته وعصره، يتأثر بما حوله من ظروف ومستحذات، وفيما يلي سنحاول أن نتبين تلك السمات الفنية التي تميز بها ديوانهم الشعري في غرض الزهد، خلال القرن الخامس الهجري، هذا القرن الذي عرف فيه هذا اللون من الشعر نهضة وتطوراً لم يعرفهما من قبل، وكانت له خصائصه المميزة التي سنحاول أن نتحسسها فيما يلي:

أولاً : بناء القصيدة :

إنّ أوّل ما يطالعنا عند تصفحنا لهذا الديوان الشعري، هو ذلك الشكل الفني والموضوعي الذي فرض نفسه على هؤلاء الشعراء، المتمسكين بالثقافة الأدبية العربية، القائمة على المحافظة على الموروث القديم، والذي استقوا منه نظام وشكل القصيدة في بنائها الشعري، الذي يقوم على دعائم خاصة بالشعر العربي، أوجدها لنفسه، وأكد عليها النقاد قديماً وحديثاً⁽⁴⁾.

1 - الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني، حامد حفيّ دارد، ص 137.

2 - تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، لأحسان عباس، ص 193 - 215.

3 - المرجع نفسه، ص 135.

4- انظر : موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3، 1965م، ص 14. وقضايا النقد

الأدبي، لبدوي طبانة - دار المريح - الرياض - ط/1984م، ص 145.

وهذا ابن رشيق يحدد لنا تلك الدعائم والأركان التي يقوم عليها الشعر، فيقول : « الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء، وهي : اللفظ، والوزن، والمعنى، والقافية، فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزونا مقفى وليس بشعر؛ لعدم القصد والنية، كأشياء أتزنت من القرآن، ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما لم يطلق عليه أنه شعر...»(1).

وهكذا نجد للشعر أركاناً وقواعد يقوم عليها، كما يقوم البناء على الدعائم والأسس التي تمنحه القوة وتقيم له هيكله الذي يعرف به. والبناء الشعري لا يقف عند هيكل القصيدة الخارجي من مطلع ومقدمة وتخلص وخاتمة، بل يتعدى ذلك إلى الوزن والقافية، والترصيع والتصريع، ووحدة البيت(2)، وكل ذلك بناء وهيكل خارجي لا يقوم الشعر إلا عليه، وهو الذي يستدعي الأركان الأخرى، كاللفظ والمعنى وما يتبعهما من صور وأساليب آخذة بناصيتهما ومبينة عنهما.

وما يعيننا أولاً من هذا كله، هو الجانب الشكلي الذي تقوم على أساسه وركائزه القصيدة الشعرية، وإن كنا لا نستطيع الاستغناء عن الأركان الأخرى، إلا أن الشكل الخارجي هو أول ما يلفت انتباه الناظرين، ويشدهم إليه، وعليه كان تقديمي لهذا الموضوع - بناء القصيدة - ومحاولة الوقوف على خصائصه وسماته.

1 - الأوزان والقوافي :

لقد كان الشعر العربي يستمد قيمته الجمالية من صورته الموسيقية، القائمة على الوزن والقافية(3)، وهما « ركنان أساسان من أركان القصيدة العربية»(4).

1 - العمدة، لابن رشيق، ج 1 ص 119 .

2 - انظر : بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث، ليوسف بكار - دار الأندلس - بيروت - (د.ت)، ص 203-209.

3 - العمدة لابن رشيق، ج 1، ص 134.

4 - بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث، ليوسف حسين بكار، ص 158.

والمقصود بالأوزان والقوافي هو تلك القواعد والضوابط الشعرية التي استنبطها الخليل بن أحمد من خلال استقراءه لشعر العرب ثم جمعها في علم سماه علم العروض(1). وجاء هذا العلم كاملا ناضجا دقيقا فلم « يجرؤ أحد* على تسور محراب الخليل»(2)، وظل الناس يتدارسون تلك القواعد ويفهمونها، حتى أيامنا هذه، ولم يزد واحد عليها حرفا(3).

والوزن له أصالة في تركيب اللغة العربية، فالمصادر فيها أوزان، والمشتقات لها أوزان، ولأبواب الفعل أوزان... وقوام الاختلاف بين المعنى حركة على حرف من حروفها، تتبدل بها الدلالة ويتغير بها المعنى(4).

وأما الوزن بالنسبة للشعر فهو حد من حدوده، وركن من أركانه الأساسية، فهو الذي يعطي للشعر نغمات موسيقية، ويشكل الإيقاع الجميل، الذي تستلذه الأذن وتطرب له النفس. ولذا ظلت تلك الأوزان محل إعجاب وعناية من طرف الشعراء والنقاد، وقد استحوذ ذلك الإعجاب على النفوس، وباتت تلك الموسيقى التقليدية شيئا تطرب له الأذن أولا وقبل كل شيء(5).

والبيت الشعري هو الوحدة العروضية الأساسية في القصيدة، ومنه يمكننا أن نتعرف على الوزن الشعري، الذي هو عبارة عن وحدات متكررة يبنى عليها البيت والقصيدة(6)، فتكرار الجزء أو التفعيلية في البيت يعرف البحر(7)، أي الوزن، ولعل سبب تسمية هذه الأوزان بالبحور راجع إلى كونها تستوعب كل المشاعر

1 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص18.

2 - دراسات في علم العروض والقافية، لأحمد محمد الشيخ، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - ليبيا -

ط2، 1988م، ص21. «إلا الممداركي» فقد وضع المذخرفش (الذي هو الممداركي) بيتا

3 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص49.

4 - اللغة الشاعرة للعقاد، ص88.

5 - التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار العودة - بيروت - ط4، 1981م، ص79.

6 - المرجع نفسه، ص78.

7 - دراسات في علم العروض والقافية، أحمد محمد الشيخ، ص55.

والأحاسيس التي تختلج في نفوس الشعراء، ومن ثم فالبحر يتسع بتفعيلاته لكل الأفكار والمعاني والأحاسيس التي تتلاطم وتترامى ترامي الفيافي والقفار(1).
والبحور الشعرية عند العرب ستة عشر بحراً، تختلف كثرة وقلة، وتتركب من تفاعيل خماسية وسباعية(2)، أو من خماسية فقط، أو سباعية فقط.
والتفاعيل كما قنتها الخليل تتكون من الأسباب والأوتاد والفواصل(3)، وهذا ما جعل العقاد يقول: «إنما الوزن المقسم بالأسباب والأوتاد والتفاعيل والبحور خاصة عربية فادرة المثال في لغات العالم»(4).
وهذا القول يبين لنا خاصية الوزن وخصوصيته، وهي صفات وخصائص الأوزان الخليلية(5).

وإذا كان البحر الشعري يتكون من تفاعيل أو أجزاء معينة ومعروفة، حددها الخليل وأحصى عددها، وهي عشر تفاعيل، تتكون منها البحور الشعرية؛ وهي تفاعيلتان خماسيتان هما: فعولن وفاعلن. ولثمان سباعية وهي: مستعلن / مستفع لن / فاع لاتن / مفاعيلن / مفاعلتن / متفاعلن / مفعولات / فاعلاتن(6).
ومن تبعنا لهذه التفعيلات، نلاحظ أنها عبارة عن سكنات وحركات تتكرر بشكل معين في كل بيت، وهي من هنا لا تحمل خصائص معينة في ذاتها، لأنها عبارة عن قوالب جاهزة، ولا تستمد خاصيتها إلا إذا وظفت في الشعر(7). فهي عبارة عن مقاطع صوتية، تتكون إما من حرفين: متحرك وساكن، أو متحركين، أو

1 - دراسات في علم العروض والقافية، لأحمد محمد الشيخ، ص55.

2 - المرجع نفسه.

3 - دراسات في علم العروض والقافية، لأحمد محمد الشيخ، ص31.

4 - اللغة الشاعرة للعقاد، ص85.

5 - دراسات في علم العروض والقافية، ص20.

6 - العروض وإيقاع الشعر العربي، لسيد البحراوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1993م ص26.

7 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص78.

متحركين وساكن، أو متحرك وساكن ومتحرك، أو أربعة أحرف أو خمسة أحرف، وهذه المقاطع الصوتية هي التي سماها الخليل بالأسباب والأوتاد والفواصل⁽¹⁾. وهنا تفرض علينا قضية نقدية نفسها وهي: ما علاقة الوزن بالموضوع؟ وهل نلزم الشاعر بالوزن ونفرضه عليه؟ هذا ما سنحاول الوقوف عليه فيما يلي:

أ - علاقة الوزن بالموضوع:

إذا رجعنا إلى الفكرة السابقة، التي بينت لنا مفهوم الوزن، تبين لنا للوهلة الأولى أن الرد على هذا السؤال واضح، وسلمنا معها بأنه لا علاقة للوزن بالموضوع، لأن الوزن كما أسلفنا عبارة عن قوالب جاهزة تشكلت من مقاطع صوتية، تتكرر في البيت الشعري وفق نظام خاص، وتلك المقاطع هي التي تكون التفاعيل التي تتكون منها البحور الشعرية. وهذه التفاعيل إذا أفرغناها من التجربة الشعرية وذكرناها بعيدة عنها فإنها لا تحمل للسامع أي معنى، أما إذا وُظفت في الشعر⁽²⁾ فإنها تحمل إليه معنى وعاطفة وفكرة، وموسيقى جميلة تطرب النفس.

ففضل الوزن يتجلى فيما يليه للفظ من إيقاع ونغم عذب منشؤه عدد الحروف، والحركات والسكنات المتكررة، فيصبح الشعر مطرباً للنفس أولاً وقبل كل شيء، إذ أنه «للموزون من الكلام قبل تفهم المعنى، وقبل عرفان المغزى، إيقاع يطرب النفس وينبه الحس، كالغناء المطرب الذي يهتز سامعه لطيب لحنه، وإن لم يكن عارفاً بما في ضمنه»⁽³⁾. ومن هنا تتضح لنا أهمية الوزن وفائدته بالنسبة للسامع والقارئ. لكن كيف يختار الشاعر الوزن والقافية لقصيدته؟ إن النقاد القدامى كابن طباطبا وابن رشيق كانوا يرون أن الشعر يقال بالفطرة، ولا يحتاج إلى معرفة العروض إلا من ضعفت فطرته، وفي ذلك يقول ابن طباطبا: «فمن صح طبعه وذوقه لم يحتاج

1 - دراسات في علم العروض والقافية، لأحمد محمد الشيخ، ص 31-32.

2 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص 78.

3 - المعيار في نقد الأشعار، لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد، تح: عبد الله محمد سليمان هندراوي،

ط 1، 1987م، مط الأمانة - مصر - ص 175.

إلى الاستعانة على نظم الشعر بالعروض الذي هو ميزانه، ومن اضطرب عليه الذوق لم يستغن عن تصحيحه وتقويمه بمعرفة العروض والحذق به حتى تعتبر معرفته الاستفادة كالطبع الذي لا تكلف معه» (1). فالشاعر غير مطالب بإعداد الوزن، لأن الشعر عندهم يقوم على الطبع وحسن الذوق، فلا يحتاج إلى معرفة العروض إلا من ضعف طبعه، كما يقول ابن رشيق: «المطبوع مستغن بطبعه عن معرفة الأوزان وأسمائها وعللها لنبو ذوقه عن المزاحف منها والمستكره. والضعيف محتاج إلى معرفة شيء من ذلك، يعينه على ما يحاوله من هذا الشأن» (2). فابن رشيق يتفق مع ابن طباطبا ويرى رأيه، هذا إن لم يكن قد نقل لنا ذلك الرأي نقلاً. غير أنه من المؤكد أنهم كانوا يفضلون الشعر المطبوع، ولا يهملون الدربة والتعلم، فهذا الجرجاني يقول: «الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت فيه هذه الخصال فهو المحسن المبرز...» (3). فالشعر عندهم علم له قواعده وأدواته التي يجب أن تعرف وتضبط قبل نظمه.

ومن بين هذه الأدوات، التوسع في فهم اللغة والبراعة في الإعراب والرواية لفنون الآداب.. والوقوف على مذاهب العرب في تأسيس الشعر وبنائه، ورواية الشعر أي حفظه تقوي الملكة وتصل الذوق (4)، لذا فهم - أي النقاد القدامى - دعوا إلى تعلم قواعد الشعر، وإن كان ذلك عن طريق روايته وحفظه، ومعرفة مذاهب العرب في تأسيسه، أو لم تكن تلك الأوزان مستخرجة من شعر العرب الذي دعوا لروايته وحفظه.

1 - عيار الشعر لابن طباطبا، دار المعارف - الإسكندرية - مصر، تح: محمد زغلول سلام، ط3، (د.ت)، ص41.

2 - العمدة لابن رشيق، ج1، ص134.

3 - المصدر نفسه، ص122.

4 - عيار الشعر لابن طباطبا، ص42.

ثم إنهم عدوا نظم الشعر علما وصناعة، فهذا ابن طباطبا يقول : « فإذا أراد الشاعر بناء قصيدة مخض المعنى الذي يريد بناء الشعر عليه في فكره نثرا، وأعد له ما يلبسه إياه من الألفاظ التي تطابقه، والقوافي التي توافقه، والوزن الذي يسلس له القول عليه »(1). وهكذا فاختيار الوزن والقافية، من الأمور التي دعا إليها النقاد القدماء، وإن كان ذلك يأتي عفوا؛ أي بعد إعداد الألفاظ والمعاني الملائمة لها. ومرحلة التفكير في الوزن والقافية تأتي بعد نضج موضوع القصيدة واكتمال تجربتها، وذلك هو الذي يعين الشاعر على اختيار الوزن المناسب لها، لأن « الموسيقى الشعرية أداة للتعبير عن مشاعر النفس، وقد تكون هذه المشاعر في حاجة إلى ذلك الثقل الذي يحدثه الوند في أول الكلمة »(2). فالموسيقى دائما تماشى مع المعاني والتدفق الشعري، فلا انفصام بينهما، وربما لهذا السبب دعا النقاد القدماء إلى الطبع وأحوا على توفره لدى الشاعر.

غير أن الطبع وحده غير كاف، وخاصة في هذه العصور البعيدة عن عصور السليقة والقطرة السليمة، فأصبحت الضرورة ملحة على تعلم العروض لأهميته وضرورته، فهذا طه حسين من نقاد العصر الحديث يؤكد على ضرورة الوزن في الشعر، لأنه جزء منه وركن من أركانه فيقول : « وإذن نحن نستطيع أن نعرف الشعر آمين بأنه الكلام المقيد بالوزن والقافية والذي يقصد به الجمال الفني »(3). وهو بهذا الرأي يذهب إلى ما ذهب إليه ابن رشيق قديما في حديثه عن الوزن الذي يقصد به نظم الشعر لأن من الكلام ما وافق الوزن ولكنه ليس شعرا(4).

1 - عيار الشعر لابن طباطبا، ص 43.

2 - النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي في الشعر الجديد، لعللى بونس، ط 1985م، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص 106.

3 - في الأدب الجاهلي، لطف حسين، دار المعارف - مصر - ط 2، (د.ت)، ص 132.

4 - العمدة لابن رشيق، ج 1، ص 119.

فالوزن ركن من أركان الشعر، ولكن لا بد فيه من القصد والنية، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا وهو إعداد الوزن واختياره للكلام الذي نريد إخراج شعرا. لذا يجب على الشاعر أن يتعلم العروض ويتقن القوافي لأن ذلك يصقل المواهب وينمي الذوق لديه، حتى يصبح جزءا من نفسه فلا يفرض عليه فرضا من الخارج. وأما إحضار الوزن أولا ثم التفكير في المعاني والألفاظ التي تصب في تلك القوالب - الوزن - فإنه يجعل النظم باردا خاليا من الأحاسيس والمشاعر، لأن الشعر تجربة شعرية أولا، تعبر عن معاناة نفسية سبقت القوالب والأوزان، وهذا ما جعل النقاد المعاصرين يقولون : إن الشعر يصنع نفسه بنفسه⁽¹⁾، وذلك بعد نضج الموضوع في نفس الشاعر وقبل أن يظهره للناس في شكل قصيدة.

إن الحديث عن اختيار الوزن يقودنا إلى قضية أخرى، هي ما العلاقة بين

الوزن والموضوع؟

إنها قضية ذات أهمية لذلك عني بها النقاد العرب، فربطوا الوزن بالناحية الشكلية - مثل ما فعل الخليل - وحديثا ربطوا الوزن بالحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر عند نظمها. فهذا إبراهيم أنيس يقول : « علاقة الوزن بالحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر ساعة النظم علاقة وطيدة.. فالشاعر حين يكون هادئا أقدر على النطق بمقاطعته الكثيرة دون أن يشعر بها إبهام في لفظها.. »⁽²⁾ والأوزان الشعرية لا ترتبط بموضوع القصيدة وغرضها وإنما ترتبط بالحالة النفسية للشاعر، أو لم ينظم الشاعر الجاهلي معلقاته المتعددة الأغراض، والمختلفة المعاني والموضوعات على وزن واحد، فلو قلنا بأن الوزن يرتبط بالموضوع أو الغرض لكان ذلك ادعاء، وكذبه التراث الشعري العربي، الذي اختلفت فيه المواضيع والأغراض، وقد تشابه الأوزان والمواضيع والأغراض مختلفة، إلا أن « الأوزان الشعرية ليس لها خصائص في حد ذاتها

1 - بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث، ليوسف حسين بكار، ص 161.

2 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص 175.

وإنما تكسب خاصيتها بعد أن يخرج فيها الشعر، وهذه الخصائص ليست ثابتة، بل هي متغيرة مع كل شعر جديد يوضع فيها «(1)». وتظل نغمات القصيدة وموسيقاها مرتبطة بالحالة النفسية للشاعر(2).

ولعل ما يتبادر إلى الذهن الآن، هو ما هي الأوزان التي استعملها شعراء الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري، وهل لهم فيها ابتكار وتجديد؟ وما علاقة تلك الأوزان بالمواضيع المطروقة؟

ب - الأوزان المستعملة :

من تتبعنا لهذا الشعر، واستقرائنا له تبين لنا أنه منظوم على الأوزان الخليلية (البحور) القديمة لتمسك هؤلاء الشعراء بعمود الشعر العربي القديم، عملاً بسيرة أسلافهم العرب الذين عرفوا بميلهم الطبيعي إلى المحافظة على القيم الموروثة، وخاصة فيما يتعلق بالشعر، الذي يعد ديوانهم، ومرآة حياتهم وعلامة نبوغهم(3).

ولكن قد يقول قائل هنا إن هذا النهج الشعري الموروث قد خولف وحطمت قوالبه الجاهزة، وقضي على تلك الرتابة الموسيقية بظهور فن جديد في الأندلس في أواخر القرن الثالث الهجري عرف بفن الموشحات، هذا الفن الذي يعد ظاهرة موسيقية غنائية، بالإضافة إلى كونه ظاهرة أدبية ولغوية صورت عصرها وبيتها(4)، ووجد له صدى كبيراً في الأوساط الأدبية، واحتضنه الأدباء في المشرق والأندلس، ونما وتطور، وأصبح له أعلامه ورواده.

فأين هؤلاء الشعراء في فن الزهد من هذه الموشحات؟

1 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص 78.

2 - المرجع نفسه، ص 79.

3 - ملامح الشعر الأندلسي، لعمر الدفاق، دار الشرق العربي - بيروت - (د.ت)، ص 327.

4 - المرجع نفسه، ص 331.

إنهم لم يلجوا بابها في زهدياتهم، وحبسوا نفوسهم في البحور الخيلية التراثية، ففسحوا عليها قصائدهم، والتزموا بها فلم يخرجوا عنها إلى فن الموشحات أبداً. ولعل ذلك راجع إلى ارتباط هذا الفن في نشأته بالغناء والموسيقى والزف اللانه (1)، وشعر الزهد شعر حاد، جاء لمحاربة تلك النزعات الدنيوية التي تبعد الإنسان عن التفكير في ملكوت الله عز وجل.

هذا وإن كان أتباعهم من شعراء الزهد والتصوف في القرن السادس والسابع نظموا شعرهم على نمط الموشحات (2)، بل حتى المدائح النبوية نظمت على وزن الموشحات أيضاً.

أما شعراء الزهد في القرن الخامس الهجري بالأندلس، فقد التزموا بالأوزان الخيلية والقافية، ونظموا شعرهم على تلك الأوزان. وقد بلغ عدد الأوزان المستعملة اثني عشر. بجزء، لكن بنسب مختلفة كما سيتبين لنا من الجدول التالي :

الإسلامية للعلوم

1 - ملامح الشعر الأندلسي، لعمر الدقاق، ص 327.

2 - انظر ديوان الششتري في القرن السادس الهجري، نظم على وزن الموشحات والأزجال، وموضوعاته في

الزهد والتصوف.

النسبة المئوية	عدد القصائد	البحر
11,7%	15	الطويل
9,36%	12	الكامل
7,02%	09	السريع
5,46%	07	البيسط
5,46%	07	الوافر
4,60%	06	المنسرح
3,9%	05	المتقارب
2,34%	03	الرميل
2,34%	03	الخفيف
1,56%	02	الرجز
0,78%	01	المتدارك
1,56%	02	الرميل المجزوء
1,56%	02	الرجز المجزوء
1,56%	02	المجتث المجزوء
0,78%	01	الخفيف المجزوء
0,78%	01	البيسط المجزوء
		[المخلع]

وبعد عرض هذا الجدول المبين لأوزانهم الشعرية المستملة يمكننا أن نسجل

الملاحظات التالية :

1 - إن شعرهم بني على البحور الطويلة - غالبا - والقليل منه جاء على البحور القصيرة وأنجزوءة، وذلك راجع لارتباط الوزن بالحالات النفسية التي كان عليها هؤلاء الشعراء ساعة نظمهم لهذا الشعر، فشعر الزهد يستدعي النفس الهادئة البعيدة عن الانفعال والاضطراب النفسي، لأن الشاعر فيه يقف أمام ربه متضرعا مبتهلا، أو شاكرا حامدا، كما قد يقف أمام نفسه متلوما محاسبا ومعابيا، أو قد يتوجه إلى الناس واعظا مرشدا، وهو في كل هذه الحالات يكون هادئ النفس، وهدوء النفس تصلح له البحور الطويلة الكثيرة المقاطع : « كالطويل والبسيط والكامل » (1). ولكن هناك من المواضيع ما نظم في حالة الجزع واليأس أو الأمل، خاصة تلك المواضيع التي نظمت ساعة الوقوف مع الذات وتذكر الذنوب، والقبر، والجنة والنار، حتى هذه المواضيع التي نظمت ساعة الجزع والحزن تخيروا لها البحور الطويلة (2)، لكثرة مقاطعها، وصلاحتها لاستيعاب تلك الأشجان والأحزان. ولما كانت المواضيع المطروقة جادة، تطلبت هذه البحور الطويلة التي بإمكانها أن تستوعب تلك المعاني الغزيرة، وتسع لتلك المشاعر الفياضة.

2 - إن البحر الطويل احتل المرتبة الأولى في شعرهم، وبذلك ظل هذا البحر - لديهم - محافظا على مكانته في الصدارة، تلك المكانة التي كان يشغلها منذ العصر الجاهلي (3). وإن كنا لا نستطيع هنا أن نعمم هذه القاعدة، لأنها قاعدة جزئية تظل محصورة في هذا الشعر المدروس، ويمكن أن نجد لها استثناءات في غير هذا الموضوع لأن الوزن متعلق بالحالة النفسية للشاعر (4)، و« لا يكمل ولا تظهر أبعاده وخصائصه اللغوية والإيحائية والنفسية إلا بعد أن تنلبس به التجربة الشعرية وتبرز إلى عالم الوجود » (5). وهكذا فخصائص الوزن مرتبطة بانفعال الشاعر ورؤاه الفنية والفكرية، ويظل اختيار الوزن

1 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص 178.

2 - انظر المرجع نفسه، ص 177 والتفسير النفسي للأدب لعز الدين إسماعيل، ص 80.

3 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص 178.

4 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص 78، 79.

5 - النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي. مكتبة الخانجي - القاهرة - ط 1978م، ص 240.

مرتبطا بها، ومن هنا يمكن القول بأن الشعر يخلق نفسه بنفسه (1).

3 - من الملاحظ أنهم وظفوا معظم البحور الخليلية (2)، وبنسب مختلفة، حيث كان للبحور الطويلة التامة النصيب الأكبر من الشيوخ، وأما البحور المجزوءة والقصيرة فهي نادرة، لم توظف إلا قليلا وفي موضوع عميق. وهما: ذم الدنيا وزخرفها، وذكر القبر والموت، وذلك إلى جانب البحور الطويلة التي لم يستغن عنها حتى في هذين الموضوعين مما يؤكد أنهم لم يخصصوا بحرا لموضوع دون آخر، فالطويل والكامل مثلا نجدهما وظفا في كل المواضيع، وكذا البسيط والوافر والمنسرح، مما يؤكد صلاحية هذه البحور لكل موضوعات الزهد.

4 - قلة استعمال بحر الرجز والذي لم يستعمل سوى أربع مرات : مرتين مجزوءا ومرتين تاما، مع أن هذا البحر قد عني به الرجاز في العصر الأموي والعباسي ووظف كثيرا في الشعر التعليمي. وشعر الزهد يهدف إلى غاية تعليمية تربوية في غالب الأحيان، وقد استعمله أبو العتاهية في أرجوزته المعروفة بذات الأمثال والتي تعد من روائع زهدياته (3).

ولعل سبب عزوفهم عن هذا البحر وقلة اهتمامهم به يعود إلى تمسكهم بالتراث العربي القديم، وهذا البحر لا توجد له مرويات كثيرة في العصر الجاهلي (4).
5 - ومن الملاحظ أيضا، أن البحور المهملة هي البحور التي لا تناسب هذا الشعر لخفة أوزانها وملاءمة إيقاعها لحالات الطرب والسرور، مثل المديد والمقتضب والمضارع، هذين الأخيرين اللذين لا يأتيان إلا مجزوءين. وقد لاحظنا قلة استعمالهم للبحور المجزوءة، والتي لم ترد في شعرهم إلا بنسبة ضئيلة تعادل حوالي 7.4,84% وذلك راجع

1 - انظر : علاقة الموضوع بالوزن، هذا الفصل، ص 181.

2 - انظر الجدول، ص 187.

3 - ديوان أبي العتاهية، دار الطباعة والنشر، ط 1980م، ص 493.

4 - العروض وإيقاع الشعر العربي، لسيد البحراوي، ص 41.

لعجز هذه البحور القليلة التفعيلات عن استيعاب المعاني الغزيرة والمتدفقة التي تتزاحم على ألسنة هؤلاء الشعراء وهم واقفون أمام الناس يعظون ويرشدون، فيظنّون ويسهبون، ويقدمون الحجج والبراهين لإقناع سامعيهم، أو قد يكونون في حالة حزن وأسى فيحتاجون إلى تلك البحور الطويلة التامة ذات المقاطع الكثيرة ليتمكنوا من الانطلاق في التعبير لإفراغ ما في نفوسهم من شحنات الحزن والألم والأسى، انظر مثلاً قصيدة ابن خفاجة التي وقف فيها متأملاً معتبراً، فلم يجد سوى «البحر الطويل» بتفعيلاته الكثيرة، الذي قال فيه الخليل عندما سئل عن سبب تسميته: «لأنه طال بتمام أجزائه» (1)، وهو لا يأتي مجزوءاً ولا مشطوراً ولا منهوكاً (2). وتفعيلاته ثمانية، أربعة خماسية وأربعة سباعية، والخماسية مقدمة على السباعية كالتالي:

فَعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن * * فَعولن مفاعيلن فعولن مفاعلن .

وفي هذه التفعيلات الطويلة أخرج إلينا ابن خفاجة رائعته التي يقول فيها:

بَعِيثُكَ هَلْ تَدْرِي أَهْوَجُ الْجَنَائِبِ *** تَحَبُّ بِرَجُلِي أَمْ ظُهُورُ النَّجَائِبِ
فَمَا لَحْتُ فِي أَوْلَى الْمَشَارِقِ كَوَكْبًا *** فَأَشْرَقْتُ حَتَّى جُبْتُ أُخْرَى الْمَغَارِبِ
وَجِدَّاتِهَا دَانِي الْفِيَابِي فَأَجْتَلِي *** وَجُوهَ الْمَنَايَا فِي قِنَاعِ الْغِيَاهِبِ (3)

وعمضي الشاعر مفصحا عن هذه الآهات والأنات، ثم يقف أمام جبل شامخ يتأمله ويستلهم منه الحكمة والموعظة، ثم يتوجه إلى ربه مسترحماً متضرعاً. إن القصيدة بلغت أبياتها ستة وعشرين بيتاً. وكان الشاعر فيها هادئاً متأملاً، فجاءت معانيه بطيئة متأنية، معتدلة لطيفة، وقد وسعها صدر الطويل الرحب الطلق، الذي يخلص إليك وأنت لا تكاد تشعر به (4).

وهذا ابن سارة يتأمل الدنيا وحال الناس فيها، فيراهم متهافتين عليها،

1 - العمدة لابن رشيق، ص 136.

2 - دراسات في علم العروض والقافية، لأحمد محمد الشيخ، ص 61.

3 - ديوان ابن خفاجة، ص 15-16.

4 - العروض وإيقاع الشعر العربي، لمسيد البحراري، ص 46.

رغم حقارتها فيصف ذلك ويقول :

بنو الدنيا يُجهل عظموها *** فجلت عندهم وهي الحقيرة(1)،

ولم يجد سوى البحر الوافر، لوفرة حركاته(2)، فيلبسه تجربته الشعرية، التي عبر من خلالها عن نظرتة للعالم، والتي يفهم من خلالها زهده فيها. وقد جاء هذا الوزن المتكون من ست تفعيلات سباعية (مفاعلتن) مناسبة للحالة النفسية التي كان عليها الشاعر، وهي نفسية هادئة متأمل، وذلك التأمل لا يناسبه الإسراع لذلك اختار «الوافر» «السريع المتلاحق»، ولكنه يوقفه الانقطاع المفاجئ في عروضه وضربه «(3)». كما أنه لجأ للزخافات والعلل ليستعين بها على الحد من حركاته فجاءت «مفاعلتن» معصوبة «مفاعلتن» لأن السكون محطة يتوقف عندها الشاعر ليعلم ويتأمل ويستتج، ثم يعبر عن تلك التجربة بهدوء وسكون.

- أما ابن العسال فعندما نظر إلى الدنيا وتأملها وجدها شيئاً لا يدوم، فاختار للتعبير عن حقارتها وتفاهتها "الرملة الجزوء" لعله بتلك الكلمات الخفيفة، والوزن السريع يخفف من حمل معاناته، فقال :

انظر الدنيا فإن *** أبصرتها شيئاً يدوم

فاغد منها في أمان *** إن يساعدك النعيم(4)،

و«الرملة» بحر سداسي "التفاعيل" مكون من تفعيلات سباعية (فاعلاتن) مكررة ست مرات، ثلاثة في كل شطر. وأما الشاعر فقد جاء به مجزوءاً أي حذف تفعيلات من كل شطر فأصبح :

فاعلاتن فاعلاتن

فاعلاتن فاعلاتن

1 - الخريدة، قسم شعراء المغرب والأندلس (2)، ص 331.

2 - العروض وإيقاع الشعر العربي، السيد البحراوي، ص 44.

3 - المرجع نفسه، ص 43.

4 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطون، لإحسان عباس، ص 135.

6 - كما يلاحظ أيضا اهتمامهم الكبير بالوزن، وحرصهم عليه وعدم تجديدهم فيه، وقد أدى بهم ذلك الحرص إلى الوقوع في التكرار أحيانا، وذلك التكرار الذي نلمسه في أمثلة كثيرة من شعرهم، نذكر منها قول أبي إسحاق الإلبيري :

يا أيها المغتر بالله *** فر من الله إلى الله(1)

فلاحظ أنه كرر لفظة «الله» ثلاث مرات في البيت، كما جعلها هي القافية في كل أبيات القصيدة البالغ عددها ثلاثة وخمسون [53] بيتا. وهذا دليل على حرص الشاعر الشديد على توفير النغم الموسيقي الذي يضيفه تكرار هذه اللفظة على القصيدة، ويخلع عليها جوا من الرتبة الحبية إلى النفس الشاخصة لربها في هدوء وخشوع، فتتوق إلى ترديدها كتسيحة لطيفة تنساب بإيقاعها الخفيف في ضراعة إلى الله عز وجل. وبالإضافة إلى حرصهم على توفير الجو الموسيقي العذب، نجدهم يلحون على الفكرة ووضوحها، مثل قول أبي إسحاق الإلبيري :

وقل يا نصيح لأنت أولى *** بنصحك لو بعقلك قد نظرتا

تقطعني على التفريط لوما *** و بالتفريط دهرك قد قطعتا(2)

فحرص الشاعر على الترهيب والتنفير من التفريط في القيام بالواجبات، وأداء الطاعات هو الذي جعله يكرر لفظتا [التقطع والتفريط] مرتين، مما يعث في النفس الاشتزاز والنفور من هذه العادة السيئة.

ج - القافية :

إن القافية ركن أساسي من أركان القصيدة، وحدا من حدود الشعر، إذ لا يسمى الشعر شعرا إلا إذا كان له وزن وقافية(3). لذا أولها النقاد القدماء عناية كبيرة، ورفضوا أن تخرج القصائد في أوزانها عن عروض الخليل، والقافية إحدى خصوصيات الوزن(4).

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 63.

2 - المصدر نفسه، ص 30.

3 - عيار الشعر، لابن طباطبا، تح : محمد زغلول سلام، ص 43.

4 - بناء القصيدة في النقد العربي في ضوء النقد الحديث، ليوسف حسين بكار، ص 168

إن اهتمام النقاد العرب القدماء بالقافية له نظيره في النقد الأجنبي الحديث، الذي أصبح رواده لا يكتفون بالموسيقى الداخلية للقصيدة، فدعوا إلى التزام القافية التي تولد موسيقى للقصيدة، وهذا يوضح أهمية القافية وضرورتها في الشعر، لذا يجدر بنا أن نعود إلى مقاله نقادنا القدماء فيها، ولعل أهم تعريف لها من الناحية الاصطلاحية هو تعريف واضع علم العروض، الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي قال : إنها آخر حرف في البيت إلى أول ساكن يليه مع ما قبله(1).

وقيل : إنها سميت بالقافية لأنها تقفوا الكلام أي تجيء في آخره(2)، وهذا التعريف مع ما قبله يحددان موقع القافية من البيت ويبينان حروفها، فهي إذن جزء من الوزن، أو « شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر »(3)، ومن هنا تأتي عناية النقاد بها لأنها سبب من أسباب خلود الشعر.

وقد جاءت عناية شعراء الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري - بالقافية من باب حرصهم على الوزن والموسيقى، وعند استقصاء شعرهم تبين لنا أنهم كانوا يلتزمون بالقافية الموحدة في القصيدة الواحدة مهما طالت تلك القصيدة، والتزامهم بالقافية يصحبه التزام بوحدة الروي أيضا، إذ أنهم لم يلجأوا إلى التوزيع لا في القوافي ولا في الروي.

والمتبع لهذا الشعر يجد أنهم استعملوا القوافي المقيدة والقوافي المطلقة، ومن هذه الأخيرة تذكر قول أبي إسحاق الإلبيري :

تغازلني المنية من قريب *** وتلحظني ملاحظة الرقيب(4)

1 - المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر، لإميل بديع يعقوب ، ص 347.

2 - المرجع نفسه.

3 - العمدة لابن رشيق، ج1، ص 151.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 34.

فالقافية هنا جاءت مطلقة (متحركة الروي) والإطلاق يساعد على امتداد الصوت. والروي هنا هو (الباء) وهي حرف مجهور(1)، ذو رنين واهتزاز، وكأنا بالشاعر يريد أن يسمعنا بالموت. وحقيقته، فهو لا يريد أن يكتم خبره عنا، لأنَّه حقيقة بادية للعيان لا يمكن إخفاؤها أو الهروب منها.

وقد اعتنوا بالقوافي، وعملوا على تخير الأحسن منها عملاً برأي النقاد القائل : بأن أحسن القوافي ما انساق إليه المعنى حتى لو سكت عنه فتداركه المخاطب بفهمه(2).

لذا اختاروا ووقفوا في الاختيار، انظر قول أبي إسحاق الإلبيري :

لولا رجاء العفو كنت كناعج *** برح الغليل برشف ملح الآل
شاب القذال فأن لي أن أرعوي *** لو كنت متعظاً بشيب قذال(3)

فلو تأملنا هذين البيتين لوجدنا أن لفظتي القافية (الآل-وقذال) يستدعيهما المعنى، ويستحضرهما الذهن مباشرة قبل نطق الشاعر بهما، وعليه يمكن القول : إن القصيدة ذات قافية حسنة، خفيفة ولطيفة، ومطلقة أي (متحرك رويها).

ومن القوافي المقيدة نذكر قول ابن حمديس:

يبتك فيه مصرعك *** وفي الضريح مضجعك
غررتك دنياك التي *** لها سراب يخدعك(5)

وهي قصيدة رائعة، اشتملت على جملة من النصائح والإرشادات، تدعو إلى الزهد في

- 1 - محاضرات في فقه اللغة، لزبير درافي، ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1992، ص 67.
- 2 - المعيار في نقد الأشعار، لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد الأندلسي، تح: عبد الله محمد سليمان هنداي، ط1/1987 دار المعارف - مصر، ص 188.
- 3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 39.
- 4 - انظر الضمير الثالث ص 163 .

الدنيا، وتذكر بالموت والقبر، والحساب والعقاب، وهي من بحر الرجز المجزوء، وهو بحر سهل ينساب في خفة وعذوبة؛ لكن الشاعر قيده بالقافية الساكنة الروي، وألزم نفسه بما لا يلزم؛ إذ تقيده بحرف الروي (الكاف) وذلك واجب في الوزن التقليدي، كما ألزم نفسه بالحرف الذي جاء قبل الروي وهو (العين) المضمومة فجاءت قافيته مرنة، ذات جرس قوي، فالكاف من الحروف الشديدة التي يمنع الصوت من أن يجري فيه، لذلك عندما يخرج الصوت يحدث انفجاراً⁽¹⁾، فحدّ الشاعر انفجاره بتسكينه، كما جمع بين الجهر المتمثل في حرف (العين) والهمس في (الكاف) وكأنّاه يحاول أن ينقل إلينا معاناته مع الموضوع بهذا الشكل الذي نحس فيه بارتعاش النفس وفزعها مع كل قافية، ومع لفظ (الكاف) الساكن الذي يعد بمثابة إشارة المرور الحمراء التي تنذر بالخطر، وذلك يستدعي الوقوف للتذكير والتفكير والاعتبار.

ومن القوافي المقيدة أيضاً قول أبي إسحاق الإلبيري:

قَدْ بَلَغْتَ السَّتِينَ وَيَحْكُ فَاعْلَمْ *** أَنْ مَا بَعْدَهَا عَلَيَّكَ تَلُومٌ
فَإِذَا مَا انْقَضَتْ سِنُوكَ وَوَلَّتْ *** فَصَلِّ الْحَاكِمُ الْقَضَاءَ وَأَبْرُمُ⁽²⁾

وبعد دراسة شعر هؤلاء الشعراء تبين أنهم اعتنوا بالقوافي والروي، وهذه

هي الحروف الهجائية التي بنيت عليها قصائدهم بينها الجدول التالي:

1 - محاضرات في فقه اللغة، زبير درافقي، ص 67.

2 - انظر القصيدة في الفصل الثالث ص 157.

عدد القصائد المستعملة فيها	حروف الهجاء (رويا)
24	الراء
11	الباء
08	اللام
07	الكاف
06	النون
06	الهاء
06	الميم
05	الذال
04	التاء
02	الألف المقصورة
02	الحاء
02	الهمزة
02	القاف
01	الطاء
01	السين
01	الفاء
01	الضاد

1 - من تتبعنا لهذا الجدول يتبين لنا أن هؤلاء الشعراء - شعراء الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري - استعملوا سبعة عشر حرفاً من حروف الهجاء رويًا لتقاريفهم، إذ لم يهملوا سوى ثلاثة أحرف من الحروف الصالحة للاستعمال وهي: الجيم، الياء، العين، وأما بقية الحروف التي أهملوها فهي حروف نادرة الاستعمال(1)، مثل: الذال - الثاء - الغين - الخاء - الشين والصاد والظاء والزاي والواو.

2 - كما يتبين لنا من الجدول أن هناك حروفاً هجائية كثيرة الشيوع في شعرهم وهي: الراء - الباء واللام والكاف.

وذلك يكشف عن ميل هؤلاء الشعراء إلى استعمال الروي السهل الخفيف، فالراء، و"الباء" و"اللام" من الحروف المجهورة. أما "الكاف" فهو من الحروف المهموسة(2)، لذلك فهو يلائم جو الحزن والأسى الذي يصاحب النفس ويلازمها ساعة وقوفها أمام نفسها متدبرة متفكرة، ومما جاء على هذا الروي قول ابن حزم:

أقولُ لنفسي ما مُبينٌ كَحَالِكِ *** وَمَا النَّاسُ إِلَّا هَالِكُ وابنُ هَالِكِ(3)

3 - وما يلاحظ أيضاً على هذه الحروف المنتخبة رويًا، أنها حروف ذات وقع قوي على النفس والسمع، وذلك يتلاءم مع الحالة النفسية للشعراء، وغرضهم من هذا الشعر الذي يزيدون به قرع النفس قبل الأسماع لتستفيق من سباتها وتبادر إلى محراب خالقها خاشعة طائعة.

- والشعر يستمد قيمته من قدرته على تحريك المشاعر والأحاسيس بفضل موسيقاه العذبة الناجمة عن الوزن والقافية، وانسجام الحروف ومخارجها(4)، وهنا تبرز أهمية التصريع الذي يلعب دوراً هاماً في تأليف النغم الموسيقي. فما هو التصريع؟ وما مدى اهتمام شعراء الأندلس به؟

1 - موسيقى الشعر، لإبراهيم أنيس، ص 249.

2 - اللغة بين المعيارية والوصفية، لتمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م، ص 178.

3 - انظر القمصية في الفصل الثالث ص 106 .

4 - النقد الأدبي أصوله ومناهجه، للسيد قطب. دار الشروق - بيروت - (د.ت)، ص 66.

2 - التصريح : هو جعل قافية العروض كقافية الضرب (1)، وهو من الأمور التي لفتت انتباه النقاد أثناء بحثهم في الوزن، وقد أقبل عليه الشعراء فصرعوا مطالع قصائدهم، وتعدوا ذلك إلى جعله وسيلة من وسائل الربط بين موضوعاتهم (2)، حتى يظن المتبع للشعر القديم أن التصريح ضرورة شعرية لا يمكن مخالفتها، وعده النقاد القدماء دليلاً على مقدرة الشاعر وسعة فصاحته (3).

وشعراء الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري لم يشذوا عن الشعراء العرب القدماء، فقد اقتفوا أثرهم وساروا على نهجهم، فجاءت مطالع قصائدهم مصرعة، ومن أمثلة ذلك قول أبي إسحاق الإلبيري :

وَيْلٌ لِأَهْلِ النَّارِ مِنَ النَّارِ *** مَاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ (4)

والملاحظ هنا أن كلمة « النار » جاءت في العروض والضرب، وهي قافية القصيدة كلها والبالغ عدد أبياتها ثمانية وثمانون (88 بيتاً).

والشاعر لم يكتف بتوحيد الروي، بل أعاد اللفظة نفسها في المصراعين الأول والثاني في مدخل القصيدة، ثم كرر لفظة « النار » في قافية كل بيت من أبياتها، ومقدرة الشاعر تظهر من خلال حسن سبكه، وحبكه للمعاني وجعلها منسجمة مع الألفاظ، مما يجعلك تحس مع كل لفظة أنها جديدة، فتستسيغها نفسك وتستعذبها.

والملاحظة نفسها نجدها في قصيدة ثانية للشاعر نفسه، وهي قصيدة طويلة

اختار لها لفظة الجلالة « الله » قافية وتصريعا، ومطلعها :

يَا أَيُّهَا الْمُعْتَرِّبُ يَا اللَّهُ *** فَرِّ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ (5)

وهنا تصريح، وتكرار لفظ الجلالة « الله » في البيت الأول ثلاث مرات، وعلى هذا

1 - المعيار في نقد الأشعار لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد الأندلسي، ص 53.

2 - العمدة لابن رشيق، ج 1، ص 174.

3 - المصدر نفسه.

4 - انظر القصيدة في الفصل الثالث، ص 168 .

5 - انظر الفصل الثالث، ص 128 .

اللفظ « الله » بنيت القصيدة كلها. وهكذا نرى الشاعر قد ألزم نفسه بما لا يلزم، ومع ذلك لا نحس بتكلف أو تصنع أثناء قراءة القصيدة، وهذا التكرار منح القصيدة جرسا موسيقيا عذبا، وأضفى عليها جوا خاصا وهالة من الخشوع، فتخرج هذه الأشعار إلى طابع التسييح والتهليل، وهذه خاصية فريدة لا مثل لها. والكلمتان تلقيان على النفس ظلالة من الخشوع والخضوع، يحس معها القارئ أنه في رحاب ربه، فيسعى إلى محرابه ويمثل لنصائح الشاعر وتوجيهاته إذ يقول أبو إسحاق الإلبيري :

وَاتْلُ مِنْهُ الْوَحْيَ وَلَوْ آيَةً *** تَكْسَى بِهَا نُورًا مِنْ اللَّهِ (1)

فالتقرب إلى الله يكون بالعبادات والطاعات، والبعد عن الذنوب والمعاصي. وكما تملأ لفظة « الله » قلب الإنسان بالإيمان والطمأنينة، فيقبل على الطاعات والعبادات، فإن لفظة « النار » تثير فيه الهلع والفرع، وفي تكرارها تهويل وتخويف، ودعوة إلى تجنب الآثام والشرور.

والتصريح قاعدة عامة لدى كل هؤلاء الشعراء (2)، إذ لا تكاد تخلو منه

قصيدة أو مقطوعة شعرية، ومنه قول أبي إسحاق الإلبيري :

مَا أَمِيلَ النَّفْسَ إِلَى الْبَاطِلِ *** وَأَهْوَنَ الدُّنْيَا عَلَى الْعَاقِلِ (3)

وقول الشاعر حبيب بن أحمد الشطجيري :

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا قَضَى *** فَكُلُّ مَا يَقْضِي عَلَيْهِ الرَّضَا (4)

وكذلك قول الشاعر البطلوسي :

إِلَهِي إِنِّي شَاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ *** وَإِنِّي لَسَايِعٌ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدٌ (5)

وعناية الشعراء بالتصريح عناية فائقة لأنه مطلب القدماء، والذين ينسجون

على منوالهم.

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 63.

2 - أعني : شعراء الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري.

3 - ديوان أبي الإلبيري، ص 57.

4 - جذوة المقتبس للحميدي، ص 310. وانظر الفصل الثالث ص 93.

5 - أزهار الرياض، ج 3، ص 116. انظر الفصل الثالث ص 91.

ومن الأمور الشكلية في القصيدة حرصهم وعنايتهم بالمطلع لأنه من الأمور التي حظيت بعناية القدماء أيضا.

فإلى أي حد كانت عناية هؤلاء الشعراء به؟ وهل طبقوا قواعد القدماء فيه أم لا؟

3- المطلع : قالوا: « حسن الافتتاح داعية الانشراح»⁽¹⁾، لذا حرص النقاد والأدباء القدماء على مطالع قصائدهم، « لأنهم كانوا يعدون الشعر قفلا»⁽²⁾، « أوله مفتاحه»⁽³⁾، وعليه فإن مطلع القصيدة هو بابها ومفتاحها، وإذا حسن المدخل حسن الشعر كله. وكانت عنايتهم بالتصريح فائقة لأن ذلك يأتي في أول الشعر إيذانا بما سيليه، وتبنيها عليه، وقد دعا ابن رشيقي إلى العناية بالابتداء لأنه أول ما يقع على الأذن، وكلما كان المطلع سهلا، جزلا كان أفضل⁽⁴⁾.

وللقدماء مقاييس وموازين في اختيار المطلع لخصها الدكتور يوسف حسين بكار في عنصرين أساسيين هما :

1 - كونه أول ما يقع في السمع من القصيدة، لذلك استوجب التحسين، لأن الجمال ينشد دوما في الوجه والغرة، أما في الشعر فالمطلع ينشد به إيقاظ نفس السامع وتبنيها وتشويقه ليلتفت ويستمع⁽⁵⁾.

2 - مراعاة القساعة البلاغية « مطابقة الكلام لمقتضى الحال » أي ضرورة تماشي المطلع مع موضوع القصيدة⁽⁶⁾.

وعليه فقد توفر هذا الشعر⁽⁷⁾، على الحكمة، والتي لا تكاد تخلو منها قصيدة، وذلك راجع إلى طبيعة هذا الشعر الذي يهدف إلى غاية تعليمية - غالبا -

1 - العمدة لابن رشيقي، ج1، ص217.

2 - بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث، ص203.

3 - العمدة لابن رشيقي، ج1، ص218.

4 - المصدر نفسه.

5 و6 - انظر : العمدة، ج1، ص217-218. وبناء القصيدة في النقد العربي القديم، ص204-205.

7 - المقصود شعر الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

إلا أن هذه الحكمة لا بُدَّ لها دائماً في المطلق، بل نجدها مبثوثة في
قضاةهم، ومن أمثلة شعر الحكمة قول الطرطوشي مرغبا في الطاعة والأعمال
الصالحة :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَاداً فَطَنَّا *** طَلَقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتْنَا
فَكَرُّوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا *** أَنَهَا لَيْسَتْ لِحَيِّ وَطَنَا
جَعَلُوهَا لِحَّةً وَاتَّخَذُوا *** صَالِحِ الْأَعْمَالِ فِيهَا سُنْفَانًا(1)
الآيات من بحر الرمل وتفعيلاته :

فاعلاتن فاعلاتن فاعلن * فاعلاتن فاعلاتن فاعلن

وأحسن المقدمات قول أبي إسحاق الإلبيري في قصيدته الرائعة :

تَفَتَّ فَوَادِكُ الْأَيَّامِ فِتْنًا *** وَتَنَحَّتْ جِسْمَكَ السَّاعَاتُ نَحْتًا(2)

وقد وفق الشاعر في توظيف الفعل المضارع «تفتت» الذي يفيد التجدد والاستمرار،
وذلك استدعى البيت الثاني :

وَتَدْعُوكَ الْمُنُونُ دَعَاءَ صِدْقِي *** أَلَا يَا صَاحِبَ أَنْتَ أُرِيدُ أَنْتَ(3)

ومما جاء مطلقاً سهل العبارات واضح المعنى، قول أبي إسحاق الإلبيري :

كُلُّ أَمْرٍ فِي مَا يَدِينُ يَدَانِ *** سُبْحَانَ مَنْ لَمْ يَخْلُ مِنْهُ مَكَانٌ(4)

ومما جاء على سبيل الحكمة في المطلق، قول أبي القاسم بن فرج المعروف

بالسميسر :

جَمَلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابُ *** مِثْلُ مَا قَالُوا سَرَابُ
وَالَّذِي مِنْهَا مَشِيدٌ *** فَخِرَابٌ وَيِيَابٌ(5)

1 - فلاسفة الإسلام في الغرب العربي، جمعية نبراس الفكر، دار كرماديس للطباعة. تطوان المغرب، ط1،

1961م، ص218.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص25.

3 - المصدر نفسه.

4 - المصدر نفسه، ص111.

5 - الذخيرة، ق1، مج2، ص889.

وقول أبي الوليد الباجي :

تبلغ إلى الدنيا بأيسر زادٍ *** فإنك عنها راحلٌ لمعادٍ

وغض عن الدنيا وزخرف أهلها *** جفونك واكحلها بطول سهاد(1)

وإذا كانت المقدمة ضرورة من ضرورات الجودة في الشعر، وحسنة من حسناته، فإنهم حرصوا على خواتيم قصائدهم ليكون لها أثر في نفوس السامعين. وما تجدر الإشارة إليه، هو أنهم كانوا ينهون قصائدهم بالدعاء، والحمد أحياناً، ومن أمثلة ذلك قول ابن حمديس في قصيدة له نظمها لما بلغ الخامسة والخمسين من عمره، والتي مطلعها :

كملت لي الخمسون والخمس *** ووقعت في مرض له نكس(2)

وبعد حديثه عما يجد في نفسه وجسمه من ضعف، وما آلت إليه حاله، يلتفت إلى الوعظ والنصح، والتذكير بالموت، الذي هو نهاية كل حي، ويختم قصيدته بهذا الدعاء الرقيق:

يا ربَّ إنّ النارَ عاتيةٌ *** وبكلِّ سامعةٍ لها جسٌّ

لا تجعلنَّ جسدي لها خطباً *** فيه تحرقُ مني النفسُ

وارفقْ بعبدٍ لحظهُ جزعٍ *** يومَ الحسابِ ونطقه همسٌ(3)

فلقد اختار الشاعر لهذه القصيدة بحر الكامل وزناً، وهو بحر سداسي التفاعيل، يتكون من تفعيلة واحدة سباعية (متفاعلن) متكررة في كل شطر ثلاث مرات، وهو بحر تتوالى حركاته، وبتلاحقه يساعد الشاعر على الانطلاق والحرية في التعبير، وإلى جانب هذا البحر اختار قافية موفقة بروبيها «السين» الذي يتناسب مع الحالة النفسية الحزينة التي كان عليها الشاعر، وهي حالة الشعور بالضعف، والانكسار، وخاصة عندما شعر بدنو الأجل، وليس له والحالة هذه إلا أن يهمس بهذه الكلمات الرقيقة العذبة

1 - الذخيرة، ق 9، مج 1، ص 103.

2 - ديوان ابن حمديس.

3 - المصدر نفسه، ص

في آذاننا ليزكرنا ويذكر نفسه بالنهاية المرة القاسية، وبالشيخوخة والذبول والموت،
علنا نتعظ قبل فوات الأوان فنغتنم وقت قوتنا وشبابنا، ونصرفه في الطاعات والأعمال
الصالحة.

- وقد دفعهم حرصهم على الإكثار من الدعاء والتحميد في المقدمات والخواتيم إلى
جعله موضوعا مستقلا بذاته، وقد جاء ذلك في قول أبي الوليد الباجي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْإِلَاءِ وَالنَّعَمِ *** وَمُبْدِعِ السَّمْعِ وَالْأَبْصَارِ وَالْكَلِمِ .

من يحمده الله يأتيه المزيد ومن *** يكفر فكم نعم آلت إلى نقم(1)

وفي التسييح قول ابن حزم :

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبَّ وَالشُّكْرُ ثُمَّ *** لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ فَمَهْم(2)

وكذلك قول أبي الوليد الباجي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدٌ مُعْتَرِفٌ *** بِأَنَّ نِعْمَاهُ لَيْسَ نَحْصِيهَا(3)

وفي الدعاء جاء قول أبي الوليد الباجي :

إِذَا كُنْتَ رَبِّي فِي طَرِيقِي صَاحِبًا *** وَتَخَلَّفَنِي فِي الْأَهْلِ مَا دَمْتُ غَائِبًا(4)

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن هؤلاء الشعراء نظموا الشعر بالسليقة،

وكان منهم من يرتجل القصيدة ارتجالا، إذا ما حرك دافع شاعريته، ومن بين هؤلاء

الشعراء؛ ابن حزم الذي عرف بزهده وصلاحه، وغيرته على الدين، وكان من

المنافحين بالكلمة، التي لا يقل وقعها وخطرها عن وقع السيف والسهم، كما جاء في

قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في حثه لحسان بن ثابت على قول الشعر والرد

على كفار قريش، إذ قال له : «اهجهم - يعني قريشا - فوالله لهجاؤك عليهم أشد من

وقع السهام في غلس الظلام، اهجهم ومعك جبريل روح القدس»(5).

1 - الذخيرة، ق2، مج1، ص104.

2 - انظر التصيدة في الفصل الثاني، ص 94 .

3 - الذخيرة، ق2، مج1، ص104.

4 - المصدر نفسه، ص104.

5 - العمدة، ج1، ص31.

فقد ذكر المؤرخون أن نقفوراً إمبراطور الروم أرسل بقصيدة إلى أمير المؤمنين المطيع لله، وذلك بعد تغلب النصارى وأخذهم لبعض ثغور الإسلام، تلك القصيدة نظمها شاعر مرتد حاول النيل من الإسلام والمسلمين، وبعد أن قرئت القصيدة وسمعتها ابن حزم الذي كان بحضرة أمير المؤمنين المعتد بالله في الأندلس، اهتز الفقيه عند سماعها غضبا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، ولدينه، فارتجل قصيدة على البديهة وفيها يقول :

من المحتمي لله رب العوالم *** ودين رسول الله من آل هاشم⁽¹⁾

وهي قصيدة طويلة جاءت محكمة البناء، جيدة السبك، حسنة المعاني عميقة الأفكار، عبر فيها الشاعر على نقفور ونقض أقواله، و تناول فيها أكثر من موضوع، ورغم ذلك فقد أحسن وأجاد. وما يستوقفنا هنا هو تعدد الموضوعات في هذا الغرض مما يدفعنا للتساؤل عن الوحدة، هل توفرت في قصائدهم أم لا؟ وهذا ما نحاول التعرف عليه فيما يلي :

4 - الوحدة في القصيدة :

لقد كان مقياس الوحدة في العمل الأدبي من القضايا الكبرى التي شغلت النقاد قديما وحديثا، باعتبارها قضية متصلة بالفن الأدبي ولا سيما الشعر. ويتضح اهتمام نقادنا بها من خلال دعوتهم إلى الترابط والتلاؤم بين أجزاء القصيدة، ومن دعوا إلى ذلك ابن طباطبا إذ يقول : «وأحسن الشعر ما ينتظم القول فيه انتظاما يتسق به أوله مع آخره، على ما ينسقه قائله، فإن قدم بيتا على بيت دخله الخلل كما يدخل الرسائل والخطب إذا نُقض تأليفها»⁽²⁾.

فقد دعا إلى الترابط بين أجزاء القصيدة وتلاحم فصولها، وترابطها حتى تصبح كالخطبة أو الرسالة في تناسق أفكارها وترابط معانيها، وبين دور الشاعر في

انظر: 1 - ابن حزم حياته وآثاره، عبد الكريم خليفة، ص 251. و طبقات الشافعية للسبكي مج 12 ص 185 ،

2 - عيار الشعر، لابن طباطبا، ص 167.

تأليف القصيدة، فشبهه بالنساج إذ قال: يجب «أن يكون كالنساج الحاذق الذي يُفوفُ وشبه بأحسن التفويف... و كناظم الجواهر الذي يُولف بين النفيس منها»(1). إنه لم يدع إلى توحيد الموضوع، وإنما دعا إلى حسن الترابط بين الموضوعات والأجزاء المختلفة في القصيدة، وفي ذلك يقول: «يجب أن تكون القصيدة ككلمة واحدة في اشتباه أولها بأخرها انسجاما وحسنا وفصاحة وجزالة ألفاظ...»(2). وهذه دعوة إلى التآلف بين أجزاء القصيدة وتلاحمها، وهي دعوة صريحة وواضحة إلى الوحدة العضوية، فهو يرى أن القصيدة «كالكلمة» التي تكون بحسن تألفها دالة على معنى معين ذا قيمة، أما إذا حذفنا منها حرفا أو قدما أو آخرنا في حروفها اختل ذلك المعنى وفسد، وزالت الغاية من ترديدها.

إن القصيدة وحدة حية، كل عنصر منها يؤدي الوظيفة المنوطة به، وكل جزء منها يخدم نفس الغاية، ويحقق نفس الهدف بما يخلفه من أثر كلي في نفس القارئ أو السامع(3).

وهذه القضية «من القضايا الكبرى التي يثيرها النقاد في زماننا»(4). وما دعا إليه ابن طباطبا قديما، دعا إليه بعض النقاد العرب في العصر الحديث، وعلى رأسهم العقاد، فما أقرب كلام ابن طباطبا في هذا الموضوع من قول العقاد: «إن القصيدة ينبغي أن تكون عملا فنيا تاما، يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه، والصور بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها»(5). فالقصيدة

1 - غيار الشعر، لابن طباطبا، ص 44.

2 - المصدر نفسه، ص 167.

3 - بناء القصيدة في النقد العربي القديم في ضوء النقد الحديث، ص 182.

4 - قضايا النقد الأدبي، لبدوي طبانة، دار المريخ للنشر - الرياض، 1984م، ص 85.

5 - المرجع نفسه، ص 98.

تكون بنية فنية متحدة الأجزاء في كيان "دينامي" متكامل(1). وقد كثرت تعريفات هذه الوحدة، وتعددت تسمياتها، ورغم ذلك يبقى مفهومها واحد منذ تعريف أرسطو لها، ودعوته إلى توفرها في بناء المأساة خاصة(2)، والوحدة عنده هي وحدة الفعل التام الذي تتألف أجزاؤه وتكون له نتيجة ملموسة، والفعل واحد له بداية ووسط ونهاية فهو كالكائن الحي في تكامله و تجانسه و هذا ما دعا إليه العقاد و من سار على دربه.

والوحدة التي ننشدها في الشعر هي الوحدة المنطقية، التي يكون فيها الكلام متلائم الأجزاء، متلاحم الأفكار، لا تناقض أو تنافر بين فقراته، والمعنى المنطقي في القصيدة جزء من معناها الكلي، وعليه فهي الوحدة المنشودة في القصيدة كما تنشده وتطلب في كل كلام يتطلب العرض المنطقي السليم(3).

وعليه فإذا بحثنا في هذا الشعر عن ذلك الانسجام بين الموضوعات والعاطفة، واتجاه الشاعر نحو حقائق الكون وتجارب الحياة، فإنه يمكننا القول : إن هذه الوحدة متوفرة في الشعر(4)، أما إذا بحثنا عنها باعتبار : بناء القصيدة وترتيب موضوعاتها وأجزائها، ترتيباً يقوم على النمو المطرد، بحيث ينشأ أحدها من سابقه نشوءاً عضوياً، ويقود إلى لاحقته بنفس الطريقة، حتى تتكامل أجزاء القصيدة، في توضيح عاطفتها المسيطرة واتجاهها المركزي، فإنه لا يمكن أن تكون هناك وحدة عضوية في هذا الشعر، لأن الوحدة التي دعا إليها أرسطو واشترطها في «المأساة» وما شاكلها من الشعر الملحمي والقصصي، هذا العمل الذي يجب أن تتابع فيه الأحداث وتتسلسل الوقائع، وهذه الأحداث تبنى فوق بعضها، بحيث يكون كل جزء منها مقدمة لما بعده ونتيجة لما قبله، ولا يتصور هذا الترابط والتناسق إلا في الأعمال القصصية والمسرحية، وحتى "أرسطو" لم يحاول أن يطبق هذا المقياس الذي قاس به جودة

1 - بناء القصيدة، ليوسف بكار، ص 279.

2 - قضايا النقد الأدبي، لبدوي طبانة، ص 103.

3 - بناء القصيدة، ص 280.

4 - أقتصد شعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري.

الشعر المسرحي على الشعر الغنائي(1)، فلتكشف إذن في هذا الشعر بمراعاة التلاؤم والترابط بين عناصر القصيدة وأجزائها، ذلك الترابط الذي يستسيغه الذوق الفني، وترتاح إليه النفس.

والحقيقة أن النقد العربي لم يلتزم باتجاه معين حول «الوحدة» فمنهم من ينشدها في وحدة البيت، كما يقول ابن رشيقي: «ومن الناس من يستحسن الشعر مبنيًا بعضه على بعض، وأنا أستحسنه أن يكون كل بيت قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله، ولا إلى ما بعده، وما سوى ذلك فهو عندي تقصير إلا في مواضع معروفة، مثل الحكايات وما شاكلها فإن: بناء اللفظ على اللفظ أجود هنالك من جهة السرد»(2). وهذا الرأي يؤكد فهمه للوحدة العضوية، وإن كان يفضل البيت القائم بذاته أي (وحدة البيت)، وهذا لا يعني أنه دعا إلى التفكك وعدم الترابط، لأنه في باب آخر دعا إلى حسن التخلص، وهو التنقل الحسن من غرض إلى آخر، كما دعا إلى حسن الترابط فقال: «وأولى الشعر بأن يسمى تخلصًا ما تخلص فيه الشاعر من معنى إلى معنى...»(3).

أما هذا الشعر الذي بين أيدينا فهو من الشعر الوجداني، الذي يعبر فيه الشاعر عن خلجات نفسه ومشاعرها، ويمكننا أن نلمس فيه ذلك التجانس والترابط بين الموضوعات، التي لا يجمعها سوى وحدة الشعور والهدف والغاية، ولا يحملنا هذا على الادعاء بأنها وحدة عضوية، لأن تلك الوحدة تتطلب وحدة بناء ونمو بين أجزاء القصيدة وعناصرها، باعتبار القصيدة كائنًا حيًا، كل عنصر فيها يقوم بأداء الوظيفة المنوطة به، وتبقى هذه الأشعار قائمة على حسن الترابط والتجانس بين الموضوعات، وما يجمع بين أجزائها هو ذلك الشعور المتجانس، وحرارة المشاعر المتوثبة.

1 - قضايا النقد الأدبي، لبدوي طبانة، ص 104.

2 - العمدة، ج1، ص 261-262.

3 - المصدر نفسه، ص 237.

- كما أنها تقوم على وحدة البيت شأنها شأن الشعر العربي القديم، وقد تمتعك هذه القصائد بفكرة يستقل بها بيت أو بيتين، مثل ما جاء في قول أمية بن أبي الصلت :

ما أغفل المرء و أهاه *** يعصي ولا يذكر مولاه
بأمره بالغى شيطانه *** والعقل لو يرشد ينهاه(1)

فالبيتان قائمان بذاتهما، وفكرتهما واضحة ومستقلة، تتجلى في التحذير من الغفلة واللهو، والدعوة إلى استخدام العقل لأنه يرشد إلى الخير ويبعد عن الشر.

وإذا انتقلنا إلى قصيدة أخرى، واقتطعنا منها هذين البيتين للسميسر وهما

من قصيدة دعا فيها إلى الزهد، ويتلخص هذا المعنى في البيتين التاليين :

لا تفرنك الحيا *** ة فموجودها عدم
ليس في البرق متعة *** لامرئ يخيظ الظلم(2)

فالبيتان يفيان بالغرض، ويحققان الهدف، من الترهيد في الدنيا، والاستهانة بها.

والبوحدة الفنية لا تتنافى مع تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة، وهذا

الشعر تعددت موضوعاته، ولكن كانت تجمعها تلك التجربة الشعورية والعرض الفني

الجميل، والصياغة المحكمة، فلو أخذنا قصيدة أبي إسحاق الإلبيري والتي مطلعها :

إِنَّ أَوَّلِي الْعَلِيمِ بِمَا فِي الْفِتَنِ *** تَهَيَّوْهَا مِنْ قَدِيمِ الزَّمَنِ(3)

هذه القصيدة التي دعا فيها الشاعر إلى الزهد في الدنيا، ورجب في التوبة، ودعا إلى

التمسك بالأخلاق الحميدة، وتحدث عن نفسه بألم وحرقة، وتغنى لو كان من أولئك

الذاكرين التائبين، فعبر عن حسرته وندمه على ما أسلف من تقصير، ثم انتقل بعد ذلك

إلى ذم الدنيا التي تميل دائما إلى الأحمق، ليصل بنا أخيرا إلى أهم موضوع عاجله هذا

الشاعر وردده في كثير من قصائده وهو : ذم الشيخ المتصابي والسخرية منه.

1 - ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 157.

2 - الذخيرة، ق 1، مج 2 ص 884.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 93.

ورغم تعدد موضوعات القصيدة، فإننا لا نكاد نحس بذلك، لأن هناك وحدة شعورية تربط بينها، فتبدو متماسكة الأجزاء، مترابطة المعاني، وإذا كان خلود الشعر يعود إلى صحة معناه ودقة تعبيره، فإن هذا كاف لكي يجعل هذا الشعر خالداً، يعيش في كل عصر، ويتجدد مع تجدد الزمن. لكن بعد استقرارنا لديوان الزهد هذا، تبين لنا أن هناك بعض المحاولات للوحدة الموضوعية، وربما أتى ذلك بطريقة عفوية كما هو الشأن في قصيدة ابن حزم هذه والتي نظمها في الأخلاق، وهي من مجزوء الرمل، القصيدة :

إنَّما العقلُ أساسٌ *** فوقهُ الأخلاقُ سورُ
فتحلَّ العقلُ بالعلمِ _____ لِمِ وإلاَّ فهو بورُ
جاهلُ الأشياءِ أعمى *** لا يرى حيث يدورُ
وتمامُ العلمِ بالعَدِّ *** لِ وإلا فهو زورُ
وتمامُ العدلِ بالجورِ *** دِ وإلا فيجُورُ
وملاكُ الجودِ النجدةُ والجبنُ غرورُ
عف إن كنتَ غيورا *** ما زنى غيورُ
وكمالُ الكلِّ بالتقوى _____ وقولُ الحقِّ نورُ
ذي أصولٍ الفضلِ عنها *** حدثت بعد النزور(1)

فالقصيدة تدعو إلى مكارم الأخلاق، القائمة على التقوى.

وقد توفرت فيها الوحدة الموضوعية، وانسابت معانيها مترابطة متلاحمة، مما يدل على أن هناك قصائد ومقطوعات توفرت على الوحدة الموضوعية. نذكر منها قول أبي إسحاق الإلبيري :

1 - رسائل ابن حزم الأندلسي، تح، إحسان عباسن ج1، 1980م. نشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - رسالة في مداواة النفوس، ص 380.

وَذِي غِنَى أَوْهَمَهُ هَمَّتُهُ *** أَنَّ الْغِنَى عَنْهُ غَيْرُ مُتَقَصِّلٍ (1)

وهي أبيات جاءت في ذم الغنى.

وكذلك قول أبي إسحاق الإلبيري في الدعاء والتضرع إلى الله :

لا قوة لي يا ربَّ فأنْتَصِرُ *** ولا براءةُ لي مِنْ ذَنْبِي فاعتذر (2)

ومما يمكن قوله هنا هو أن هذا الشعر وإن خلا من الوحدة العضوية، وانعدمت في معظمه الوحدة الموضوعية، فإنه لم يخل من حسن الترابط وجودة السبك ووحدة الشعور.

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 109.

2 - المصدر نفسه، ص 108.

ثانيا : اللغة والأسلوب :

1 - اللغة : اللغة أداة للتعبير، ووسيلة للاتصال والتفاهم بين الناس، وهي «كائن حي له كيانه وله خصائصه الفنية، وفلسفته التي يعيش بها في أي مجتمع منفصلا ومتفاعلا معه»(1). لذا فروح اللغة هي خصائصها ومقوماتها التي لا يمكن أن تفصل عنها.

والأدب (شعره ونثره) تعبير عن الحياة، لذلك كانت اللغة أداته الأولى التي يجب الوقوف عندها عند دراسة أي عمل أدبي، لأنها هي العمل الأدبي نفسه، ومن ثم فهي في حاجة دوما إلى عبقرية خلاقة تعيد تشكيلها وبعثها في ثوب جديد. والأدباء والشعراء هم أقدر الناس على كشف أسرار اللغة(2)، بابتكار ألفاظ جديدة تتلاءم مع معانيهم وأساليبهم وأغراضهم، أو بإلباس الألفاظ المتعارف عليها معان خاصة، حللا جديدة من المعاني تجعلها قادرة على التعبير عن رؤاهم الجديدة، ومشاعرهم المتجددة.

- واللغة تحيا وتنطور بفضل استعمال الأدباء لها(3)، هذا بالإضافة إلى أنه لكل لغة خصائص ومميزات في ذاتها، واللغة العربية التي شرفها الله عز وجل يجعلها لغة البيان، إذ قال جل شأنه : « وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ »(4).

ولعل ما يميز هذه اللغة هو سعتها وثراؤها بمفرداتها، كما تمتاز بدقة التعبير وجمال التصوير. وللعرب طرق كثيرة لتطويع هذه اللغة تعبيريا، ونشدان البلاغة فيها باستعمال «تقنيات» بيانية ومعنوية مثل : الاستعارة، والتمثيل والتشبيه - والقلب والتقديم والتأخير والإيحاء والإشارة، وغير ذلك من الوسائل التعبيرية المتنوعة. ومن حوى

1 - النقد التطبيقي والموازنات، محمد الصادق عفيفي، مؤسسة الخانجي - مصر - 1978م، ص175.

2 - المرجع نفسه ص176.

3 - المرجع نفسه ص177.

4 - الشعراء / 192 - 195.

صدره هذه اللغة فقد حظي بفضل كبير، فما بالك إذا جمع إلى ذلك حفظ كتاب الله وفهمه، وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم.

وشعراء الأندلس الذين بين أيدينا فازوا بفضل هذه اللغة، وحازوا على شرف حفظ القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، مما ساعدهم على الإبداع في هذا الغرض، وفيما يلي سنحاول الكشف عن معجمهم الشعري للوقوف على مدى استفادتهم من هذين المصدرين :

أ - أثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في المعجم الشعري :

إن المتبع لهذا الشعر يحس بأثر القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وذلك راجع لكون الموضوع دينياً، والشعراء متضلعين في الدين والشريعة، فجلهم فقهاء أجلاء عاملون بما يدعون إليه، بل وفيهم من كان صاحب مذهب فقهي كابن حزم⁽¹⁾، صاحب المذهب الظاهري.

وتأثرهم بالقرآن الكريم لا يظهر فقط فيما اقتبسوه من معان، وما اكتسبوه من ألفاظ، بل تعداه إلى التأثير بحسن نظمه فجاءت تراكيبهم واضحة المعاني، حسنة التأليف قوية التأثير لها في النفس حلاوة وطلاوة.

كما اهتموا بالألفاظ، وحاولوا أن يجعلوا لكل موضوع ألفاظاً خاصة به تتلاءم معه، وتناسبه من حيث الشدة والقوة والجفاء، أو اللين والرقّة والعدوبة، ففي موضوع الحمد والشكر، ترقى الألفاظ وتلين، لتناسب مع أجوائهم النفسية الشاخصة إلى ربها في خشوع وخضوع، والألفاظ المتداولة في هذا الموضوع هي ألفاظ إسلامية، مقتبسة من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، استعملت بلفظها ومعناها. ونلاحظ ذلك في قول أبي الوليد الباجي :

الحمدُ للهِ ذِي الآلاءِ والنعمِ *** ومبدعِ السمعِ والأبصارِ والكلمِ
مَنْ يحمَدُ اللهَ يَأْتِيهِ المزيْدُ ومن *** يكفرُ فكَم نُعمِ آلتِ إلى نقمِ⁽²⁾

1 - الأعلام للزركلي، ط7، 1986 مج4، ص254.

2 - الذخيرة، ق2، مج1، ص104.

فالشاعر هنا قد استعمل لفظ «الحمد لله» بلفظها ومعناها كما جاءت في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف. قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ (1)، كما جاءت في قول الرسول (ص): «أَمْسِنَا وَأَمْسَى الْمَلِكُ اللَّهُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ» (2).

وقد أمرنا الله عز وجل بحمده، وجعل ذلك طاعة وعبادة، إذ قال جل شأنه: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (2). ومن هنا وجدت هذه اللفظة طريقها إلى شعر الزهد، الذي يقوم على الدعاء والتضرع إلى الله تعالى. وهذا أبو الوليد الباجي يقول:

الحمد لله حمد معترف *** بأن نعماه ليس نُحْصِيهَا (3)

وقد وظفت هذه اللفظة بمشتقاتها (الحمد - يحمد - حامد)، قال البطليوسي:

إلهي إني شاكر لك حامد *** وإني لساع في رضاك وجاهد (4)

واستعماله للفظ «حامد» وهي اسم فاعل من الفعل «حمد» للدلالة على الحدث ومن قام به، وذلك تعبير عن الطاعة، والامثال لأوامر الله عز وجل.

ولما حمدوا الله وشكروه، عُدُّوا نعمه وفضائله، ومن هنا نجد ألفاظاً أخرى مثل: (نعم - أنعم - نعمى ونعمة) وهي ألفاظ قرآنية، وظفت في هذا الشعر بمعناها ولفظها. كما جاء ذلك في قول أبي الوليد الباجي السابق:

الحمد لله حمد معترف *** بأن نعماه ليس نُحْصِيهَا
وأن شكري لبعض أنعمه *** من خير ما نعمة يواليها (5)

فترى الشطر الثاني من البيت الأول، مقتبس من قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا، إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (6).

1 - الأنعام/1.

2 - صحيح مسلم، مج4، ص2089.

3 - الحجر/98.

4 - الذخيرة، ق2، مج1، ص104.

5 - أزهار الرياض، ج3، ص116.

6 - انظر الفصل الثالث، ص89.

7 - النحل/18.

وقد خصوا الله عز وجل وحده بالحمد والشكر، إيماناً به واعترافاً بفضلته، فاستعملوا "لَكَ الْحَمْدُ" مقدّمين الجارّ والمجرور، معلّنين أنه لا يستحقّ الحمد أحد سواه، وذلك بعد تدبّر وتفكّر في أنفسهم وفيما حولهم، وجاء ذلك في قول ابن حزم :

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبُّ وَالشُّكْرُ نَمَّ *** لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ فَمَنْ
لَكَ الْحَمْدُ فِي كُلِّ مَا حَالَهُ *** فَقَدْ خَصَّنِي مِنْكَ فَضْلَ وَعَمِّهِ (1)،
والبيت الثاني تضمين لمعنى الآية الكريمة : ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (2)،
وهكذا فقد استلهم الشاعر معاني القرآن الكريم التي توحى بإيمان الشاعر العميق بالله
عزّ وجلّ، وبقدرته على الخلق، فقال :

من الماء أنشأتني نطفة *** ومن بعد ذلك لحم ودم
وأسكنت في جسدي روحه *** وأجعلتها في طباق الرحم (3)،
فالمعنى مستلهم من قوله عز وجلّ : ﴿ أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً
فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴾ (4). وإذا كان في الآية تقرير لما كان عليه الإنسان من ضعف وحقارة
في أصل خلقه ونشأته، فإنّ الشاعر قد استلهم هذا المعنى ليوظفه في شعره، معلناً عن
ضعفه أمام الخالق الجبار، الذي خلقه من ماء مهين، ثم جعله إنساناً عظيماً بما منّ به
ربّه من قدرات وملكات، فحري هذا العظيم بالتعظيم والحمد والشكر.

ولو مضينا مع الشاعر قدماً في قصيدته لوجدناه يستلهم معانيه ويستقي
الفاظه من القرآن الكريم، ثم يوظفها لخدمة الأفكار التي يريد التعبير عنها.

وهؤلاء الشعراء يصدرون - غالباً - عن إيمان قويّ بالله عز وجلّ، لذلك
فقد دعوه بأسمائه الحسنى، وسموه بما سمى به نفسه من الصفات والأسماء التي تليق

1- انظر الفصل الثالث، ص 94.

2 - النحل/53.

3 - الفصل الثالث، ص 94.

4 - القيامة/36-37.

بمقامه وعظمته نذكر من ذلك قول ابن حزم :

رزاق أهل الزمان أجمعهم *** من كان من عجمه ومن عربيته (1)

وقوله أيضا :

ولكن مُبدعها واحد *** هو الأولُ الحقُّ أفنى إرم

ولا شيء يشبهه جملة *** تحقّق ذلك مَنْ قد علم (2)

إذن فالله هو : «الرزاق، المبدع، الواحد، الأول، الحق، لا يشبهه أحد». وهذا المعنى مقتبس من قوله تعالى : ﴿ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (3).

وأما البطليوسي فنراه يقر بوحدانية الله عز وجل، فيقول :

أَغْيَرَكُ أَدْعُو لِي إِلَهَا وَخَالِقَا *** وقد أوضح البرهان أنك واحد (4)

وهكذا يظل القرآن الكريم أعظم وأكبر رافد لهم في شعرهم.

والألفاظ الكثيرة التداول بين هؤلاء الشعراء هي تلك الألفاظ المتعلقة

بقدره الله عز وجل، وذلك راجع لقوة إيمانهم بالله وتوحيده في العبادة، واللجوء إليه وحده بالرجاء والدعاء، ومن أمثلة ذلك :

قول ابن حمديس :

يا رفيقاً بعده ومحيطاً *** علمه باختلاف سري وجهري

يل بقلبي إلى صلاح فسادي *** منه واجبر برأفة منك كسري

وأجرتي مما جناه لسانسي *** وتناجت به وساوس فكري (5)

ففي البيت الأول اقتباس من قوله تعالى : ﴿سَوْكَانُ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ (6).

1 - انظر التصديفة في الفصل الثالث ص 90 .

2 - انظر التصديفة في الفصل الثالث ص 96 .

3. الأنعام/ 103 .

4 - انظر الفصل الثالث ص 94 .

5 - ديوان ابن حمديس، ص 266. / الفصل الثالث ص 98 .

6 - النساء/ 110 .

ودعائهم موجه لله عز وجل في جميع حالاتهم، فهذا أبو الوليد الباجي قد استلهم دعاءه من الحديث النبوي الشريف الذي بلغنا عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا ركب للسفر : « بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ ازور (1) لَعْنَا الْأَرْضَ وَهَوَّنْ عَلَيْنَا السَّفَرَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ وَعَثَاءِ السَّفَرِ، وَمِنْ كَأَبِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنْ سُوءِ الْمَنْظَرِ فِي الْمَالِ وَالْأَهْلِ » (2). وضمن هذا المعنى البيتين التاليين :

إذا كنتَ ربِّي في طريقي صَاحِبًا *** وتخلفني في الأهلِ ما دمتُ غائبًا
فسهلْ سبيلي وازورِ عني شرها *** وشرَّ الَّذي ألقاهُ في الأهلِ آيَا (3)

ولقد وفق الشاعر في اقتباسه وتضمينه، فجاءت ألفاظه عذبة واضحة، وما يزيدا رقة هو موسيقاها الرقيقة التي تنبعث من «ياء» المتكلم المتكررة في البيتين خمس مرات (05)، وهي توحى بالخضوع والامتثال لله عز وجل، ومما يضيفي على البيتين جرسا موسيقيا عذبا هو حسن الاختيار للوزن والقافية لا سيما الروي المتحرك بالفتح المستدعي لألف الوصل، التي تساعد على امتداد النفس وطوله مما يتلاءم مع حالة الشاعر النفسية الهادئة المطمئنة إلى ربها، الراضية به رفيقا وصاحبًا، المؤمنة بحسن صحبته في جميع الحالات .

فالله هو «الحكيم - الحق - باري النسم» وبذلك يشهد كل مخلوق من

خلق الله عز وجل، ولقد جاءت هذه الألفاظ القرآنية بمعانيها في قول ابن حزم :

ليعلم أهلُ النَّهْيِ أَنَهَا *** مدبرةٌ لحكيم حكيم
يدير بأزمانها دهرها *** هو الواحد مبدؤها للفهم
وتشهد أن الذي صاعها *** هو الواحد الحق باري النسم (4)

1 - ازو لنا : اطو لنا.

2 - الموطأ، للإمام مالك. رواية يحيى بن يحيى الليثي. إعداد أحمد راتب عرموش، دار النفائس - بيروت/ ط8، 1984م، ص693.

3 - انظر الفصل الثالث ص 74 .

4 - انظر الفصيحة في الفصل الثالث ص 95 .

قال تعالى : ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِيُّ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (1).

- وكما وظفوا الألفاظ الدالة على الإيمان والتوحيد، وظفوا ألفاظا تدل على حسن الطاعة والعبادة، تلك العبادة التي لا تصدر إلا من المؤمنين الطائعين الخاشعين لله عز وجل، وأهم هذه الألفاظ نجملها في قول أبي الوليد الباجي :

قد أفلح القانت في جنح الدجى *** يتلوا الكتاب العربي النيرا

له حينئذٍ وشهيقٌ وبككا *** يئيل من أدمع تراب الثرى (2)

وهذه الألفاظ والمعاني مقتبسة من قوله تعالى : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ..﴾ (3).

ومن صفات المؤمنين أيضا الخشية من الله، والخوف من سناهِ، ولزوم طاعته، وقد جاء ذلك في قول ابن حزم :

فلو أمنا من العقابِ ولم *** نخش من الله متقى غضبه

ولم نخف من ناره التي خلقت *** لكل جانبي الكلام محتبه

لكان فرضا لزوم طاعته *** ورد وفد الهوى على عقبه (4)

وإذا كانت طاعة الله وخشيته فوزا عظيما كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (5)، فإنهم دعوا إلى طاعته، والتزود بزاد التقوى، وجاء ذلك في قول أبي محمد غانم :

صرف بقايا العمر في طاعة *** ولا يغرنك كيد الغرور

وارحل إلى الأخرى بزاد التقى *** فإنما الدنيا متاع الغرور (6)

1 - الخشرا/24.

2 - انظر الفصل الثالث ص 99 .

3 - الزمر/10 .

4 - انظر الفصل الثالث ص 104 .

5 - النور/50 .

6 - الذخيرة، ق 1، مج 2، ص 858.

وهكذا نرى البيت الأول لفظه ومعناه مستقى من قوله تعالى : ﴿.. فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِلِلَّهِ الْغُرُورُ﴾ (1).

وأما البيت الثاني فمقتبس من قوله تعالى : ﴿... وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ
التَّقْوَى﴾ (2). وهكذا نلاحظ براعتهم في انتقاء الآيات المناسبة لموضوعاتهم، وتضمينها
تضميناً حسناً في شعرهم، والذي ساعدهم على هذا هو قراءتهم للقرآن وحفظهم له
مع الفهم الصحيح، لهذا نرى الألفاظ والمصطلحات القرآنية كثيرة في هذا الشعر، ومما
جاء منها دالاً على الجنة والنار وما يتبع ذلك من أوصاف، قول ابن حزم :

لأجدي عباد الله بالفوز عنده *** لدى جنة الفردوس فوق الأرائك (3)

فنجد «جنة الفردوس» في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ
لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ (4)، وفوق «الأرائك» في قوله تعالى : ﴿... مُتَكِّينَ
فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (5). فهو استلهم معانيه من القرآن
الكريم ووظف ألفاظه لتؤدي نفس المعنى الذي جاء في القرآن الكريم.
وذكر الآخرة. يذكر بالجزاء والحساب، والعذاب والنعيم.

وهذه الألفاظ بمعانيها جمعت في قول ابن خفاجة :

وكل مدين بما كان دان *** فثمَّ الجزاء وثمَّ الحساب

ولا خطَّة غير انتسين *** إما نعيم وإما عذاب (6)

وقد يستلهم الشاعر معاني القرآن الكريم ليصور لنا حال أهل الجنة
والنار، للترغيب والترهيب، وفي ذلك جاء قول أبي إسحاق الإلبيري :

1 - لقمان/32.

2 - البقرة/196.

3 - طوق الحمامة، ص 298.

4 - الكهف/102.

5 - الكهف/31.

6 - ديوان ابن خفاجة، ص 213-214.

وَصَارَ مَنْ يُسْعَدُ فِي جَنَّةٍ *** عَالِيَةٍ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ
يَسْكُنُ فِي النَّوْدُوسِ فِي قُبَّةٍ *** مِنْ لَوْلُو فِي حِمْرَةِ اللَّهِ
وَمَنْ يَكُنْ يُقْضَى عَلَيْهِ الشَّقَا *** فِي جَاحِمٍ فِي سَخَطِ اللَّهِ
يُسْحَبُ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ *** بِسَابِقِ الْحُكْمِ مِنَ اللَّهِ (1)

وهذه الآيات تضمنين للآيات الكريمة التي جاءت في وصف حال الناس في الجنة والنار، ومنها قوله تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (2)، وقوله جل شأنه في وصف الجنة: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ (3).

أما وصف أصحاب الجحيم فقد استوحاه من قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ (4).

وأما عن حال الناس في الدار الأخرى، فهي منزلتان لا ثالث لهما كما أخبر بذلك رب العزة في قوله جل وعلا: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ (5). وهكذا فالناس يوم القيامة إما في الجنة فرحين وسعداء بمقامهم، وأما الأشقياء فهم في النار يعيشون في سخط وغضب من الله لا يجدون فيها إلا ما وعدهم به الله من خزي وعذاب، قال تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (6).

ويسترسل أبو إسحاق الإلبيري في وصف النار بما وصفت به في كتاب

الله عز وجل فيقول منذرا ومخدرا:

وَيْلٌ لَأَهْلِ النَّارِ مِنَ النَّارِ *** أَمَّاذَا يُقَاسُونَ مِنَ النَّارِ

1 - ديوان أبي إسحاق، ص 63.

2 - فاطر / 33

3 - الحاقة/ 20 - 21.

4 - القمر/ 48.

5 - الشورى/ 5.

6 - المؤمنون/ 105.

تَقْدُّ مِنْ غَيْظٍ فَتَغْلِي بِهِمْ *** كَمَرَجَلٍ يَغْلِي عَلَى النَّارِ (1)

ويعمضي الشاعر في تصويره للنار مقتبساً معانيه وألفاظه من القرآن الكريم،

قال تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴾ (2). وكثيراً ما ورد وصف النار في القرآن الكريم، مثل قوله تعالى : ﴿ قِيلَ أَصْحَابُ الْأَخْذُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴾ (3).

ومن الألفاظ التي استقوها للتعبير عن الموت واليوم الآخر : «الموت وسكرته والقبر، والسؤال والجواب، والبعث والمعاد، والصراط، والحشر وغيرها». وهكذا نجد أنفسنا أمام حشد من الألفاظ القرآنية التي وظفت بمعانيها. ففي «سكرة الموت» يقول أبو إسحاق الإلبيري :

كَأَنِّي بِنَفْسِي وَهِيَ فِي السَّكَرَاتِ *** تُعَالِجُ أَنْ تَرْقَى إِلَى اللُّهُوتِ (4)

فسكرة الموت جاءت في قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ... ﴾ (5).

وقول أبي القاسم الإلبيري (السميسر) :

وَلِيَوْمِ الْحَشْرِ إِنْعَامٌ سُّؤَالٌ وَجَوَابٌ (6) .

والذي استوحى معناه ولفظه من قوله عز وجل : ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ ... ﴾ (7).

ووظفوا «صراط مستقيم» بلفظ القرآن ومعناه، وجاء ذلك في قول السميسر :

وَصِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ *** يَوْمَ لَا يُطْوَى كِتَابٌ
فَاتَّقِ اللَّهَ وَجَنَّبِ *** كُلَّ مَا فِيهِ حِسَابٌ (8)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 85.

2 - الليل/ 14 - 15.

3 - البروج/ 4 - 5.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 51 - 52.

5 - ق/ 19.

6 - انظر ص 143 .

7 - الأنعام/ 23.

8 - انظر ص 143.

فقد جاءت هذه العبارة في آيات قرآنية نذكر منها قوله تعالى : ﴿ اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. ﴾ (1).

وهكذا فهم مؤمنون بيوم القيامة والبعث والنشور، فاقبسوا ذلك من القرآن الكريم ووظفوه في شعرهم توظيفا حسنا. ومنه قول ابن حمديس :

وَالْعَيْشُ وَالْمَوْتُ بَيْنَ الْخَلْقِ فِي شَغْلٍ *** حَتَّى يُسَكَّنَ مِنْ تَحْرِيكِهِ الْفَلَكَ
وَيَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ جَوْفِ الثَّرَى أُمَّا *** كَانَتْ عِظَامُهُمْ تُبْلَى وَتُنْتَهَكُ (2)

ففي البيت الثاني اقتباس من القرآن الكريم، من قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (3).

- وزهدوا في الدنيا مستلهمين في ذلك المعاني التي جاءت في القرآن الكريم مصورة زيفها وصغرت شأنها، وهكذا وصفوها بالسراب، وبادر اللهو والفتنة، ومما جاء فيها قول السمير :

جُمْلَةُ الدُّنْيَا ذَهَابٌ *** مِثْلُ مَا قَالُوا سَرَابٌ (4)

وهكذا نرى الشاعر يوظف لفظة «السراب» ليعبر بها عن زيف الدنيا وخداعها. وقد جاءت هذه اللفظة في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يُخْسِبُهُ الظَّمَانُ مَاءً... ﴾ (5). وقد جاءت هذه اللفظة في تصوير اعمال الكفار في الدنيا واعتقادهم الخاطيء بأنها أعمال نافعة لهم في الآخرة. وقد وظفت لتؤدي المعنى نفسه، لكن في موضوع آخر غير الموضوع الذي وردت فيه في القرآن الكريم، إنها تصور الدنيا بكل ما فيها سرايا ويايا، مما يعبر بدقة وإجاء عن المعنى المراد. وكفاها شرفا أنها لفظة قرآنية تحمل من الشفافية والظلال ما لا يحمله غيرها من الألفاظ.

1 - الفاتحة/5-6.

2 - انظر الفصل الثالث ص 152 .

3 - البقرة/55.

4 - انظر ص 144.

5 - النور/38.

وأما أبو الوليد الباجي فيقول في وصف الدنيا :

فما هذه الدنيا بدار إقامة *** فَيَعْتَدُّ مِنْ أَغْرَاضِهَا بَعْتَادِ

وما هي إلا دار لهو وفتنة *** وإن قصار أهلها النفاذ(1)

وهذا مقتبس من قوله عز وجل : ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ... ﴾ (2).

- وهكذا يمكننا أن نقول : إن هؤلاء الشعراء اعترفوا من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وصدروا في أفكارهم ومعانيهم وألفاظهم عن قيمه الأصيلة. واقتباسهم من القرآن الكريم هو سر قوة شعرهم وحيويته، ولولاه لظل شعرا باهتا لا ينم عن شيء.

وقد لا يكتفي الشاعر منهم باقتباس بعض الألفاظ القرآنية، ويلجأ إلى

سورة كاملة بلفظها ومعناها ويضمونها شعره، مثل ما فعل ابن حزم في هذه القصيدة :

تنبّه ليومٍ قد أظلمك ورده *** عَصِيبُ يُوَافِي النَّفْسَ فِيهَا اهْتِضَارُهَا

تبرأ فيه منك كلُّ مُخَالِطٍ *** وَإِنَّ مِنَ الْأَمَالِ فِيهِ انْتِهَارُهَا

تنادي إلى يومٍ شديدٍ مُفْزِعٍ *** وَسَاعَةُ حَشْرِ لَيْسَ يَخْفَى اشْتِهَارُهَا

إذا حَشِرَتْ فِيهِ الْوَحُوشُ وَجَمَعَتْ *** صَحَائِفُنَا وَانْتَالَ فِينَا انْتِثَارُهَا

وزينت الجنان فيه وأزلفت *** وَأَذْكِي مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ اسْتِعَارُهَا

وكورت الشمس المنيرة بالضحي *** وَأَسْرَعُ مِنْ زَهْرِ النَّجُومِ انْكَدَارُهَا

وسيرت الأجمال والأرض بدلت *** وَقَدْ عَطَلَتْ مِنْ مَالِكِيهَا عِشَارُهَا

فإما لدارٍ ليس يفنى نعيمها *** وَإِنَّمَا لِدَارٍ لِأَيْفِكَ إِسَارُهَا(3)

والسورة القرآنية التي ظل الشاعر خلال هذه الأبيات حبيس لفظها ومعناها هي

1 - الذخيرة، ق2، مج1، ص103.

2 - الأنعام / 33 .

3 - طوق الحمامة، ص314-315 .

«سورة التكويز» : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ
سِيرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ... وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ *
وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ * وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ * وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
أَحْضَرَتْ... ﴾ (1). وإدراك الشاعر لبلاغة القرآن وإعجازه البياني، هو الذي دفعه
للبقاء في ربحاب هذه السورة لفظاً ومعنى، فهي تصوير لتلك الأهوال والشدائد
ووصف لما يعتري الكون والوجود من مظاهر التغيير والفساد، ساعتها يعلم الإنسان
مكانه ومقامه، إما الجنة أو النار حسب ما قدمت يداه.

ولكثر هذه الألفاظ القرآنية في شعرهم سنحاول جمعها في جدول نبين
من خلاله معجمهم الشعري من خلال اللفظة القرآنية. وقد قسمت معجمهم هذا إلى
ثلاثة جداول كالتالي :

أولاً : الألفاظ الكثيرة التداول والاستعمال، وهي ألفاظ تتعلق بعقيدتهم وإيمانهم بالله عز وجل، وتوحيدهم له، وتعظيمه، وانعكاس ذلك على لغتهم ونفسياتهم.

الجدول الأول

عدد مرات استعمال كل لفظة	1- ألفاظ تنفلق بأسماء الله وصفاته
80	الله
12	الخالق
14	الرب
1	البارئ
3	الحق
3	المنشئ
1	المحدث
11	الميلك
2	الرحمن
4	الرحيم
1	الجليل
3	المبدع
2	الحكيم
1	الرزاق
1	المجيد
4	الواحد
2	الأول
3	العدل
2 + 2	تعالى - العظيم

تابع للجدول الأول

2	الرفيق
1	الحليم
8	ذو الجلال
1	ذو العرش
1	القويوم
4	العفو
1	التواب
5	المنعم
1	المحيط

2 الفاظ تدل على علاقة الإنسان بربه :

أ- الإيجابية

16	التقوى
4	اليقين
5	الهدى
3	الرشد
4	التضرع
4	مستغفر
2	قانت
5	قائم - راکع - ساجد
2	مبتلا
4	الطاعة
7	الخشية (من الله)

تابع للجدول السابق

1+3	عبادة، قيام الليل
5	جامد
7	رضا
8	العلم
3	التوبة
4	زهد
1	نسك
	ب - السلية
5	عصى
2	فعل
12	جهل

2 - الجدول الثاني

عدد مرات استعمال كل لفظة	ثانيا الألفاظ الدالة على الدنيا وزيفها
16	الذنب
8	الهوى
4	اللاعب
11	دار فناء
18	دار غرور
1	الغرور

3- الجدول الثالث

عدد مرات استعمالها	ثالثا : الألفاظ الدالة على الموت وما بعده
34	موت
3	هلك
1	احتضار
1	نعسي
1	الكفن
1	جنازة
11	القبر، الضريح، اللحد، الجذث
4	الجزاء
4	المعاد والبعث
4	الحساب
1-1-25	النار، جهنم، الجحيم
4	الجنة

بعد تبينا هذه الجداول يمكننا أن نسجل الملاحظات الآتية :

- إن القرآن الكريم هو أكبر رافد لشعرهم، وما ساعدهم على ذلك هو حفظهم للقرآن الكريم وفهمهم لمضامينه.

وأما ما يتعلّق بالحديث الشريف فإنّ تأثرهم به في اللفظ لا يمكن تحديده لأن ألفاظ الحديث لا يمكن أن تخالف لفظ القرآن الكريم فالرسول صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، ومن هنا برزت اللفظة القرآنية وشغلت حيزاً كبيراً في معجمهم الشعري.

- إن استعاضهم لالفاظ القرآن وترايبه ومعانيه يدل على محافظتهم على اللغة وعنايتهم بها، والقرآن خير معين لهم في ذلك لأنه معجز بلغته وحسن بيانه، لذلك نجدهم قد حاولوا النسج على منواله، وظهرت محاكاته في أسلوبهم، ومعانيهم وألفاظهم التي تعود أساساً إلى اغترافهم من نبعه الفيض، وقد وفقوا في اقتباسهم وتضمينهم.

- كما يظهر جبههم لله عز وجل، وإيمانهم به، ذلك الحب الذي نسمعه في ترديدهم لنعيمات الحمد والشكر لله تعالى، وتوظيفهم لأسمائه وصفاته التي تدل على قوته وعظمته ووحدانيته.

ب - الموروث القديم والمعجم الشعري :

إن شعر شعراء الزهد - في الأندلس خلال القرن الخامس - لا يخلو من الألفاظ المستقاة من الموروث القديم، الذي يعد مصدرا من مصادرهم الثقافية أيضا ، وقارئ هذا الشعر - أحيانا يحس أنه أمام قصيدة حماسية، تصور حربا أو معركة من المعارك التي لا يسمع فيها إلا صوت السيوف وصهيل الخيل، وهذا نجده بخاصة في موضوع ذم الدنيا، ووصفها وإظهار حقيقتها، ومن هذه الألفاظ نجد (العضب - الصقيل - القنا - بطشت - ذي السلاح الشاكي) في قول أبي إسحاق الإلبيري:

ما أعرف العضب الصقيل ولا القنا *** ولقد بطشت بذى السلاح الشاكي(1)

فأسماء هذه الأسلحة معروفة ومتداولة في الشعر العربي القديم نذكر منها قول الخطيب:

ومثابرة(2) رهوا وزعت رعيها(3) *** بأبيض ماضي(4) الشفرتين صقيل(5)

كما وظفوا "السوابع، الصوارم والصواهل" في شعرهم الزهدي بعد

تطويعها لهذا الغرض، مثل قول أبي إسحاق الإلبيري:

أين الملوك وأين ما جمعوا وما *** ذخروه من ذهب المتاع الذاهب

ومن السوابع والصوارم والقنا *** والصواهل بدن وشوازاب(6)

كما (وظفوا الفتك، الضيغم - الأسد - الليوث - القصف - السهم)، وغيرها من الألفاظ القوية المعبرة التي تسمع جمععتها، حتى ليخيل إلينا أن الإنسان في معركة حامية الوطيس مع الدنيا، وعليه إذن أن يتسلح بالقوة - قوة الإيمان، والصبر، ليقهرها ويتغلب عليها وقوته تكون في لباسه الضافي «الزهد» ذلك الذي يساعده على ترك ملذاتها وزخارفها، والالتفات إلى الدار الأخرى والعمل من أجل الفوز بنعيمها.

1 - انظر الأبيات، ص 138.

2 - ومثابرة : من ثابر على الأمر : واطب وداوم. 3 - وزعت رعيها : كفته. والرعي : قطع الخيل.

4 - بأبيض ماض : سيف حاد.

5 - ديوان الخطيب، تح : نعمان محمد أمين طه، مكتبة الخانجي - القاهرة. ط 1، 1987، ص 42.

6 - انظر الأبيات ص 159.

كما وظفوا لفظ «الرحى» للموت، وعهدنا الشعراء القدهاء يوظفونه للحرب، وكان هناك علاقة بين الموت والحرب إذ كلاهما تدور وتطحن ما بطريقها وتهشمه، فهذا أبو إسحاق الإلبيري يقول مذكرا بالموت :

وَرَحَى الْمَوْتُ تَسْتَدِيرُ عَلَيْنَا *** أَبَدًا تَطْحَنُ الْجَمِيعَ وَتَهْشِمُ(1)

وزهير بن أبي نسلمي(2) قال في حديثه عن الحرب :

فَتَعْرَكُكُمْ عَرَكُ الرَّحَى بِثِقَالِهَا *** وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تُنْتِجُ فَتَشْمُ(3)

كما وظفوا : الشيب وكرامية الغواني للشيخ، في المعنى نفسه وبلفظه

وقد جاء ذلك في الشعر القديم، فلنقرأ قول أبي إسحاق الإلبيري :

وَالشَّيْخُ لَيْسَ قِصَارَهُ إِلَّا التَّقَى *** لَا أَنْ يَهَيِّمَ صَبَابُهُ بِجَاذِرِ

نَفَرَتْ طِبَاعُ الْغَيْدِ عَنْهُ كِرَاهَةً *** وَمِنَ الْعِنَاءِ عِلَاقَةٌ بِمَنَافِرِ(4)

ففيه تضمين لقول جرير(5) :

دَعَيْتِي! إِنْ شِئِي قَدْ نَهَانِي *** وَتَجْرِي وَشِئِي وَاكْتِهَالِي

فَمَا تَرْجُو وَلَيْسَ هُوَ الْغَوَانِي *** لِأَصْحَابِ التَّنْحُحِ وَالسُّعَالِ(6)

كما وظفوا بعض الألفاظ التي ألفناها في شعر النسيب قديما مثل : (الجآذر - الظباء -

المها) وبخاصة في تشبيه عيون المرأة بعيون «الظباء» في جملهن، ونجد ذلك في قول أبي

إسحاق الإلبيري :

يَنْصَابِي وَلَاتَ حِينَ تَصَابِ *** بَعْيُونَ الْمَهَا وَسِرْبِ الظَّبَّاءِ(7)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 50.

2 - زهير بن أبي نسلمي، شاعر جاهلي، عرف بالحكمة وسداد الرأي وحب السلام.

3 - ديوان زهير بن أبي نسلمي، دار بيروت للطباعة والنشر، 1982م، ص 82.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 75.

5 - جرير : شاعر أموي توفي سنة 110هـ. وفارس من فرسان النفاض في عصره إلى جانب الأخطل والفرزدق.

6 - ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، 1878م، ص 341.

7 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 79.

وهذا له نظيره في قول امرئ القيس (1) :

تصدُّ وتُبدي عن أسيل (2) وتتنِّي *** بناظرة من وجشِّ وجرة مُطْفِل (3)

إذ وصف جمال عيني المرأة بعيون الوحش (وهو الطباء) أتي جمال عينيها الشبهتان بعيون الطباء.

وأما لفظ «المها والجاذر» فنجده في مثل قول عمر بن أبي ربيعة (4) :

رَأَيْتُ الْغَوَانِي الشَّيْبَ لَاحَ بَعَارِضِي *** فَأَعْرَضَنَ عَنِّي بِالْحَدُودِ النَّوَاضِرِ
وَكَرِهْتُ إِذَا أَبْصَرْتَنِي أَوْ سَمِعْتَنِي *** سَعَيْنَ فَرَقَعْنَ الْكُؤَى بِالْمَحَاجِرِ
فَإِذَا جَمَعَتْ عَنِّي نَوَاطِرَ أَعْيُنٍ *** رَمِينَ بِأَحْدَاقِ الْمَهَا الْجَازِرِ (5)

كما وظفوا الحمام في شعرهم، لأنه يوحى دائماً بالحزن والأسى وقد جاء

ذلك في شعر أبي إسحاق الإلبيري :

أَحْمَامَةَ الْبَيْدَا أَطْلَتِ بُكَاءِكَ *** فَبِحُسْنِ صَوْتِكَ مَا الَّذِي أَبْكَاكِ (6)

وهذا له نظير في قول عمر بن أبي ربيعة :

وَدُعَاءُ الْحَمَامِ تَدْعُو هَدِيلاً *** بَيْنَ غَصْنَيْنِ هَاجَ قَلْبًا سَقِيمًا (7)

وأما لفظ «الغواني» التي من معجم شعراء الغزل نجدها في قول عمر بن أبي ربيعة :

صرمتَ حبلك البغوم (8) وصدتَ *** عنك في غير رية أسماء
والغواني إذ رأيتك كهـلاً *** كان فيهنَّ عن هوائك الشواء (9)

1 - امرؤ القيس شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات، توفي حوالي سنة 82 ق.هـ.

2 - أسيل : طويل.

3 - تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، من امرئ القيس إلى عمر بن أبي ربيعة/ شكري فيصل. دار العلم للملايين بيروت، ط6/1982، ص153.

4 - عمر بن أبي ربيعة : شاعر أموي توفي سنة 93 هـ.

5 - ديوان عمر بن أبي ربيعة، دار بيروت للطباعة والنشر، 1978م، ص211.

6 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص35.

7 - ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص368.

8 - البغوم : اسم امرأة.

9 - ديوان عمر بن أبي ربيعة، ص15.

- ومن ناحية أخرى نلاحظ في هذا الشعر ذبوع بعض المصطلحات والألفاظ المتداولة بين علماء الفقه والمنطق والفلسفة، وهذا يدل على ثقافة هؤلاء الشعراء أمثال : ابن حزم، والطرطوشي والسميسر وابن باجة والبليوسي، الذين جاء شعرهم مطبوعاً بطابع الروح الجدلية، وما يتصل بها من التعليقات واللجوء للبراهين والأدلة العقلية التي من شأنها إقناع السامعين، ولعل عنايتهم بهذه العلوم هي التي ساعدت على ذبوع هذه الألفاظه وبإلقاء نظرة على شعر هؤلاء الشعراء نستطيع أن نتبين بوضوح هذه الألفاظ، التي وظفت للتعبير عن آرائهم وأفكارهم، وبقراءة لقصيدة ابن حزم والتي مطلعها :

لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبَّ وَالشُّكْرُ ثُمَّ *** لَكَ الْحَمْدُ مَا بَاحَ بِالشُّكْرِ فَمُ(1)

وهي قصيدة طويلة بلغت ثمانين بيتاً (80)، وجاءت في إثبات حدوث العالم وصحة نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وفيها أبيات للوعظ، وتكفي قراءتها للاستدلال على وجود الألفاظ والتعابير المنطقية منها : (البرهان - الفلك - الحكم - الدهر - المكان - الزمان - الواحد - الحق - العقل - النفس - العدل - الحكمة ..) (2).

وبقراءة لقصيدة الفقيه البليوسي في التوحيد والتي مطلعها :

إِلَهِي إِنِّي شَاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ *** وَإِنِّي لَسَاجِدٌ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدٌ(3)

فإنك تجد فيها مصطلحات الحكماء والمتكلمين منها : (البرهان - الفلك - العقل - المعلول - العلة - الوجود والجوهر ..) (4).

1 - انظر القصيدة، ص 94 .

2 - المبين عن معاني ألفاظ الحكماء والمتكلمين، رسالة أبي حسن علي بن أبي علي بن محمد الأمدي، تح: د/عمار طالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1983، ص 64.

3 - انظر القصيدة، ص 94 .

4 - الموسوعة الفلسفية : روزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط 1987/6، ص 83 و 171 و 231.

وفي قوله :

تَجَوُّهُرُكَ الْأَدْنَى عُنَيْتَ بِحِفْظِهِ *** وَضَيَّعْتَ مِنْ جَهْلٍ تَجَوُّهُرُكَ الْأَقْصَى

لقد بعيت ما يبقى بما هو هالك *** وآثرت لو تدرى على فضلك النقصا(1)

فالشاعر هنا يبين لنا أن الإنسان قد انشغل بالحياة الدنيا والتفكير فيها والعناية بكل ما يجري فيها عن الحياة الأخرى، والتي لا يسعد فيها إلا من تهيأ لذلك بأحسن الزاد.

- إلا أننا نلاحظ قلة هذه المعاني والمصطلحات في هذا الشعر، وذلك راجع لرفض أهل الأندلس للأفكار والمعاني الفلسفية، ويتجلى ذلك من مهاجمة ابن بسام للسميسر واتهامه له بعمى البصيرة، لأنه لاحظ في شعره الموالي شيئا من تلك المعاني :

لَيْسَ لِمَنْ لَيْسَتْ لَهُ قُدْرَةٌ *** كَالْأَخِذِ عِنْدَ الرِّزِّعِ بِالصَّبْرِ

أو لا فما حيلة مُستضعفٍ *** ليس له فضلٌ على الذرِّ؟

نسبته منها وهذي وذا *** تحت الذي حُدَّ لَهُ يُجْرِي

مَنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنَ الْأَرْضِ إِذْ *** رُكِبَ لَمْ يَطْلُعْ عَلَى السِّرِّ

حَتَّى تَرَى الْجَثَّةَ مَطْرُوحَةً *** وَالنَّفْسُ فِي عَمَلِهَا تَسْرِي

فَعِنْدَهَا يَأْمَنُ مَا يَتَّقِي *** وَعِنْدَهَا يَعْلَمُ بِالْأَمْرِ

لَقَدْ نَشَبْنَا فِي الْحَيَاةِ السَّيِّئَةِ *** تَوَرَدْنَا فِي ظُلْمَةِ الْقَبْرِ

بِالْيَتْنِ لَمْ نَكُ مِنْ آدَمَ *** أَوْرَطْنَا فِي شِبْهِ الْأَسْرِ

إِنْ كَانَ قَدْ أَخْرَجَهُ ذَنْبُهُ *** فَمَا لَنَا نُشْرِكُ فِي الْأَمْرِ؟(2)

وقد علق ابن بسام عليه بقوله :

«والسميسر في هذا الكلام ممن أخذ الغلو بالتقليد ونادى الحكمة من مكان بعيد،

صرح عن عمى بصيرته ونشر مطبوي سريرته، في غير معنى بديع ولا لفظ

مطبوع...»(3).

1 - فلائد العقبان لابن خاقان، ص 223.

2 - الذخيرة، ق 1، مج 2، ص 890.

3 - المصدر نفسه.

ومع أن الشاعر قد عبر بعمق عن ضعف الإنسان أمام مباحج الحياة، وانغماسه جهلا في بحر الذنوب، فإن ابن بسام يرى أن طلب الحكمة (الفلسفة) والمنطق غلو، وعد الآراء الفلسفية سخيفة، وهذا ما جعل شعراء الأندلس يتعدون عن مثل هذه الآراء لأنها مرفوضة من النقاد ومن العامة أيضا.

- ومن هنا نجد ألفاظهم واضحة المعاني، خالية من الإيحاء والظلال، تقريرية، فكانت سمة هذا الشعر الوضوح، لأنه شعر تعليمي في معظمه، نظم للوعظ والإرشاد كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك.

ولنقرأ قول الطرطوشي الذي ينصح فيه بالتزود بالأعمال الصالحة :

اعملْ لمعادك يارجل *** فالناسُ لدنياهم عملوا
وآخِرَ لسيرك زاد تُقى *** فالقومُ بِلأ زادٍ رَحَلوا(1)

أو نقرأ قول أبي الوليد الباجي :

الحمد لله ذي الإلاءِ والنعَم *** ومبدع السمع والأبصار والكلم
مَنْ يحمد الله يأتيه المزيد ومن *** يكفر فكم نعم آلت إلى نقم(2)

أو قول ابن حزم :

والحمد لله في تفضله *** وقمعه للزمان في نوبه
فاسمع ودع من عصاه ناحية *** لا يحمل الحمل غير محتطبه(3)

أو قول ابن حمديس :

كُنْ واثقا بالله سبحانه *** فهو الذي يصرِفُ عنكَ الخطوب
واصرِفْ إليه الوجهَ عن مَعْشَرٍ *** قد صرفوا عنكَ وجوهَ القلوب(4)

فبقراءة هذه الأبيات يتبين لك وضوح ألفاظهم وسهولتها، لأنها ألفاظ مألوفة لدى

1 - كتاب فلاسفة الإسلام في الغرب العربي، مقال/ جمال الدين الشيبان، ص 218.

2 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 104.

3 - طوق الحمامة، ص 310.

4 - ديوان ابن حمديس، ص 44.

المسلمين، إذ منها يتشكّل معجمهم اللّغوي والذي استقوه من ثقافتهم الإسلامية.
وإذا كان هذا هو شأن الألفاظ، فكيف كانت معانيهم ياترى؟

2- المعاني :

إنّ المعاني أرواح للألفاظ، لذلك فلا انفصام بينهما، لأنهما مرتبطتان ببعضهما في كلّ تعبير، ولا يمكن أن تتصوّر اللفظ بعيداً عن المعنى ومتميّزاً عنه.
وفصل النقاد للألفاظ عن المعاني في دراساتهم لا يعني أنّهما منفصلان في وجودهما الخارجي ولكنّهم فعلوا ذلك مضطرين لغايات تعليمية(1).

وسهولة اللفظ ووضوحه تؤدّي بالضرورة إلى وضوح المعنى، ومن هنا فأول سمة يمكن تسجيلها عند قراءتنا لهذا الشعر : هي أنّ معانيه مألوفة - غالباً - وذلك راجع لكون شعر الزهد متصلاً بعواطف الناس وانفعالاتهم المشتركة، فجاءت ألفاظهم مألوفة، ومعانيهم واضحة، لأنّ وظيفة اللّغة هي التعبير الدقيق عن التجربة(2).

وإذا كان شعر الزهد أكثر ارتباطاً من غيره بفطرة الإنسان السليمة، التي غذاها الإسلام بتعاليمه السّميحة، فإنّ شعرهم هذا كان أميل إلى الطبع والعفوية، لأنّه صورة صادقة لفسيتهم وشعورهم الصادق بوجود الله عزّ وجلّ، وإيمانهم به وبرسوله الكريم صلّى الله عليه وسلّم، واعتقادهم بوجود البعث والنشور، والجنّة والنار وما إلى ذلك من المعتقدات الصّحيحة التي ترجمت عنها أشعارهم.

تلك الأقوال البارعة والمواعظ الغنيّة بالألفاظ التي يساق الوعظ فيها في قوّة جدلية، فتصوّر مفزع الجحيم، أو تذكر غرور الدّنيا أو ثواب التّوبة وعظيم أجرها في الشّيخوخة (3) كلّها معان مطروقة، وإن كانت تتلاقى لدى شعراء

1 - قضايا النقد الأدبي، لبدوي طبانة، ص146.

2 - المرجع نفسه، ص161.

3 - الشعر الأندلسي، غارسيه غومس، ترجمة حسين مؤنس - النهضة المصرية، ط2، 1956م، ص99.

الزهد في درجات متفاوتة من الإلحاح والجودة.

وأكثر المعاني ترددا في شعرهم هي : بكاء الذنوب والمعاصي، ومعاقبة النفس على ما أسلفت من آثام وشرور، أو ما ارتكبت من معاصي، والاعتناظ بالموت، والأمل في عفو الله تعالى، والتضرع إليه وتسبيحه وحمده، وذم الدنيا والغنى، وتمجيد الفقر والزهد في الدنيا، والسخرية من الغافل العاصي، وذم الشيخ المتصابي.. وغير ذلك من المعاني التي يكثر تداولها بين الزهاد وشعراء الزهد.

إلا أن المتبع لشعر الزهد في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري يلاحظ بأن معانيهم مستلهمة من القرآن الكريم، ومقتبسة منه، مما يؤكد ارتباطهم بعقيدتهم وتشبعهم بالثقافة الإسلامية.

ويمكن حصر تلك المعاني في ثلاثة جداول كالتالي :

- 1 - معان تتعلق بالحمد والشكر والتوبة.
- 2 - معان تتعلق بنظرتهم إلى الحياة والموت.
- 3 - معان تتعلق بالقبر وما بعده.

أولاً : جدول معاني الحمد والشكر والتوبة

الآية الكريمة	البيت الشعري
1- «وَإِذْ تَأْذِنُ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ» (2)	1- من يحمد الله يأتيه المزيد ومن يكفر فكم نعم آلت إلى نقم (1)
2 «وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (4)	2- الحمد لله حمد معترف بأن نعمه ليس نحصينها (3)
3 «وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا» (6)	3- أخدمنا الأرض والسماء ومن في الجو من مائه ومن شبهه (5)
4 «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ» (8)	4- ملك تعالی فوق غايات العلی يقضي القضاء على نهايات الثرى (7)
5 «غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ» (10)	5- وإنك مهما زلت النعل بالفتى على العائد التواب بالعمو عائد (9)

1 - انظر الفصل السابق، ص 88.

2 - إبراهيم/9.

3 - انظر الفصل السابق، ص 89.

4 - إبراهيم/36.

5 - انظر الفصل السابق، ص 104.

6 - الجاثية/12.

7 - الذخيرة، ق 1، مج 2، ص 850، والفصل الثالث، ص 102.

8 - طه/111.

9 - الفصل السابق، ص 91.

10 - غافر/2.

6- «وَعَسَتْ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ
وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» (2)

7- «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ
عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ
الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا» (4)

8- «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا
فَطَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي
الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ...» (6)

9- «إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» (8)

10- «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...» (10)

6- وعنت لقيوم السموات العلا
رب الجميع وقاهر الأملاك (1)

7- وإن جهلوا عليك فقل سلاما
لعلك سوف تسلم إن فعلنا (3)

8- وناد إذا تحدث له اعترافا
بما ناداه ذو النون بن متى (5)

9- طوبى لعبد قام خشية ربه
والليل قد ضرب الظلام رواقا (7)

10- من لا يراقب ربه ويخافه

تبت يده وما له من وال (9)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، 38.

2 - طه/108.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 33.

4 - الفرقان/63.

5 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 29.

6 - الأنبياء/86.

7 - ديوان ابن خفاجة، ص 214.

8 - الملك/12.

9 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 41.

10 - المسد/1.

11- ولا تسأل من المملوك شيئا

فترجع خائبا وسل المليك(1)،

11- «ضرب الله مثلا عبدا مملوكا

لا يقدر على شيء...»(2)،

12- يارفيقا بعبده ومحيطا

علمه باختلاف سري وجهري(3)،

12- «ويعلم ما تسرون وما تغلبون

والله عليم بذات الصدور»(4)،

13- فأرسل مرسله بالهدى

على ما قضاه وما قد حتم(5)،

13- «هو الذي أرسل رسوله

بالهدى»(6)،

1 - ديوان ابن حمديس، ص 349.

2 - النحل/75.

3 - ديوان ابن حمديس، ص 266.

4 - التغابن/4.

5 - الفصل السابق، ص 96.

6 - الصف/9.

ثانيا : جدول المعاني المتعلقة بنظرتهم إلى الحياة والموت :

الآية الكريمة	البيت الشعري
1- «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ، وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (2)	1- لا الدهر يبقى ولا الدنيا ولا الفلك الأعلى ولا النيران: الشمس والقمر (1)
2- « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ .. » (4)	2- ولم تخلق لتعمرها ولكن لتعبرها فجد لما خلقنا (3)
3- «وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ» (6)	3- اعمل لدياك يارجل فالناس لدياهم عملوا (5)
4- «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (8)	4- وما دارنا إلا موات لو أننا تفكر والأخرى هي الحيوان (7)
5- «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ..» (10)	5- وارحل إلى الأخرى بزاد التقى فإنما الدنيا متاع الغرور (9)
6- «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ..» (12)	6- وما هي إلا دار هو وفتنة وإن قصارى أهلها النفاذ (11)

1 - الفصل الثالث، ص 108 .

2 - الرحمن/24-25 .

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 29.

4 - القمص/77.

5 - الفصل السابق، ص 144 .

6 - التوبة/106.

7 - الفصل السابق، ص 144 .

8 - العنكبوت/64

9 - الفصل السابق، ص 106 .

10 - الحديد/49 .

11 - الفصل السابق، ص 143 .

12 - عمده/37.

7- « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ

تَمُوتُ » (2)

8- « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ

وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ

بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ

جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ... » (4)

9- « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ » (6)

10- « يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ

لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَاتِكُمْ وَرِيشًا،

وَلِبَاسَ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ... » (8)

11- « وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ

وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » (10)

7- ما يعرف الإنسان أين وفاته

أفي البر أم في البحر أم بفلاة (1)

8- وإذا أردت صحيح من يكوى بها

فاقرأ عقية سورة الأنفال (3)

9- أليس بنو الزمان بنو أيكا

فجرد عن حقائقك الشكوكا (5)

10- أين الجبارة الألى ورياشهم

قد باشروا بعد الحرير ثراك (7)

11- كلنا ضائر إلى الله حتما

واستراح العذول والمعدول (9)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 54.

2 - لقمان / 33 .

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 40.

4 - التوبة/ 34-35.

5 - ديوان ابن جندب، ص 349.

6 - النساء/ 1.

7- ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 37.

8 - الأعراف/ 25.

9 - الفصل السابق، ص 453 .

10 - البقرة/ 221.

<p>12- «...فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ، كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَنَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ» (2)</p>	<p>12- أَمْ يَغُصُّ بِهَا الْفُضَاءُ طَوْتَهُمْ كف-الردي طلي الرداء فبادوا(1)</p>
---	---

ثالثا : المعاني المتعلقة بالقبر وما بعده :

الآية الكريمة	البيوت الشعرية
<p>1- «وَالْمَوْتَى يَعْثُبُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» (4)</p> <p>2- «أَيَحْسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسْوِيَهُ بِنَانِهِ» (6)</p> <p>3- «إِنَّ الْأُبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ» (8)</p>	<p>1- ويعث الله من جوف الثرى أما كانت عظامهم تبلى وتنتهك(3)</p> <p>2- إن فرقك تربة فالله سوف يجمعك(5)</p> <p>3- وكل مدين بما كان دان فثم الجزاء وثم الحساب ولاخطة غير اثنتين إما نعيم وإما عذاب(7)</p>

1 - الفصل الثالث، ص 166 .

2 - غافر/21.

3 - الفصل السابق، ص 158 .

4 - الأنعام/37.

5 - الفصل السابق، ص 163 .

6 - القيامة/3-4.

7 - الفصل السابق، ص 164 .

8 - الانفطار/13-14.

4 - وصار من يسعد في جنة

عالية في رحمة الله،(1)

5 - يسكن في الفردوس في قبة

من لؤلؤ في جيرة الله،(3)

6 - ومن يكن يقضى عليه الشقا

في جاحم في سخط الله

يسحب في النار على وجهه

بسابق الحكم من الله،(5)

7 - إذا حشرت فيه الوحوش وجمعت

صحائفنا وانتال فينا انتشارها،(7)

8 - فإما لدار ليس يفنى نعيمها

وإما لدار لا يفك أسرارها،(10)

4 «فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ، فِي جَنَّةٍ

عَالِيَةٍ»(2)

5 «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا»(4)

6 «إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ،

يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ

ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ»(6)

7 - «وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ»(8)

«وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ»(9)

8 «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ»(11)

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ»(12)

1 - الفصل السابق، ص 167 .

2 - الخاقعة/20-21 .

3 - الفصل السابق، ص 167 .

4 - الكهف/102 .

5 - الفصل السابق، 167

6 - القمر/47-48 .

7 - الفصل الثالث، ص 170 .

8 - التكويد/5 .

9 - التكويد/10 .

10 - الفصل السابق، ص 170 .

11 - الطور/15 .

12 - الأنفال/36 .

9- «فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا

إِلَّا الْأَشْقَى» (2)

9. ويهوي بها الأشقى على رأسه

فالويل للأشقى من النار (1)

سذه أمثلة قليلة عرضناها على سبيل التمثيل لا الحصر، لأنه لا يمكننا حصر كل المعاني لكثرتها، إذ كلما قرأنا بيتا من هذا الشعر إلا ولاح لنا لفظ أو معنى مأخوذ من القرآن الكريم أو مقتبس من الحديث الشريف، لذا نجد أنفسنا أمام حشد من المعاني الإسلامية التي تعكس خلفية ثقافتهم، وفهمهم للقرآن الكريم الذي استمدوا منه نظرتهم إلى الحياة والموت، والجنة والنار، والحساب والعقاب، وتعددت معانيهم حول هذه المواضيع التي امتلأت بها جوانحهم وتشبعت بها نفوسهم ففاضت على ألسنتهم عذبة سلسلة ، ترتاح إليها النفس ، ويطمئن إليها القلب .

- وقد جاءت هذه المعاني كما صورها القرآن الكريم، وهدفهم من حشدها في شعرهم هو تنبيه الناس الغافلين، ووعظهم وتوجيههم، لإيمانهم برسالتهم التربوية.

- وجاءت معانيهم واضحة مؤثرة، وحشدهم لتلك المعاني يدل على صدقهم ورجبتهم في تنبيه الناس ووعظهم.

- وأما عن تذكير الناس بالموت ودعوتهم إلى تذكره، فذلك يعود إلى غفلة الناس ونسيانهم له، على الرغم من أنهم يعمرون به دائما، وهذا التنبيه يدخل ضمن الرسالة التربوية التي يحملها هؤلاء الشعراء على عاتقهم فمع غفلة الإنسان عن الموت والتفكير في مصيره، وأمام بريق الحياة ومفاتها، وسعي النفس لتحقيق رغباتها، كان لابد من التذكير بالموت وما بعده من يوم القيامة والحشر والحساب.

- وجاء ذكر القبر كمرحلة أولى تفضي بالإنسان إلى البعث والنشور، والحساب ثم القرار الذي يستمر فيه الإنسان حسب ما قدمت يداها، فيكون إما في الجنة أو في النار. وتحدثوا عن القيامة كما صورت في القرآن الكريم - أيضا - وقد سبقت الإشارة إلى تضمين سورة من القرآن الكريم خدمة لذلك المعنى.

1 - الفصل السابق، ص 76 .

2 - الليل/14-15 .

- كما اتسمت معانيهم بالبساطة - والسطحية - غالبا - وذلك لبعدهم عن النظرة الفلسفية العميقة، ولنفور أهل الأندلس من الفلسفة ورفضهم لها، معتقدين أنها تفضي بصاحبها إلى الزندقة والكفر(1).

- ومع ذلك نجد شعر بعضهم يتسم بالعمق، وتغلب عليه النزعة العقلية، وذلك يعود لاهتمام هؤلاء الشعراء بالفلسفة وتشبعهم بها، ومن بين تلك الأشعار نذكر قول البطليوسي :

وَهَلْ يُوجَدُ الْمَعْلُولُ مِنْ غَيْرِ عَلَّةٍ *** إِذَا صَحَّ فِكْرٌ أَوْ رَأَى الرَّشْدَ رَاشِدُ
* * *

وَكُلُّ وَجُودٍ عَنِ وَجُودِكَ كَائِنٌ *** فَوَاجِدُ أَصْنَافِ الْوَرَى لَكَ وَاجِدُ(2)
وله أيضا في قصيدة أخرى :

تَجُوهْرُكَ الْأَدْنَى عَنِيَتْ بِحَفْظِهِ *** وَضِيْعَتْ مِنْ جَهْلِ تَجُوهْرِكَ الْأَقْصَى(3)
وكذلك قول السميسر :

مَنْ كَانَ مَخْلُوقًا مِنَ الْأَرْضِ إِذْ *** رَكِبَ لَمْ يَطَّلِعْ عَلَى السَّرِّ(4)
وقد عقب ابن بسام على هذه الأبيات بتعقيب يفهم من فحواه رفض الأندلسيين للمعاني الفلسفية، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك التعقيب في هذا الفصل(5).
- وجاءت معانيهم موافقة للعقيدة الإسلامية، داعية إليها، مثل ما جاء في قول أبي الوليد الباجي :

قَدْ أَفْلَحَ الْقَائِنُ فِي جُنْحِ الدُّجَى *** يَتْلُو الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ النَّيْرَا
فَقَائِمًا وَرَاكِعًا وَسَاجِدًا *** مَبْتَهَلًا مُسْتَغْفِرًا(6)

1 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - لإحسان عباس، ص 30.

2 - أزهار الرياض، ج3، ص 117.

3 - المصدر نفسه، ص 146.

4 - انظر الأبيات، ص 80 .

5 - انظر ص 33 .

6 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 104-105.

فهي ترغب في قيام الليل وقراءة القرآن، والإكثار من الابتهاج والاستغفار، وكل ذلك دعت إليه العقيدة السمحة ورغبت فيه. والقصيدة واضحة المعاني سهلة التراكيب، ألفاظها مألوفة مستقاة من الكتاب والسنة، فجاءت معانيها شفافة ما إن ينطق بها اللسان حتى تحترق الأذن وتصل إلى النفس المتعطشة لمثل هذه النصائح والتوجيهات، هذا النصح الذي أخذته هؤلاء الشعراء كمسؤولية التزموا بها، فهذا ابن حزم الذي تشبع بالعقيدة الإسلامية ونهل من نبعها الفياض، ما ساعده على الوقوف أمام نفسه موقف الناصح الواعظ، فنظم في ذلك أروع القصائد من بينها هذه القصيدة التي أنشأها في نهى النفس عن اتباع الهوى، وفيها يقول :

أقولُ لِنَفْسِي ما مُبِينٌ كحالِك *** وما الناسُ إلا هالك وابنُ هالك
صُنِ النَّفْسَ عَمَّا عابَها وأرْفَضِ الهوى *** فإنَّ الهوى مِفْتاحُ بابِ المِهالِكِ(1)،
وهي قصيدة قيمة بما اشتملت عليه من جواهر إنسانية، وجاءت معانيها واضحة سهلة، قريبة التناول، ولنقرأ قوله :

سَبِيلُ التَّقَى والنَّسْلِ خَيْرُ المَسالِكِ *** وَسالِكُها مُسْتَبصِرٌ خَيْرُ سالكِ
وَمَنْ عَرَفَ الرَّحْمَنَ لَمْ يَعْصِ أَمْرَهُ *** ولو أَنَّهُ يُعْطى جَميعَ المَمالِكِ(2)،

والقصيدة عبارة عن حكم ومواعظ مستقاة من العقيدة الإسلامية، وموافقة لها. وهنا تظهر سمة أخرى من سمات هذا الشعر، وهي ذبوع الحكمة فيه، تلك الحكمة التي استقوها من ثقافتهم وتجاربهم في الحياة.

وهذه الحكم تجدها كثيرا في أشعارهم، مما جعل معانيهم تقريرية تخاطب العقل بالحجة والدليل، وقد جظيت الحكمة لدى هؤلاء الشعراء بالناية والاهتمام، وإنك لا تجد قصيدة من قصائدهم تخلو منها فهي القاعدة الأساس التي تبنى عليها نصائحهم وإرشاداتهم القيمة، التي تعين على فهم الحياة، وتبصر الغافلين وتهددهم إلى سواء السبيل.

1 - طوق الحمامة، ص 298-300.

2 - المصدر نفسه، ص 301.

ومن بين الحكم التي جاءت لكشف القناع عن الدنيا، وإظهار حقيقتها،
قول أبي إسحاق الإلبيري :

تفت فؤادك الأيام فتاً *** وتنحت جسمك الساعات نحتاً(1)
والقصيدة طويلة كلها نصائح وحكم.

وكذلك قوله في قصيدة أخرى :

أين الملوك وأين ما جمعوا وما *** ذخروه من ذهب المتاع الذاهب(2)
ومن هنا يمكن القول بأن معانيهم تراوحت بين العمق والسطحية.

ولعل فضل هؤلاء الشعراء وجودتهم، تظهر من خلال تجديدهم في بعض
المعاني، ومن بينهم نذكر أبا إسحاق الإلبيري الذي استغل بعض الألفاظ والمعاني التي
لم تكن تستعمل في هذا الغرض وطوعها له، مثل ما جاء في قوله :

ومهما أفتض أباكار الغواني *** فكم بكر من الحكم أفتضنا(3)

وقد ورد هذا المعنى في غير هذا الموضع، أي في قصيدة أخرى، في تصويره للصراع
النفسي القائم بين الواجب الديني وهوى النفس فيقول :

حسبي كتاب الله فهو تنعمي *** وتأنسي في وحشتي بدفاتري

أفتض أباكارا بها يغسلن من *** يفتضهن بكل معنى طاهر(4)

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 25.

2 - المصدر نفسه، ص 106.

3 - المصدر نفسه، ص 25.

4 - المصدر نفسه، ص 75.

المعنى وعلاقته بواقع الحياة :

إن شعراء الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري لم يكونوا سلبين، لأن الزهد بالنسبة إليهم ليس معناه الانزواء في الصوامع والمعابد، والعزوف عن الناس، بل هو عمل وجهاد، ومن هنا جاءت مساهمتهم في الحياة من حولهم، وحاولوا إصلاح ما فسد منها، فكانوا بذلك مثالا للزاهد العابد الذي يرى نفسه مسؤولاً أمام الله عز وجل عما أصاب البلاد والعباد من فساد، فهذا أبو إسحاق الإلبيري ينظم قصيدة رائعة، في التحريض على اليهود الذين استشرى خطرهم في غرناطة - تلك الأيام - بعد أن قلد ملكها باديس بن حبوس، يوسف بن صمويل المعروف - بابن النغرة - مفاتيح الوزارة والكتابة، وكان هذا الأخير يهودياً، فشكل منصبه خطراً على المسلمين أصحاب البلاد، فنظم الشاعر قصيدته التي كان لها دور عظيم في تاريخ الأمة الإسلامية آنذاك، لأنها كانت بمثابة القنبلة التي أشعلت نار الحرب على اليهود(1). إنها ليست قصيدة في الزهد، ولكن نظمها شاعر زاهد عابد، غيور على دينه وأمه، فتحدث إلى شعبه بلغة بسيطة متواضعة، فكانت كلماته ومعانيه حديثاً من القلب إلى القلب، أشهدهم على خطأ ملكهم، الذي تخير وزيراً كافراً، وفي المسلمين من يصلح لذلك المنصب، مما مكن لليهود، فحققوا مآربهم، وأقصي المسلمون وضاعت حقوقهم، وفي ذلك يقول الشاعر :

أَلَا قُلْ لَصْنَهَا جَعَةً أَجْمَعِينَ *** بدور النَّدِي أسد القَرِينِ
لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلًّا *** تقرُّ بها أعينُ الشَّامِتِينَ
تَخَيَّرَ كَاتِبُهُ كَافِرًا *** ولو شاءَ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ
فَعَزَّ الْيَهُودُ بِهِ وَانْتَخَبُوا *** وَتَاهُوا وَكَانُوا الْأَرْدَلِينَ
وَنَالُوا مِنْهُمْ وَجَازُوا الْمَدَى *** فَحَانَ الْهَلَاكُ وَمَا يَشْعُرُونَ
فَكَمْ مُسْلِمٍ فَاضِلٍ قَانِتٍ *** لَأَرْدَلٍ قَرْدٍ مِنَ الْمَشْرُكِينَ(2)

1 - تاريخ إسبانيا الإسلامية (أعمال الأعلام) لابن الخحطيب ص 231.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 89.

وما كان ذلك من سعيهم *** ولكن منا يقوم المعين
 فهلاً اقتدى فيهم بالألى *** من القادة الخيرة المتقين
 وأنزلهم حيث يستأهلون *** وردهم أسفل السافلين(1)
 وهي قصيدة طويلة بلغت ثمانية وأربعون بيتاً (48)، وقد استعان الشاعر فيها بالألفاظ
 الجزلة الواضحة والتراكيب السهلة، والإشارات القرآنية مما ألهب الحماس وشحذ
 الهمم، فكانت الثورة على اليهود، والجزرة التي قتل فيها ابن النغلة وعدد كبير من
 اليهود(2)، وهكذا نرى قصيدة فجرت ثورة وخلصت البلاد والعباد من الظلم.

ونرى إلى جانب ذلك شاعراً آخر يقف من ملوك عصره موقف عداء،
 فيدعو إلى الثورة عليهم، في وقت كان بإمكانه أن يتقرب منهم ويمدحهم ليحظى
 برضاهم، إنه السميسر الذي صرخ في وجه الملوك بأعلى صوته قائلاً :

نادِ الملوك وقلْ لهم *** ماذا الذي أحدثتم
 أسلمتم الإسلام في *** أسر العدا وقعدتم
 وجب القيام عليكم *** إذ بالنصاري قمتم
 لا تنكروا شق العصا *** فعصا النبي شققتم(3)

ولما رأى تخاذل الملوك من حوله وفساد أحوالهم، وميلهم إلى الراحة والدعة، استجمع
 أمره، وقال كلمته في حكام غرناطة، تلك الكلمة الساخرة البسيطة الموجعة :
 رأيت آدم في نومي فقلت له *** أبا البرية إن الناس قد حكّموا
 أن البرابر نسل منك فقال: إذا *** حواء طالقة إن صح ما زعموا(4).

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 89-90.

2 - انظر دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، للظاهر أحمد مكي، ط3، 1987م. دار المعارف -

القاهرة. ص 57 وتاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب ص 233.

3 - دراسات أندلسية، للظاهر أحمد مكي، ص 65.

4 - المرجع نفسه، ص 66.

وهكذا عبّر الشاعر عن رفضه لاختلال القيم والموازن، وظهور الباطل على الحق.
- وقد شارك شعراء الأندلس في الحياة من حولهم، وخاضوا غمارها، كما استوفى شعرهم في الزهد كل المعاني الزهدية، وأصدق حكم عليه هو قول إحسان عباس :
«وعندي أن الإليري قد وصل بشعره الزهدي في الأدب العربي - لا في الأندلس فحسب - إلى قمة، بما أضفى عليه من حرارة الوجد والانفعال، والإقرار بالضعف الإنساني أمام مغريات الحياة ومكافحة الشهوة العارمة»(1).

وقد خصص الإليري بهذا الحكم لأنه هو الشاعر الوحيد الذي وصلنا منه ديوانا كاملا في الزهد، **لَا أَنْ شِعْرَ غَيْرِهِ مِنْ شِعْرَاءِ عَصْرِهِ لَا يَقِلُّ قِيمَةً عَنْ شِعْرِهِ .**
ج - الأسلوب :

إنّ اللغة والأسلوب متلازمان متكاملان، لذلك فقد بينا سابقا خصائصهما اللغوية من خلال اللفظ والمعنى، وسوف نتطرق فيما يلي إلى كيفية تعاملهم مع تلك اللغة.

إنّ دارس شعر الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري، يلاحظ أن شخصية هؤلاء الشعراء واضحة المعالم، لتمييز أسلوبهم بالرصانة والجودة، وميلهم إلى تحكيم العقل، وبخاصة عند ما يتوجهون إلى الناس محاولين تبيينهم من غفلتهم، فيضطرون لمخاطبة العقل بالحجة والبرهان، وهذا ما يؤكد تعاملهم الواعي مع اللغة، إذ كانوا يتخيرون اللفظ المناسب للمعنى المناسب، ولا غرو في ذلك، لأن مصدرهم الأساسي في هذا الشعر هو القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وهما كما نعلم يأتيان في أعلى مراتب البلاغة والبيان، فالقرآن الكريم، هو كلام الله المعجز الذي تحدى فطاحل البلاغة والبيان قديما وحديثا، وستظل معجزته قائمة إلى يوم الدين، قال تعالى : ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْجِنَّ وَالْإِنْسُ عَلَيَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾(2)، وهؤلاء الشعراء استمدوا من القرآن

1 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين، لإحسان عباس، ص 136.

2 - الإسراء/88.

إمكاناتهم التعبيرية والأسلوبية.

ولما كان معظم هذا الشعر نظم للوعظ والتوجيه فإننا نجدهم قد أكثروا من توظيف أساليب الأمر والنهي والنداء، وتوسلوا بالشرط والتحضيض والاستفهام أحيانا لملاءمة هذه الأساليب الإنشائية لغرضهم.

فالنهي وظف للحث على ترك الفعل وعدم القيام به، وغرضهم هو إسداء النصائح، ويتبين ذلك من خلال قول ابن حزم :

فلا تتبّع داراً قليلاً لبائها *** فقد أندرُتْنا بالفناءِ المواشِكِ(1)

فالشاعر هنا ينصح بالزهد في الدنيا والإعراض عن زخرفها وملذاتها، وحتى يكون لنهيه وقع في النفس، أتبعه بالتعليل، وبيان السبب الذي جاء من أجله النهي، وهو من ثم يخاطب العقل الواعي، مقدما الحجة والدليل على الدافع لذلك الطلب، طلب ترك الدنيا لأنها فانية، والفاني لا خير فيه.

كما جاء النهي في قول أبي إسحاق الإلبيري :

لا تحقر بنذرِ الشيبِ واعلم *** بأنَّ القطرَ يبعث بالسيول(2)

والشاعر يطلب ترك فعل الاحتقار لنذر الشيب، ويعلل نهيه في الشطر الثاني بصورة لطيفة، تبيّن بخطر المنذر حتى وإن كانت بدايته صغيرة، والتعليل الحسن يساعد على توضيح الفكرة، وينقل إحساس الشاعر نقلا أمينا ودقيقا.

- وكما وظفوا النهي، وظفوا أساليب الأمر أيضا لغرض النصح والوعظ، وهو الغرض الأساسي من هذا الشعر.

ومن بين تلك الأمثلة الكثيرة نذكر قول الحميدي :

1 - طوق الحمامة، لابن حزم، ص 298.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 88.

كلامُ الله عزَّ وجلَّ قولِي *** وما صَحَّتْ به الآثارُ ديني
فَدَعُ مَا صَدَّ عَن هَدْيِي وَخُذَهَا *** تَكُنْ مِنهَا عَلَى عَيْنِ الْيَقِينِ(1)

وإيمان هؤلاء الشعراء بتقويم النفوس وإصلاحها هو الذي جعل أسلوبهم
يُجَنِّح إلى الوعظ والإرشاد، فحساء أسلوب تخويفي تعليمي غالباً ما تكون الدعوة فيه
إلى التفكير في الموت والتذكير بلقاء الله عز وجل، واستصغار الدنيا في أعينهم،
والتقليل من شأنها رغبة في تطهير النفوس من أدرانها، ومداواتها من شرورها، وذلك
بتقوية الجانب الروحي القائم على صلتهم بالله عز وجل، والعمل من أجل الفوز
برحمته ورضوانه، لذا كان أسلوب الأمر أليق الأساليب وأحسنها للقيام بهذه
الأغراض.

- وكما وظفوا هذا الأسلوب في الدعوة إلى الإيمان، فإنهم وظفوه أيضاً في الدعوة إلى
ترك الدنيا وزخرفها، وفي ذلك جاء قول أبي إسحاق الإلبيري :

فَخُذِ الْكِفَافَ وَلَا تَكُنْ ذَا فَضْلَةٍ *** فالفضل تسأل عنه أيّ سؤال
وَدَعْ الْمِطَارْفَ وَالْمِطْيَ لِأَهْلِهَا *** واقنع بأطمارٍ ولبسٍ نَعَالٍ(2)

فقد جمع الشاعر في البيت الأول بين الأمر (خذ) والنهي (لا تكن) مما يؤكد شعوره
وإحساسه بالمسؤولية الملقاة عليه، فهو لا يريد أن يترك في نفوسنا شيئاً من التردد في
الأخذ بنصيحته والعمل بها، لذلك نراه يردف الأمر بالنهي، حتى يتسنى له تقديم
التعليل المنطقي، الذي يساعد على إقناع العقل وارتياح النفس.

- ويكثر أسلوب الأمر في قصيدة أبي إسحاق الإلبيري التي مطلعها :

يَا أَيُّهَا الْمَغْتَرُ بِاللَّهِ *** فَرِّ مِنَ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ
ولذ به واسأله من فضله *** فَقَدْ نَجَا مَنْ لَأَدَّ بِاللَّهِ(3)

1 - نفع الطيب للمفري، ج2، ص115.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص40.

3 - المصدر نفسه، ص63.

ومما جاء في النصح بطريقة الأمر أيضا قول أبي إسحاق الإلبيري :

وأكثرُوا من ذِكْرِ مولاكم *** فذكره يُنجي من النار(1)

كما حذر من هول النار، وذلك لا يكون إلا عن طريق تذكرها وذكر أهوالها، وفي ذلك جاء قول أبي إسحاق الإلبيري :

ففكروا في هولها واحذروا *** ما حذر الله من النار(2)

وجاء في النصح بطاعة الله وتجنب عُصَايَةِ قول ابن حزم :

فاسمعْ ودَعْ من عَصَاهُ نَاحِيَةً *** لا يحمل الحمل غير محتطبه(3)

ولتأمل قول أبي إسحاق الإلبيري :

أنتَ المخاطبُ أَيُّهَا الإنسانُ *** فأصيخُ إليّ يُلخُ لك البرهانُ

* * *

فانظُرْ بعقلِكَ مِنْ بَنَانِكَ واعتَبِرْ

إِتْقَانَ صَنَعَتِهِ فَتَمَّ الشَّانُ(4)

وفي قصيدة أخرى نجده يقول :

يا أَيُّهَا الغَافِلُ عَن نَفْسِهِ *** وَيَلِكُ أَفَقٌ مِنْ سَنَةِ الغَافِلِ

وانظُرْ إِلَى الطَّاعَةِ مشهورة *** وفي الفلك الصاعد النازل

والحظُّ بعينِكَ أديهم السَّمَا *** مِنْ طَالِعِ فِيهَا وَأفِـلِ(5)

وهكذا نرى الشاعر قد وفق في اختيار أسلوب الأمر طريقا للنصح والتوجيه، وكثيرة مثل هذه الأساليب في القرآن الكريم، لأن الله عز وجل يدعوا الإنسان إلى أعمال الفكر في نفسه وفيما حوله، ليتوصل بعد ذلك بنفسه إلى إدراك الحقائق التي تؤكد

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 63.

2 - المصدر نفسه، ص 86.

3 - طوق الحمامة، ص 310.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 59.

5 - المصدر نفسه، ص 58.

وجود الله ووحدانيته وقدرته، وهؤلاء الشعراء الذين نهلوا من القرآن الكريم وتشبعوا بروحه، لم يجدوا أسلوباً آخر أفضل من أسلوبه فحاكوه، وفضلوا الأمر والنهي أسلوباً للنصح والإرشاد للملاءمة ذلك لغرضهم الأدبي، وهم إذ يميلون إلى هذا الأسلوب لأنه يمنح للإنسان الفرصة للتفكير والاختيار.

- كما جاء أسلوب الأمر للدعاء والتضرع، في مخاطبة الله عز وجل، نذكر منه قول ابن حمديس:

يا رقيقاً بعده ومحيطاً *** علمه باختلاف سري وجهري
 مل بقلبي إلى صلاح فسادي *** منه واجيز برأفة منك كسري
 وأجرني مما جناه لسانسي *** وتناجت به وسوس فكسري(1)

وكذلك في قول أبي الوليد الباجي:

إذا كنت ربي في طريقي صاحباً *** وتخلفني في الأهل ما دمت غائباً
 فسهل سبيلي وأزور عني شرها *** وشر الذي ألقاه في الأهل آيباً(2)

وهكذا يمكننا أن نقول: إن أساليب الأمر التي وظفت في مخاطبة الإنسان، جاءت لنصحه ووعظه، وأما الأساليب الموظفة في مخاطبة الله عز وجل فغرضها التوسل والتضرع والدعاء.

- ومن الأساليب التي وفق هؤلاء الشعراء في توظيفها أسلوب الشرط، وهو «تركيب مبني على تآلف جمل بعلاقة إسنادية مركبة»(3)، ومن ثم فهذا الأسلوب يوضح قدرة هؤلاء الشعراء على التعبير، وسيطرتهم على أدواته الفنية.

وقد استدعي هذا الأسلوب لبيان الجزاء المترتب على مخالفة النواهي، ومن أمثلة ذلك

1 - ديوان ابن حمديس، ص 266.

2 - الذخيرة، ق 2، مج 1، ص 104.

3 - في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر، مالك يوسف المظلي، دار الرشيد للنشر - العراق - 1981،

ص 40.

قول أبي إسحاق الإلبيري :

فَإِنْ عَاقَبْتَ يَارَبَّ تَعَايَبَ *** مُحَقًّا بِالْعَذَابِ وَالنَّكَالِ
وَإِنْ تَعَفَّ فَعَفُّوكَ قَدْ أَرَانِي *** لِأَفْعَالِي وَأَوْزَارِي الثَّقَالِ(1)

والتعبير بأسلوب الشرط هنا ضروري لأنه لا يوجد أسلوب آخر باستطاعته تأدية المعنى كما يؤديه الشرط، وذلك لأن الشرط يفرغ الفعل الذي يلي أدوات الشرط من الدلالة على الزمان، وبذلك تظل أحداثه معلقة، يجوز أن تقع أو لا تقع(2)، لذا فالإخبار بالفعل الماضي : «عاقبت» لا يدل على وقوع الفعل في الماضي نهائياً، لأنه متعلق في المستقبل، فيجوز حصول العقاب أو عدم حصوله.

ومن أساليب الشرط أيضاً قول أبي الوليد الباجي :

مَنْ يَنْصَبِ اللَّيْلَ يَنْلُ رَاحَتَهُ *** عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمَ السَّرِي(3)

فالشاعر ينصح بقيام الليل، ويعلل ذلك بالمتعة التي يحس بها الإنسان بعد ذلك، أي بعد أدائه لواجب الطاعة.

وقد نوعوا في أدوات الشرط وحاولوا توظيف أكبر عدد منها نذكر أيضاً

توظيف «إذا» في قول أبي إسحاق الإلبيري :

إِذَا لَمْ يَكُنْ فَهَمِي إِلَى الْخَيْرِ قَائِدِي *** فَلَا كَانَ فَهَمِي وَلَا كَانَ تَمَيِّزِي(4)

ومن الأساليب التي وظفوها في شعرهم، أسلوب التوكيد، الذي توسلوا

إليه بأدواته المعروفة مثل : قد - والقسم - إنَّ وأنَّ - أو : التكرار الذي هو طريقة للتوكيد أيضاً.

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 108.

2 - في التركيب اللغوي للشعر العراقي، مالك يوسف المطلي، ص 55.

3 - الذخيرة لابن بسام، ق 2، مج 1، ص 104.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 69.

- ومن أمثلة ذلك نذكر قول البطلوسي :

إِلَهِي إِنِّي شَاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ *** وَإِنِّي لَسَاعٌ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدٌ(1)

فاستعمال «إِنَّ» هنا يفيد التوكيد، ذلك التوكيد الذي يلح عليه الشاعر في البيت، ويردده بلام التوكيد في قوله : «وإنني لساع» مما يوحي برغبة الشاعر الملحة على التضرع والتقرب من الله عز وجل.

وقول أبي الوليد الباجي :

الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدٌ مُعْتَرِفٌ *** بِأَنَّ نِعْمَاهُ لَيْسَ تُحْصِيهَا

وَأَنَّ مَا بِالْعِبَادِ مِنْ نِعَمٍ *** فَإِنَّ مَوْلَى الْأَنْامِ مُوْلِيهَا(2)

فقد نوع الشاعر في أدوات التوكيد، فمن استعماله لـ «إِنَّ» وحرف الجر الزائد «الباء» إلى استدعاء المصدر «حمد» الذي جاء مبينا لنوعية الحمد وكيفيته، فهو «حمد معترف» بفضل الله عليه وبنعمه الكثيرة، وهذا الأسلوب يدل بوضوح على الحالة النفسية للشاعر، وهي الإيمان والاعتراف بفضل الله عليه.

- ومن الأساليب التي اقتضاها المقام أسلوب النداء الذي يأتي إما للتضرع لله عز وجل، والتوجه إليه في ضعف وخوف وأمل ورجاء، أو في مخاطبة الإنسان الغافل قصد تنبيهه.

- ومن النوع الأول نذكر قول أبي الصلت :

يَا رَبِّ مَا أَرْجُو رِضَاكَ بِهِ *** إِلَّا اعْتِرَافِي بِأَنِّي الْمَذْنِبُ الْخَاطِي(3)

وكذلك قول البطلوسي :

إِلَهِي إِنِّي شَاكِرٌ لَكَ حَامِدٌ *** وَإِنِّي لَسَاعٌ فِي رِضَاكَ وَجَاهِدٌ(4)

وحذف أداة النداء هنا في «إلهي» توحى بتلك الصلة القوية بين الشاعر وخالقه،

1 - أزهار الرياض، ج3، ص116.

2 - الذخيرة، ق2، ج1، ص104.

3 - ديوان أبي الصلت، ص115.

4 - أزهار الرياض، ج3، ص116.

لذلك فهو تعبير موفق، وما يزيد أسلوب النداء رقة هو تلك الياء المكسور ما قبلها التي تصاحبه فتوحى بذلك الجو النفسي الذي يعيشه الشاعر، فهو أمام ربه ضعيف فقير إلى رحمته وعفوه وعطفه.

- وأما من النداء الموجه إلى مخاطبة النفس ومعاتبتها، أو مخاطبة الإنسان الغافل لتبنيه، فنذكر قول ابن حزم :

يا نفسُ جِدِّي وشمري ودعي *** عنكِ أتباع الهوى على لغبه^١
وسارعي في النجاة واجتهدي *** ساعيةً في الخلاص من كربه
يا أيها اللعاب المجدبه الدهر ————— أما تتقي شبانكبه⁽¹⁾

وتوجيه النداء للنفس ومخاطبتها، يدل هنا على أن هؤلاء الشعراء قد عرفوا الله وآمنوا به، فحاء خطاب النفس لتبنيها ونصحها، ولا خير فيمن ينصح الناس وينسى نفسه. وفي تبنيه الغافل جاء قول أبي الحسن الطيطل :

يا غافلاً شأنه الرقادُ *** كأنما غيرك المرادُ
والموتُ يرعاك كل حين *** فكيف لم يجفك المهادُ⁽²⁾

وفي هذا التبنيه دعوة إلى الاعتبار بالموت الذي يحيط بنا، والإقبال على الطاعات والعبادات للتزود بها للدار الآخرة.

- ومن الأساليب التي أحسنوا توظيفها أيضاً أسلوب الاستفهام، ويتجلى ذلك بوضوح في قصيدة للبطلوسى، والتي بناها على هذا الأسلوب للإقرار بوجود الله ووحدانيته، ومنها :

وهل في التي أطاعوا لها وتعبدوا *** لأمرك عاصي أو لحقك جاحسدُ
وهل يوجدُ المعلولُ من غيرِ علةٍ *** إذا صحَّ فكر أو رأى الرشدُ راشدُ⁽³⁾

1 - طوق الحمامة، لابن حزم، ص 309.

2 - الذخيرة، ق 2، مج 2، ص 798.

3 - انظر القصيدة في الفصل السابق، ص 91 .

- وقد استعانوا بالحوار على توضيح أفكارهم ومحاولة إقناعنا برؤيتهم في الحياة والموت، أو في الدعوة إلى أعمال الفكر في أنفسنا أو فيما حولنا من خلق الله لنستدل بآياته على حقيقة وجوده ووحدانيته.

ونذكر من ذلك قصيدة أبي إسحاق الإلبيري في ذمه للدنيا إذ يقول :

نادتُ بي الدنيا فقلتُ لها : أَقْصِرِي *** ما عُدَّ في الأكياسِ من لَبَّاءِكَ
قالتُ : أَغْرَكَ من جناحك طولُكُ *** وكان به قد قُصَّ في أشراكِ(1)

وكما وفق الشاعر في اتخاذه أسلوب الحوار طريقة لوصف الدنيا وإظهار حقيقتها، فقد وفق في اختيار القافية، وجاء حرف (الكاف) مناسباً للجو النفسي للشاعر، فهو يصور الدنيا بنظرة الإنسان الهادئ. المتأمل في كل ما حوله، محاولاً بذلك التغلغل في أعماق الحياة لمعرفة كنهها وكشفها على حقيقتها، وإظهار ذلك للناس عليهم يعتبرون فيتجنبونها ويزهدون في ملذاتها التي تسيهم ربهم وتبعدهم عنه.

وقد كثر هذا الأسلوب، لأن الشاعر إما يخاطب نفسه متلوماً متحسراً، أو

يبنه غافلاً فينصحه بالانتباه، أو يخاطب ربه متوسلاً متضرعاً.

فهذا أبو إسحاق الإلبيري يخاطب نفسه في قوله :

أباً بكرٍ دعوتُكَ لو أجبْتَا *** إلى ما فيه حظك إن عَقَلْتَا(2)

وهم في ذلك ليسوا مبدعين ولا مخترعين، لأن أسلوب المحاوره نجده ركناً من أركان الأسلوب القرآني، وكذا نجده في أساليب الشعراء قديمهم حديثهم.

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 36.

2 - انظر القصيدة، ص 114 .

ثالثا : التصوير الفني :

ويقصد به التعبير بواسطة الصورة، وهو أحد الأركان الهامة التي يبنى عليها الشعر، ويطلق عليه (الصورة الشعرية) أو التصوير الشعري(1).

والصورة وسيلة تعبيرية تعين الأدب على التعمق في فهم الواقع وإدراك حقائقه التي لا يستطيع إدراكها إلا الفنان(2). وهي ليست شيئا جديدا في الشعر، لأنها روحه التي لا يمكنه الاستغناء عنها.

ويستعمل لفظ «الصورة» في الأدب «عادة للدلالة على كل ما له صلة بالتعبير الحسي، وتطلق أحيانا مرادفة للاستعمال الاستعاري للكلمات»(3). ومن هذه العبارة الأخيرة يمكننا القول بأن كل تعبير مجازي وكل تشبيه يدخل في مفهوم الصورة.

ويمكن عدّها ثمرة من ثمرات الخيال «الذي اتخذه الإنسان وسيلة لإبراز ما في نفسه من معنى لا يفصح عنه الكلام المألوف، فكان منه المجاز والاستعارة والتشبيه وغيرها من فنون الصناعة وصياغة الكلام»(4). فهي تشكيل لغوي يكونه الخيال من معطيات متعددة؛ أولها العالم المحسوس، وذلك لا يمنع وجود صور أخرى نفسية وعقلية، ويدخل تحت هذا المفهوم للصورة، الصور البلاغية التي حظيت بعناية كبيرة من طرف النقاد القدماء والمحدثين كل حسب ثقافته وعصره، وعنايتهم بالصورة تعود إلى العناية بالعمل الأدبي نفسه، لأنها أداة من أدواته مثل الإيقاع الموسيقي للكلمات، ودلالة الألفاظ والمعاني وطريقة تناول الموضوع، وغيرها من عناصر العمل الأدبي التي لا يمكن الفصل بينها(5).

1 - النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، ل محمد مصابف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1979م، ص164.

2 - التقسيم النفسي للأدب، لعزالدين إسماعيل، ص71.

3 - الصورة الأدبية، لمصطفى ناصف، دار الأندلس، ط2ن 1981، ص3.

4 - الخيال الشعري عند العرب، لأبي القاسم الشابي، الدار التونسية للنشر، 1975، ص20.

5 - النقد الأدبي أصوله ومناهجه، سيد قطب - دار الشروق - بيروت - ص13.

والصورة في مفهوم النقاد المحدثين، تركيبة عقلية، تنتمي إلى عالم الفكرة أكثر من انتمائها للواقع(1)، ومن ثم فهي إبداع فني، إلا أن عقلية الشاعر في تناولها للأشياء غير عقلية العالم، هذا الأخير يعتمد على العقل والحواس ويتناول الأشياء جزءاً جزءاً، كما أنه يتناول من الوجود ظاهره فقط، بينما الشاعر يتناول الوجود ويتغلغل في بواطن الأشياء، يحسها إحساساً عميقاً يعتمد على بصيرة وحدس، ثم ينقل إليه من فيض حسه الحيوية التي تربط بين أجزاء الوجود، كما أن نظرة الشاعر للوجود غير نظرة العالم، بينما ينظر إليه الأول نظرة حميمة، نظرة صداقة وتعاطف، ينظر إليه العالم نظرة عدا وصراع، ومن ثم يأتي تفسيره للظواهر بغية السيطرة عليه والتحكم فيه(2). أما الشاعر فيلجأ إلى الخيال ليتعمق الواقع ويفهمه، واللجوء إلى الخيال هنا لا يعد هروباً من الحقيقة، بل هو التماس لمعرفة تلك الحقائق التي لا يستطيع إدراكها إلا الإنسان الفنان(3)، الذي يستطيع بفضل تلك الصور أن يخاطب الذهن والحس والوجدان، ويشير في نفوسنا انفعالات شتى وأحاسيس متنوعة، فالصورة هي البناء الموحد المتكامل الذي تصعب تجزئته، رغم تكونه من عناصر بلاغية شتى، فهي كاللوحة التي تساهم في تكوينها الخطوط والألوان والظلال، ولا يكون جمالها إلا على تلك الصور المقدمة بها من طرف الفنان.

ولو بحثنا في شعر الزهد في القرن الخامس الهجري بالأندلس - عن الصورة الشعرية بهذا المفهوم الحديث فإننا لا نكاد نعثر إلا على بعض الصور القليلة والتي في معظمها تتكون من الصور البلاغية كالتشبيه والاستعارة والكناية.

وسبب ذلك هو كون هذا الشعر يعتمد على العقل، والتعبير المباشر البعيد عن الخيال المجنح لأنه نظم - في الغالب - للوعظ والإرشاد.

1 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص 75.

2 - الصورة الأدبية، لمصطفى ناصف، ص 132.

3 - التفسير النفسي للأدب، لعز الدين إسماعيل، ص 44.

وفيما يلي سنحاول الوقوف عند الصور الشعرية التي وظفها هؤلاء الشعراء في هذا الغرض للتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم.

1 - التصوير بالتشبيه :

لقد عني النقاد العرب القدماء بالشعر عناية كبيرة، واهتموا بوسائله وأدواته، ولما كان التشبيه إحدى أدواته، فلقد شملته تلك العناية، وقد تعددت تعريفاتهم له، ولعل أقربها هو ما جاء في قول ابن رشيق، هو : «صفة الشيء بما قاربه وشاكله، من جهة واحدة أو جهات كثيرة، لا من جميع جهاته، لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه»⁽¹⁾، وهو لا يخرج عن كونه وصفاً، أي وصف شيء بآخر بواسطة أداة⁽²⁾، أو بغيرها.

وجاء في العمدة : «الشعر والتشبيه والاستعارة يدخلان في باب الوصف وهو غرض من أغراض الشعر»⁽³⁾. ولعل كثرت في كلام العرب⁽⁴⁾، هي التي دفعتهم للاعتقاد بأنه حد من حدود الشعروركن هام من أركانه التي يقوم عليها فقالوا : «الشعر ما اشتمل على المثل السائر، والاستعارة الرائعة، والتشبيه الواقع، وما سوى ذلك فإن لقائله فضل الوزن»⁽⁵⁾. والتشبيه لا يكون إلا «بإخراج ما لا تقع عليه الحاسة إلى ما تقع عليه، وإخراج ما لم تجربه العادة إلى ما تجرت به العادة، وإخراج ما لا يعرف بالبديهة إلى ما يعرف بها، وإخراج ما لا قوة له في الصفة على ماله قوة فيها»⁽⁶⁾. وهكذا نجد تعريفاتهم مستوفية لطرق التشبيه، مبينة لفائدته ووظيفته التعبيرية، إذ قالوا : إن «التشبيه يزيد المعنى وضوحاً ويكسبه تأكيداً»⁽⁷⁾.

1 - العمدة، لابن رشيق، ج1، ص286.

2 - كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، تح: علي محمد البحاري ومحمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية. بيروت، 1986، ص239.

3 - العمدة، لابن رشيق، ج1، ص120.

4 - الكامل للمبرد، دار الفكر (د.ت)، ج3، ص42.

5 - العمدة، لابن رشيق، ج1، ص122.

6 - كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص240، 241، 242.

7 - المصدر نفسه، ص243.

إلا أن التشبيه في النقد العربي الحديث لا يحظى بتلك المنزلة الرفيعة التي بلغها عند القدماء، «لأن الشعر الحديث يميل إلى التجاوز عن التشبيه إلى الرمز»(1)، والتشبيه عبارة عن قياس غير مباشر، وهو أيسر أسلوب من أساليب الوعي، الواضحة القليلة التوغل في النفس(2).

ولما كانت أدواته أدوات وعي وتعقل، ووضوح فإن عناية النقاد قد حولت وجهها شطر الاستعارة، لأنها «هي بالشعر على الخصوص أمس رحماً»(3). لذا فهم يميلون إلى إسقاط أدواته لملاءمتها للتعبير الواعي عن العالم الخارجي، وحذفها يقرب الرؤيا الشعرية من النفس التي لا حدود لها فتتدفق بقوتها إلى وحدة الوجود(4).

وبذلك يظل التشبيه محافظاً على مكانته الفنية، لكونه أداة من أدوات التجسيم البلاغي، المحددة العناصر السهلة المأخذ.

وشعراء الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري - كغيرهم من الشعراء وظفوا هذه الصورة واتخذوها أداة من أدوات فنهم، إلا أنهم لم يسرفوا في توظيفها لميلهم - تارة - إلى التجريد الذهني، مما شيا مع غرض الزهد وبخاصة في الدعاء والحمد والشكر.

وأول ما يلاحظ على هذا الشعر، هو قلة صور التشبيه البليغ لأن غرض هذا الشعر هو تقرير تلك الحقائق والأفكار وتقريبها من الذهن، وأدوات التشبيه هي التي تساعد على ذلك، لأنها أدوات وعي وعقل(5).

- كما أن أكثر الأدوات استعمالاً هي «الكاف» وقد تردت في شعرهم حوالي أربع

1 - في النقد الأدبي، لإيليا الحاوي، ج1، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط4، 1979م، ص131.

2 - المرجع نفسه، ص131.

3 - الصورة الأدبية، لمصطفى ناصف، ص47.

4 - في النقد الأدبي، لإيليا الحاوي، ج1، ص132.

5 - المرجع نفسه، ص131.

عشرة مرة (14). ومن أمثلتها نذكر قول أبي إسحاق الإلبيري :

تنقد من غيظ فتغلي بهم *** كمرجل يغلي على النار⁽¹⁾

وهي صورة مشخصة للنار، جعلها الشاعر تنقد غيظاً وتغلي حرّاً بأهلها، كمرجل يغلي فوق النار، وهو بذلك قد أخرج ما لا تقع عليه الحواس إلى ما تقع عليه الحواس، ولعل رؤية غليان المرجل تنقل إلى النفس الرعب والخوف من نار جهنم، وفي الصورة تحذير وترهيب من النار، لأنّ صفة النار هي أشدّ رعباً وفضاعة من غليان المرجل. وقد استوحى الشاعر بعض جوانب هذه الصورة من قوله عزّ وجلّ: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهيقاً وَهِيَ تَفورُ * تَكَادُ تَمَيّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلِّمَّا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (2). وشاعرنا أخذ هذه الصورة المفزعة الحية لجهنم ثمّ شبّهها بمرجل يغلي فوق النار، وهو بذلك يريدنا أن نشاهد الغليان ونحسّه، لعلنا نرعوي ونتوب إلى ربّنا وخالقنا ونسأله أن يجنّبنا حرّها وعذابها. ومجيء أداة التشبيه (الكاف) هنا لتبنيها إلى عقد موازنة بين المشبه والمشبه به تلك الموازنة التي تفضي بالعقل إلى المعرفة المثبتة بالحجّة والبرهان، و"الكاف" في مثل هذه المقارنات أنسب من غيرها، لقدرتها على تقريب المشبه من المشبه به وذلك يساعد العقل على إيجاد أوجه التشابه والاختلاف.

واستعمال الأداة في التشبيه استعمال واع، وما يدلّ على ذلك قول ابن حزم :

ما منقضي الملك مثل خالده *** ولا صحيح التقى كمؤتسبة

ولا تقى الورى كفاسقهم *** وليس صدق الكلام من كذبه⁽³⁾

فرغم توظيف الشاعر لأداتين من أدوات التشبيه إلا أنّنا لا نرى في البيتين تصويراً فنياً، أو عملاً خيالياً، فالأسلوب جاء مباشراً وتقريرياً، يدعو إلى استخدام العقل للموازنة بين صحيح التقوى وفاسدها، وبين الفاسق والتقى، ومقارنة بسيطة نصل إلى

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 85.

2 - الملك/7-8.

3 - طوق الحمامة، لابن حزم، ص 309.

ما يريد الشاعر توضيحه، وهو أنه ليس بين هؤلاء تشابه، كذلك لا تشابه ولا تماثل بين «منقضي الملك» أي الدنيا، و «خالده» وهي الآخرة، ويطلب منا الموازنة لاختيار الأحسن والأفضل، فبدل أن يقدم نصحه بأسلوب الأمر والنهي الذي تنفر منه النفس، لجأ لهذا الأسلوب غير المباشر في تقديم نصائحه وتوجيهاته، ففضل التشبيه هنا يكمن في تقريره وتوضيحه للمفكرة.

ومن التشبيهات التي وظفت فيها «كأن» قول ابن حمديس في معاتبته نفسه :

أبيع من الأيام عمري وأشتري *** ذنوبا كأنني حين أخسر أربح(1)

وهكذا نرى الشاعر يقيم مقايضة بينه وبين الأيام، التي تتوالى علينا فتأخذ من أعمارنا، وهو يشبه ذلك بعملية بيع وشراء بينهما، فالعمر يذهب و يعطيه الذنوب وبعبارة أصح يشتري بدل عمره الذاهب ذنوبا، ويصور وقع ذلك على نفسه، ويشبهه بحال الخاسر الذي يتهيا له أنه حين يفعل ذلك - أي يبيع نفسه ويشتري الذنوب يربح. وبذلك يكون الشاعر قد عبر عن حسرته وآلام نفسه، التي لم تستفك من نومها إلا على أجراس الخسارة وضياع أيام الشباب والقوة فيما لا ينفع.

فكما أن الربح والخسارة لا يتساويان ولا يتحدان، فكذلك حال من قضى عمره في اللهو، لا يحس في النهاية إلا بالندم والحسرة، وهكذا فأداة التشبيه تقرب بين الأشياء ولكنها لا توحد بينها ولا تندمجها كأنها شيء واحد(2). وعندما يقول أبو إسحاق الإلبيري :

ما عناء الكبير بالحسناء *** وهو مثل الحباب فوق الماء(3)

فالشاعر يشبه الشيخ الكبير بالحباب فوق الماء، وقد استعمل الأداة «مثل» ليسمح للعقل بإقامة موازنة بين المشبه والمشبه به، للوصول إلى المفكرة التي يريد الشاعر إبرازها، وهي أن الشيخ كفقاقيع الماء لا تلبث طويلا وتزول وتلاشي، وهو لا يريدنا

1 - ديوان ابن حمديس، ص 107.

2 - في النقد الأدبي لإهلبيا الحارثي، ج1، ص 131.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 79.

أن نقف عند هذا المعنى، بل تعداه إلى التعجب والسخرية اللاذعة من الشيخ الذي لم يرمع ولم ينتبه لدنو أجله، وذلك بسبب انشغاله بالدنيا وحب النساء.

وهكذا يقابل بين المشبه والمشبه به، لأنه يرى اتفاقهما في صفة الضعف وسرعة التلاشي لكنهما في حقيقة الأمر مختلفان وجاءت الأداة «مثل» لوصول المشبه بالمشبه به من ناحية، وفصلهما في الحقيقة والجوهر، لذلك كانت الأداة أداة تعقل، مما يساعد على توضيح الفكرة وتقريرها في الذهن بعيداً عن عالم الشعور والانفعال.

وأبو إسحاق الإلبيري من بين الشعراء الذين برعوا في وصف الشيخ المتصابي، لذلك نراه في هذه الأبيات يتحدث عن الشيخ ويرسم له الصور الحسنة التي يجب أن يكون عليها وهي صورة الشيخ التقي فيقول :

أَبْحُ مَنْ تَرَمَقَهُ مُقْلَةٌ *** مُبْصِرَةٌ شَيْخٍ خَلِيعِ الرَّسَنِ
تَقْتَادُهُ الدَّهْرُ دَوَاعِيَ الْهَوَى *** إِلَى الصَّبَا مِثْلَ اقْتِيَادِ الْبَدَنِ
يَأْمَلُ آمَالَ فَتَى يَأْفِئِعُ *** كَأَنَّهُ لَيْسَ بِشَيْخٍ يَفْسُنُ
لَيْسَ جَمَالَ الشَّيْخِ إِلَّا التَّقَى *** وَالْحَوْ لِسُوءِ بَفْعَلِ حَسَنٍ(1)

وإذا كانت الشيخوخة هي الزاجر الواعظ للشاعر، فهو يصور ذلك من خلال هذه الأبيات، معتمداً على طريقة التشبيه باللفظ «مثل» في البيت الثاني و«كأن» في البيت الثالث، وهكذا فالشاعر أخذ في هذه الصورة بما تأخذ به النفس البشرية، وهو الميل إلى الموازنة والمقارنة بين الأشياء لترجيح البعض منها على البعض الآخر، والشاعر هنا يقارن بين الشيخ الخليع المستهتر الذي لم يزجره شيبه وبين ذلك الشيخ التقي الذي ليس له شاغل سوى الطاعة والعبادة، ليختار هذا الأخير الذي يزينه الفعل الحسن، وقد وفق الشاعر في رسمه لهذه الصورة بفضل اختياره الواعي للألفاظ والوزن والقافية، وأي صورة أبشع من صورة شيخ خليع تقوده دواعي الهوى إلى أفعال الصبا كما تقاد الناقة البدينة إلى هلاكها، وهو من خلال هذه الصورة الحسية التي جمعها

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 95.

من عناصر الطبيعة (اقتياد البدن) (والشيخ اليفن - الفنى اليفع) استطاع أن يعبر عن سخريته من الشيخ التصابي، ويظهر إعجابه بالشيخ التقى الورع.

ومن الصور التشبيهية الجميلة هذه الصورة التي وصف الشاعر من خلالها

تهافت الناس على الحياة وملذاتها، وقد جاء ذلك في قول أبي إسحاق الإلبيري :

طَمَشَتْ عَقُولُهُمْ وَنُورَ قُلُوبِهِمْ *** فَتَهَافَتُوا حِرْصًا عَلَى حُلُوكِ (1)

فَكَانَهُمْ مِثْلَ الذَّبَابِ تَسَاقَطَتْ *** فِي الْأَرِي حَتَّى اسْتَوَصَلُوا بِبِهْلَاكِ (2)

وإذا صور لنا الشاعر من خلال هذين البيتين حال الناس في تهافتهم على الدنيا وتساقطهم على ملذاتها كساقط الذباب في العسل، واستعماله لأداتين وهما «كأن» - مثل «يزيد المعنى قوة»، ويعبر عن إصرار الشاعر على هذا التشبيه، وفي صورة الذباب استصغار واحتقار لأولئك الذين ألغوا عقولهم وانساقوا وراء شهواتهم كالذباب الذي يسقط في العسل بسبب غبائه وقلة حيلته.

- وبعد ذلك يتنقل الشاعر لوصف الدنيا وإظهارها على حقيقتها، وهنا اختار التشبيه البليغ الذي تحذف منه الأداة ووجه الشبه وهو على قلته في هذا الشعر نجد له هنا صورتين في قول أبي إسحاق الإلبيري :

لَا كُنْتُ مِنْ أُمَّ لَنَا أَكَالَةً *** بَعْدَ الْوِلَادَةِ مَا أَقَلَّ حَيَاكِ

أَنْتِ السَّرَابُ وَأَنْتِ دَاءٌ كَامِنٌ *** بَيْنَ الضُّلُوعِ فَمَا أَعَزَّ دَوَاكِ (3)

وتشبيه الدنيا بالأم الأكلة لأبنائها بعد الولادة صورة فظيعة تعبر عن بشاعة الدنيا وقسوتها، واستعان الشاعر على بلورة هذه الفكرة وتقويتها بإسقاطه أولا لأداة التشبيه، وحذفه للمشبه به، وهو تلك العلاقة التي يمكن تصورهما بين الأم والابن، وهي (الحنان والعطف) فارتقى المشبه إلى مرتبة المشبه به ادعاء ومبالغة، غير أنه لم يكف بذلك بل راح يتخير الألفاظ المعبرة والموحية بالمعنى، فاستعمل «أكالة» صيغة

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 37.

2 - المصدر نفسه، ص 37.

3 - المصدر نفسه.

المبالغة لتدل اللفظة على الكثرة، فهي أي "الدنيا" تأكل أبناءها دائما وربما الصورة الثانية أي تشبيه الدنيا بالسراب هي ألطف وأخف وقعا على النفس من الصورة الأولى.

لأن معرفتنا بكون الدنيا "سراب" لا يترك في نفوسنا حسرة وألما كالذي تركه صورة الأم الأكلة لأبنائها.

وهي صورة قائمة على التشبيه البليغ، الذي يخيّل لنا معه أن المشبه قد ساوى المشبه به أو امتزج به، وبذلك بلغ التشبيه قمة بلاغية، كما يدل على قدرة الشاعر الفنية. وأما أمية بن أبي الصلت فيقول معاتباً نفسه :

فكيف أخلص من بحر الذنوب وقد *** غرقت فيه على بعد من الشاطي(1)
فقد تصور الشاعر ذنوبه بحراً طامى العباب، وهو بداخله، ولا سبيل إلى نجاته، وهذا يوحى بكثرة الذنوب وخطورتها على صاحبها.

ومن الصور المجسدة للمعنى المعنوي في صورة المحسوس قول ابن خفاجة في تصويره للنفس المطاردة من الموت قائلاً :

وهل مهجة الإنسان إلا طريدة *** تحوم عليها للحمام عقاب(2)
فقد شبه الشاعر النفس بالطريدة، لأنها لا تنجو من الموت أبداً وبالضبط كالطريدة التي لا تفلت من الصياد الماهر، خاصة إذا كان هذا الصياد طائراً كاسراً كالعقاب. وتصوير الموت في صورة «عقاب» حائمة حول «الفريسة» والتي هي نفس الإنسان، صورة حسية موحية تبعث في النفس الخوف والحذر، كما تؤكد حتمية الموت، مما يدفع بالإنسان إلى العمل الصالح والتقوى، لأنها سبيله الوحيد للخلاص من العذاب والعقاب في الدار الآخرة.

- ومن الصور التي استقاها الشعراء من طبيعة البلاد الأندلسية الجميلة هذه الصورة التي

1 - ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 116.

2 - انظر القصيدة، ص 160 .

رسمها الشاعر الحميدي لعلم الحديث فقال :

النَّاسُ نَبَتْ وَأَرْبَابُ الْقُلُوبِ لَهُمْ *** رَوْضٌ وَأَهْلُ الْحَدِيثِ الْمَاءُ وَالزَّهْرُ(1)

حيث شبه الناس بالنبات، وجعل أصحاب القلوب الحية رياضاً لهم، وأهل الحديث "ماء" تسقى به الرياض والنباتات، وزهر يفوح أريجاً ويعبق شذاه العطر في الوجود فيزيده رونقاً وحسناً، وإذا كان الماء مصدراً لحياة النبات وغيره من الكائنات الحية فإن الحديث الشريف، هو حياة العقول والنفوس، ولا تسقى به إلا النفوس الطيبة، فتزدان به ويفوح أريجها. ومفهوم الماء مرتبط بالحياة لقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (2)، وهو مرتبط بالمنفعة والخير، وانعدامه يعني الموت والفساد. وهكذا جاءت هذه الصور - القائمة على التشبيه البليغ - وارفة الظلال حية معبرة.

ورغم ذلك تبقى الطبيعة صورة جميلة تفيض بالحيوية والحياة، لكنها لم توظف من طرف شعراء الزهد - في الأندلس في القرن الخامس الهجري - توظيفاً كافياً ولم تستغل استغلالاً جيداً، لأن المسلم يرى الطبيعة بكل مظاهرها آية من آيات الله، توحى بقدرته وعظمته ووحدانيته، وما أكثر الآيات الكونية وما أبدعها، كلها آيات تخاطب العقل والقلب، وتقيم الدليل بالبرهان والحجة، فتثبت عظمة الخالق الأحد، وتوحى بقدرته جل وعلا، ويظل هؤلاء الشعراء مقصرين في استغلالهم للطبيعة وعناصرها المختلفة، لخدمة غرضهم، وتحقيق غايتهم السامية من هذا الشعر، ألا وهي الوعظ والإرشاد عن طريق الحكمة والإشارة إلى ما من شأنه أن يوقظ ذهن الإنسان، ويدعوه إلى التأمل والتدبر، ويحثه على الاستنباط والاعتبار، وقد كان للطبيعة في القرآن الكريم - مصدرهم الأول - دور فعال في التدليل على قدرة الله عز وجل، وحكمته وسلطانه ورحمته وعلمه ووحدانيته، وجاء فيه الثناء على أولئك المتفكرين المتدبرين فيما حولهم ليروا فيه ما يدل على قدرة الله وعظمته، وجاء ذلك في قوله تعالى:

1 - نفع الطيب للمفري، مج4، ص337.

2 - الأنبياء/30.

﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا
عَذَابَ النَّارِ ﴾ (1).

ومن التشبيه الحسن، تشبيه التقوى بمرهم، وقد ورد ذلك في قول أبي
إسحاق الإلبيري:

ولو أنني داويت معطب دائها *** بمراهم التقوى لوافقت الشُّفا(2)
فقد شبه المعاصي بداء والتقوى بمراهم تشفي ذلك الداء، وهو تشبيه يوحى بفضل
التقوى على صاحبها، فهي مرهم لآلامه وجراحه التي زرعتها المعاصي في نفسه. بما
أفسدته من إذهاب حسناته، وهو من باب إضافة المشبه به إلى المشبه، هذا وتظل
صورهم جزئية تعتمد على العالم المحسوس، وغالبا ما يستعينون بالأداة لتقرير معانيهم
وتقريبها.

ومن القصائد التي كانت فيها أدوات التشبيه وسيلة لرسم الصورة
المتكاملة، قصيدة أبي إسحاق الإلبيري في ذم الدنيا والتي جاء فيها :

مَنْ لَيْسَ بِالْبَاكِي وَلَا الْمَبَاكِي *** لِقَبِيحِ مَا يَأْتِي فَلَيْسَ بِزَاكٍ
نَادَتْ بِي الدُّنْيَا فَقُلْتُ لَهَا اقْصِرِي *** مَا عُدَّ فِي الْأَكْيَاسِ مِنْ لَبَّاكٍ(3)

ولقد رسم الشاعر من خلالها صورة للدنيا، فكشف عن حقيقتها وخداعها، وشبه
زخارفها ومتاعها بالبرق الذي يخلب الأبصار، وذلك في سرعة زوالها وإعجاب الناس
بها كإعجابهم بلمعان البرق، وبين مصير الناس فيها، فهي تبطش بالقوي منهم،
وبالباسل الشجاع، وتفتك بهم جميعا.

ورغم توظيف الاستعارات والتشبيهات، والتي هي أدوات بلاغية تعبيرية، تظل

1 - آل عمران/191.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 44.

3 - انظر القصيدة، ص 138 .

القصيدة مترابطة المعاني متلاحمة الصور تهدف إلى غاية واحدة وهي التنفير من الدنيا بعد إظهارها على حقيقتها البشعة.

ومن الصور التي رسمها الشعراء للموت، مذكرين الإنسان بنهايته الحتمية

قول أبي إسحاق الإلبيري :

أَيْنَ الْمُلُوكِ وَأَيْنَ مَا جَمَعُوا وَمَا *** ذَخَرُوا مِنْ ذَهَبِ الْمَتَاعِ الذَّاهِبِ
كَانُوا لِيُوثَ خَفِيَةً لَكُنْهِم *** سَكَنُوا غِيَاضَ أَسْنَةِ وَقَوَاضِبِ
قَصَفَتْهُمْ رِيحُ الرَّدَى وَرَمَتْهُمْ *** كَفَّ الْمُنُونِ بِكُلِّ سَهْمٍ صَائِبِ (1)

وهكذا يريدنا الشاعر أن نتعظ في هذه الحياة بما حدث لمن سبقونا من ملوك أقوياء بما لهم وبمحصولهم المحصنة، ورغم ذلك أدركتهم المنون، فشبها الشاعر بالريح العاتية التي تقصف بالأشياء وترميهم بسهامها الصائبة، فالشاعر لم يكف بالصور الجزئية القائمة في البيت الواحد لرسم هذه اللوحة المفزعة، بل حاول أن يجمع لنا خيوط الصورة وألوانها وظلالها من خلال الأبيات حتى تكتمل أمام عيوننا الصورة المينة لحقيقة الموت والحياة، الموت الذي يبلغ الملوك أيضا فلا تنفعهم أموالهم ولا قوتهم. ومثل ذلك التحذير والإنذار مستوحى من قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾ (2).

هذا والصورة أحيانا تأتي متلاحمة الأجزاء، وذلك يعود لوحدة الشعور

لدى الشاعر فلا يمكننا القول بأن الصورة تشبيهية فقط، بل هي قائمة على الاستعارة أيضا.

1 - انظر الأبيات، ص 159 .

2 - الليل/11.

2 - التصوير بالاستعارة :

- الاستعارة : لون من ألوان المجاز، الذي يعدّ دليل الفصاحة ورأس البلاغة، وبه سمت اللغة العربية على سائر اللغات(1)، وتعد الاستعارة من أفضل أنواع المجاز، وأحسن أنواع الكلام، وخاصة إذا وقعت موقعها وأصابت موضعها(2). و«الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفا تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في ذلك الأصل، وينقل إليه نقلاً غير لازم فيكون هناك كالعارية»(3)، فهي إذن مجاز لغوي، يقوم على استعارة لفظ من معناه الأصلي لمعنى جديد، وهكذا تتعدى الاستعارة مجال نقل اللفظ من معنى إلى معنى، بإثباتها للمعنى الجديد في ذهن السامع.

والاستعارة تساعد على اتساع الكلام وبلاغته، فهي توضح المعنى وتقدمه موجزاً «وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت فيها فوائد، حتى تراها مكررة في مواضع ولها في كل واحد من تلك المواضع شأن مفرد.. وفضيلة مرموقة»(4)، ومن مزاياها أيضاً أنها تريك: «الجماد حيناً ناطقاً، والأعجم فصيحاً، والأجسام الخرس مينة.. وإن شئت أرتك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تناها إلا الظنون»(5).

فهي إذا توضح المعنى، وتقدمه موجزاً، إلى جانب تشخيصها للمعاني وتبسيمها، حتى «إنك لترى المعاني الخفية جلية»(6).

1 - العمدة لابن رشيق، ج1، ص267.

2 - انظر : كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ص268، والعمدة، ج1، ص262.

3 - أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تح : محمد رشيد رضا، ط6، 1958م. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح و أولاده - القاهرة ص20 .

4 - المصدر نفسه، ص30.

5 - المصدر نفسه.

6 - المصدر نفسه، ص41.

وهكذا فتوضيح المعنى وتقدمه بطريقة حسية هو عنصرها في جماليات التعبير الشعري. وأحسن أنواع الاستعارة ما أخذ الشبه من الصور العقلية كاستعارة «النور» للبيان، وهذا النوع هو المنزلة التي تبلغ الاستعارة عنده غاية شرفها، وهو يحتاج إلى صفاء الذهن ونفاذ العقل وسلامة الذوق والطبع(1).

وإذا ما تتبعنا شعر الزهد في القرن الخامس الهجري بالأندلس، نجد أكثر الصور البيانية المستعملة فيه هي الاستعارة، والتي تقوم - غالبا - على التشخيص والتجسيم، الذي نرى من خلاله «الجماد حيا ناطقا»(2)، ولتأمل قول الشاعر أمية بن أبي الصلت .

غرتة دنياه فلم يستفق *** من سكرها يوما لأخراه(3)

فقد صور الشاعر الدنيا في صورة إنسان، وحذف الإنسان ورمز إليه بأحد لوازمه وهو «غرتة» وهكذا نرى الدنيا صارت إنسانا عاقلا يمكنه أن يؤثر على الآخرين ويخدع عقولهم ويغرر بها، وبذلك كشف عن خطورة الدنيا، ونبه إلى الاحتراس منها، وهذا تشخيص وتجسيم، إذ أعطى الشاعر «للدنيا» جسما وعقلا حتى أصبحنا نراها بالعين، ثم أخذ منها هذه الصفة «غرتة» فصارت بذلك أقرب إلى الأذهان، وخطورتها أوضح للعيان، فلم يبق سوى تجنبها والترفع عنها.

وكذلك لو نظرنا إلى قول أبي إسحاق الإلبيري :

نادت بي الدنيا فقلت لها اقصري *** ما عدت في الأكياس من لباك(4)

فالشاعر قد شخص الدنيا، بإسناد فعل «نادى» إليها، ولم يكتف بذلك بل جعلها أيضا تستمع إليه وتفقه مقولته.

وبقراءة ثانية للقصيدة نحس بجمال تعبيرها وتصويرها، فالشاعر هنا رسم

لنا لوحة ناطقة، وأقام محاورة بينه وبين الدنيا، ولعل رغبته الملحة في كشف الدنيا عن

1 - أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، ص 45.

2 - المصدر نفسه، ص 30

3 - ديوان أمية بن أبي الصلت، ص 157.

4 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 36.

5 - انظر ص 138 .

حقيقتها وإظهار زيفها وخداعها هو الذي دفعه إلى إقامة هذا الحوار مع الدنيا، ولا وسيلة لتأكيد بشاعة الدنيا من أن نجعلها هي الواصفة لحالها والمينة لغدرها، ولنستمع إليها وهي ترد على الشاعر :

قالت : أَغْرَكَ مِنْ جَنَاحِكَ طُولُهُ *** وَكَأَنَّ بِهِ قَدْ قُصَّ فِي أَشْرَاكِي ؟
تَا لَلَّهِ مَا فِي الْأَرْضِ مَوْضِعٌ رَاحَةٍ *** إِلَّا وَقَدْ نُصِبْتُ عَلَيْهِ شِبَاكِي (1)

وجمال الأبيات يبرز من خلال هذا التصوير لحال الدنيا وفعلها بالناس، فهي في نظر الشاعر قاسية، غادرة لا يؤمن لها جانب. وفي القصيدة صور جزئية طريفة إلى جانب الاستعارات، ستأتي الإشارة إليها في حينها.

ولو قرأنا قول أبي إسحاق الإلبيري التالي :

فليست هذه الدنيا بشيء *** تسووك حِقْبَةً وَتَسْرُ وَقْتاً (2)

لوجدنا فيه استعارة، إذ شبه الشاعر فيه «الدنيا» بالإنسان، وحذف «الإنسان» وترك شيئاً من صفاته «تسووك وتسر» على سبيل الاستعارة المكنية.

وكما شخص هؤلاء الشعراء الدنيا، فكذلك شخصوا العلم، وفي ذلك

يقول أبو إسحاق الإلبيري :

وسينطق عنك علمك في ندي ويكعب عنك يوما إن كبتا (3)

إذ شبه الشاعر هنا «العلم» وهو شيء معنوي، بالإنسان وحذف الإنسان ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو «سينطق» والنطق صفة خاصة بالإنسان وهو طريق الإبانة ووسيلة التعبير عمّا في النفس من مشاعر وأحاسيس وأفكار، وكذلك «العلم» فإنه ينطق عن صاحبه ليس بالكلام والتعبير بالألفاظ والكلمات، وإنما ينطق عنه بما يصدر عن صاحبه (العالم) من أخلاق وأعمال وسلوكات، واستعارة النطق «للعلم» وضحت المعنى وزادته قوة وجمالاً.

1 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 36، البيتين : 5، 6.

2 - المصدر نفسه، ص 28، البيت : 45.

3 - المصدر نفسه، ص 27، البيت : 33.

وهكذا فالاستعارة لها قدرة على التأثير على النفس أكثر من التعبير المباشر وخاصة في مقام كهذا، وهو النصيح والوعظ.

ولو تأملنا قول أبي إسحاق الإليري :

فِرَاسُ الْعِلْمِ تَقْوَى اللَّهِ حَقًّا *** وليس بأن يُقال : لقد رأست(1)

بجد الشاعر قد أعطى «للعلم» وهو شيء معنوي «جسدا» ولما أصبحت صورته ماثلة بين أعيننا استعار له من «الجسد» الرأس وهو شيء محسوس، وإذا كان الرأس هو أساس الجسد، فكذلك «تقوى الله» هي الرأس للعلم. وإذا كان الرأس هو أهم عنصر في الجسم، فإن تقوى الله تقود الإنسان إلى الأعمال الصالحة وإلى الزهد، والفلاح في الدارين.

أما قول أبي إسحاق الإليري :

وَاتَلُّ مِنَ الْوَجِيِّ وَلَوْ آيَةً *** تُكْسَى بِهَا نُورًا مِنَ اللَّهِ(2)

فيه استعارة في «تكسى بها نورا...» فقد حذف المشبه «اللباس» واستعير بدله لفظ المشبه به «النور» ليقوم مقامه على سبيل الادعاء وهذا أبعد مدى في البلاغة، وادخل في المبالغة. وهذا النوع من المجاز يسمى في أقسام الاستعارة : استعارة تصريحية.

ومن الصور التي عني بها هؤلاء الشعراء وكثرت في شعرهم هي «صورة الموت» التي استعاروا لها كثيرا من صفات الإنسان، حتى أصبحنا نراها شخصا كثير الاهتمام والحرص في مراقبته لنا، ولتقرأ قول أبي الحسن الطيطل التالي :

والموتُ يرعَاكَ كُلَّ حِينٍ *** فكيف لم يجفك المهادر(3)

فالشاعر قد استعمل لفظ «يرعَاكَ» للموت وهي شيء معنوي، و «الرعاية» صفة للإنسان لأنه هو الذي يمكنه أن يرعى ويحافظ، وبما أن الشاعر حذف «الإنسان» وترك شيئا من لوازمه على سبيل الاستعارة المكنية، وهي صورة أبلغ من التعبير

1 - ديوان أبي إسحاق الإليري، ص 27، البيت : 21.

2 - المصدر نفسه، ص 63، البيت : 4.

3 - الذخيرة، ق 2، مج 2، ص 798.

المباشر، لأنه بواسطة هذا التشخيص للمعنى المعنوي وتقديمه بصورة المحسوس، أصبح المعنى أكثر وضوحاً وأبلغ في التعبير، لما يحمله من قوة التأثير على النفس، وعن طريق الصورة المجسدة للمعنى المعنوي فيما هو محسوس أصبحنا ننظر إلى الموت مع الشاعر على أنه شخص مائل للعين بحرصه ورعايته الشديدة للناس، فهو يرعاهم بعناية فائقة حتى لا يتخطى أحداً، ولا يغفل على أي كان. ومع هذه الرؤية يزداد قلب الإنسان خوفاً من هذا الحارس اليقظ، فيخشع قلبه ويستعد للقاء ربه بالإقبال على الطاعات والعبادات.

والموت عندهم كائن حي، يترص بالناس ويطويهم طياً، كما جاء في قول الشاعر ابن خفاجة :

أمم يغصّ بها الفضاء طوتهم *** كف الرديّ طيّ الرداء فبادوا(1)

فالشاعر هنا شبه الموت بالإنسان، ثم حذفه وترك شيئاً من خصائصه وهو : «كف وطوتهم» وهو بهذا التعبير نأى عن الواقع وأساليب العقل والمنطق إلى ما يحسه ويخلج في نفسه من انفعالات إزاء الموت الذي رآه يأخذ الناس ويذهب بهم فلا يرجعون، فتمثله كأنه إنسان يطوي الرداء ويضم بعضه على بعض ثم يحمله ويضعه حيثما أراد بعيداً عن أعين الناس. وهو بذلك تجاوز العقل في تصويره للموت، وجاءت صورته أكثر تعبيراً وتأثيراً على النفس، من التعبير عن المعنى بالفاظ ومعان مباشرة.

- كما نجد الشاعر مرة أخرى، يري الأُنس الذي ينشده الناس، خصماً لدوداً يشكل الإنسان في أعز الناس إليه، ويتركه يتضوى من الألم والفراق. وفي هذا المعنى جاء قول أبي إسحاق الإلبيري :

أثكلني الأُنس ثكل اللدات *** فصرت كأني غريب وحيد(2)

فقد استعار لفظ «أثكلني» للأُنس وهو شيء معنوي، ويمكن القول : شبه الأُنس

1 - ديوان ابن خفاجة، ص 233، البيت : 3.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 107، البيت : 4.

بالإنسان، وحذف المشبه به (الإنسان) وترك شيئاً من لوازمه «أثكل» على سبيل الاستعارة المكنية.

ولعل أحسن صورة للموت هي هذه الصورة التي رسمها أبو إسحاق الإلبيري في قوله :

تُغَاذِلُنِي الْمَنِيَّةُ مِنْ قَرِيبٍ *** وتلحظني ملاحظة الرقيب(1)

فقد استعار «تغاذلني» للموت، كما استعار لفظه «تلحظني» وهما صفتان خاصتان بالإنسان، واستعملهما هنا استعمال مجازي علاقته المشابهة، وكل كلمة تدل دلالة دقيقة على المعنى الذي أراده الشاعر، فتغاذلني : فيها رغبة وحب، وملاحظة الرقيب: فيها حرص وعناية كبيرة.

وهذه صورة غريبة وإن كانت تدل على مقدرة الشاعر على تطويع معاني الغزل لغرض الزهد.

- ولم يكف الشاعر بهذا، بل نراه يستغل حتى صور المتعة لتصوير قوة الصراع النفسي بين الواجب الديني والمرأة(2)، ولنقرأ ذلك في قول أبي إسحاق الإلبيري :

حسبي كتاب الله فهو تنعمي *** وتأنسي في وحشي بدفاتري

أقتضُ أبقارا بها يغسلُن من *** بفتضهُن بكل معنى طاهر(3)

والصورة نفسها جسدها الشاعر في موضع آخر، يصور فيه قيمة العلم، وجاء ذلك في قوله :

ومهما اقتضُ أبقارَ الغواني *** فكم بكرٍ من الحكمِ اقتضت(4)

وهما صورتان جديدتان غريبتان، إذ لم يسخر شاعر آخر مثلهما في هذا الغرض. وهذا يدل على أن الصور الحسية قد طغت على هؤلاء الشعراء، فصورة المرأة هنا صورة حسية مادية، بعيدة عن العمق والجمال، ومثل هذا التعبير المستهجن دليل على

1 - المصدر السابق ص 34، البيت : 1.

2 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين - لإحسان عباس، ص 138.

3 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 75.

4 - المصدر نفسه، ص 28.

أثر المدنية المآجنة على الشاعر، تلك المدنية التي قضت على منبع الرجولة فيه، فأصبح حديثه عن المرأة لا يتجاوز هذه الجوانب المادية، الدالة على فساد الأخلاق والذوق، وانحراف في تيار اللذة والشهوة الحيوانية، وحبذا لو كان ذكر المرأة تناول جانباً معنوياً نستوحى منه عظمة الله في خلقه، وما أكثر هذه الجوانب العظيمة فيها، والتي أكثر الشعراء من عدّها والتغني بها، مثل عطفها وحنايتها الفياض .

- ومن الصور الجديدة التي وظفها أبو إسحاق الإلبيري لإبراز المعاني الزهدية صورة المعمارك الحربية(1)، ومنه قوله :

لو كنتُ في ديني من الأبطالِ *** ما كنتُ بالواني ولا البطالِ
ولبستُ منه لأمةً فضفاضةً *** مَسْرُودَةً من صالح الأعمالِ(2)

إنها صورة جميلة، استعار الشاعر فيها معاني حرية لمعاني الزهد ووظفها توظيفا حسنا، حيث بين أن الأعمال الصالحة والتقوى كالأمة مسرودة تقي الإنسان من النار. وهكذا جسد الشاعر المعنى المعنوي فيما هو محسوس، فازداد المعنى وضوحا وبلاغة، كما يشهد هذا التجديد في البناء الفني لهذه الصور على سعة خيال الشاعر وحسن إبداعه .

أما صورة الطبيعة في شعر الزهد فهي باهتة ضعيفة إذا ما قيست بشعر الغزل، إلا أننا نجد أحيانا بعض صورها موظفة لمعاني الزهد، كصورة الجبل في قصيدة لابن خفاجة، والتي يقول فيها :

وأرعنَ طمّاحَ الدُّوَابِ باذخٍ *** يُطاولُ أعنانَ السَّماءِ بغارِبِ(3)

فالجبل صورة لشخصية حية، عظيمة لا تزعمها مفاتن الدنيا، إنه صورة لإنسان متعبد زاهد وقور، عارك الحياة وعاركنه، وحلب من الدهر أشطره، فلم يبق له سوى التوجه إلى رب العزة بالدعاء والتضرع، وإلى الناس بإسداء النصيح وتقديم الموعدة الحسنة.

1 - تاريخ الأدب العربي - عصر الطوائف والمرابطين - لإحسان عباس، ص 138.

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 39.

3 - انظر القصيدة في الفصل الثالث، ص 118، والديوان ص 216.

ونلاحظ من خلال هذه الصورة الحية امتزاج ذات الشاعر بالجبل، فنسب إليه أحواله وعواطفه وتيرماته(1)، وقابح عن مكونات نفسه، وعبر عن آلامه في نغمات أليمة، مما أضفى على القصيدة جوا حزينا.

والقصيدة تدل دلالة قطعية على وجود الزهاد المنقطعين إلى الله عز وجل في القرن الخامس الهجري، وهو القرن الذي عاش فيه الشاعر، وإلى جانب هذه القيمة التاريخية التي نستنبطها من هذه القصيدة، يمكننا القول : إنها تدل على مقدرة الشاعر الفنية وسعة خياله، ذلك الذي استطاع أن يستنطق الجماد ، ويضفي عليه هالة من الوقار والجلال، وينطق لسانه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ولتلحاح أجزاء القصيدة وتآلفها، قيل «إنها خليقة بأن تحفز الناقد على تصنيفها في عداد الشعر الجيد، ويجعلها من أجمل ما ابتدعته قرائح الرومنسيين في الأدب»(2).

وهناك من الشعراء من آثر أن يرسم لوحته النفسية بريشة مألوفة وهي «مناجاة الحمام»، هذا الأخير الذي يثير دائما في النفس مشاعر الحزن والأسى، وهنا تأتي صورة الإنسان الزاهد الذي يثير شجونه الحمام، فتفجر في نفسه مشاعر الحزن والألم، فيقف أمام ربه تائبا، وأمام نفسه محامبا معاتبا، ينظر إلى سالف أيامه فيجدها مثقلة بالذنوب والمعاصي، فيبكي لذلك على نفسه ويتضرع إلى خالقه طالبا المغفرة والرحمة.

ولنقرأ تلك المعاني في قول أبي إسحاق الإلبيري :

أحمامة اليبدا أطلت بكائك *** فبحسن صوتك ما الذي أبكأك
إن كان حقا ما ظننت فإن بي *** فوق الذي بك من شديد جواك(3)

1 - حياة وأثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة/ حمدان حجاجي، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع -

الجزائر، ص258.

2 - ملامح الشعر الأندلسي، لعمر الدقاق، دار الشرق العربي بروت (د.ت)، ص252.

3 - انظر الأبيات في الفصل السابق، ص 126 .

3- التصوير بالكناية :

- الكناية : من كنى، وتكنى بمعنى تستر، وقولنا : كنى عن الأمر : تكلم بغيره مما يستدل عليه.

والكناية هي : أن تكلم بشيء وتريد غيره(1).

أما من الناحية الاصطلاحية فهي ذكر اللفظ الذي يراد به لازم معناه مع جواز إرادته معه.

وهي ليست من المجاز، لأنه لا يمتنع معها إرادة المعنى الأصلي، بينما المجاز له قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلي(2).

أما ابن رشيق، فقد عدّها نوعاً من أنواع الإشارة، وسماها التبع، وقال : أن هناك من يسمونها التجاوز، «وهو أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيجأزه ويذكر ما يتبعه في الصفة، وينوب عنه في الدلالة»(3)، وتسمية الكناية «بالتبع» إنما جاءت من قوله : ذكر الشيء وتجاوزه إلى شيء آخر يتبعه في الصفة، إلا أن الكناية أدق دلالة من التبع لأنه يوتى بها للتعريض والتلويح، والإشارة والإملاء، والرمز، وهي في كل الحالات تعتمد على صفة الإخفاء والستر.

- وهي فن من فنون التعبير البليغة، توخاها العرب استكثاراً للألفاظ المعبرة عن المعاني بوجوه مختلفة(4).

ولما كانت الكناية من الأدوات البلاغية التي تقوم على الإخفاء وعدم التصريح، قلّ توظيفها في شعر الزهد في القرن الخامس الهجري من طرف شعراء الأندلس، لأن شعرهم يقوم على الوضوح والتصريح .
ومن أمثلة ذلك قول أبي إسحاق الإلبيري :

1 - لسان العرب لابن منظور، مج5، دار المعارف (د.ت)، ص3944.

2 - علوم البلاغة، لأحمد مصطفى المراغي، دار القلم - بيروت - (د.ت)، ص279.

3 - العمدة لابن رشيق، ج1، ص313.

4 - علوم البلاغة لأحمد مصطفى المراغي، ص286.

تنامُ الذَّهْرَ وَيَحْكُ فِي غَطِيطٍ *** بِهَا حَتَّى إِذَا مِتُّ انْتَبَهَتَا(1)

"قالنوم" هنا كناية عن الغفلة، والتعبير عنها بالنوم أبلغ وأوضح.

وكذلك في قوله :

وَيَجْلُو مَا بَعَيْنِكَ مِنْ عَشَاهَا *** وَتَهْدِيكَ السَّبِيلَ إِذَا ضَلَلْتَا(2)

يُجَدُّ الكِنَايَةُ فِي كَلِمَةِ "عَشَاهَا" وَالَّتِي يَعْبُرُ بِهَا عَنِ الْجَهْلِ وَالضَّلَالِ.

وفي قوله :

وَإِنْ جَلَسَ الْغَنِيُّ عَلَى الْحَشَايَا *** لَأَنْتَ عَلَى الْكَوَاكِبِ قَدْ جَلَسْتَا(3)

فذكر "الجلوس على الكواكب" كناية عن الرفعة والمراتب العالية التي يبلغها الإنسان بعلمه، لذا فالكناية أبلغ من التصريح هنا، لذلك انتخبها الشاعر للتعبير عن أفكاره. كما جاءت الكناية في قول البطلوسي :

وَإِنَّكَ مَهْمَا زَلْتَ النُّعْلُ بِالْفَتَى *** عَلَى الْعَائِدِ التَّوَابِ بِالْعَفْوِ عَائِدًا(4)

إذ كنى عن الخطأ والضلال، وارتكاب المعاصي "بالزُّلُّ" وهو الانحراف عن الطريق الصحيح، وقد أدت الكناية دورها من البلاغة والبيان، وكان التعبير بواسطتها أبلغ من الحقيقة وإن كان هذا المعنى مقتبس من قول ابن أبي سلمى :

تَدَارَكْنَا الْأَحْلَافَ قَدْ نُلُّ عَرَشُهَا *** وَذِيانَ قَدْ زَلَّتْ بِأَقْدَامِهَا النُّعْلُ(5)

وفضل الشاعر هنا يتجلى في حسن تضمين هذا المعنى في بيته ليعبر به عن الانحراف عن الصراط المستقيم.

ولما كانت سمة هذا الشعر الظهور والمباشرة لملاءمتها لغرض الزهد، الذي

يتوخى به النصيح والوعظ، فإننا نستطيع أن نلمس في شعرهم بعض الكنايات التي تساعد على تقوية المعنى، نذكر منها قول أبي إسحاق الإبيري :

1 - الفصل السابق، ص 111.

2 - الفصل السابق، ص 111.

3 - الفصل السابق، ص 114.

4 - الفصل السابق، ص 91.

5 - ديوان زهير بن أبي سلمى، ص 61.

وعَفَرَ الوجْهَ لَهُ سَاجِدًا *** فَعَزَّ وَجْهَهُ ذَلَّ لِلَّهِ (1)

وفي هذه الصورة كناية عن كثرة السجود على التراب حتى يتعفر الوجه به، وقد جاء التعبير بالكناية هنا أبلغ من التصريح، لما تتركه الكناية في النفس من أثر، وذلك عن طريق التلميح بالإذعان والخضوع لله عز وجل، فهي كناية حسنة لأنها جمعت بين الفائدة ولطف الإشارة.

أما في قوله «فعز وجهه» فمحاز مرسل علاقته الجزئية، إذ عبر بالجزء «وجه» وأراد به الكل، لأن الوجه جزء من الإنسان، والعز يشمل الإنسان كله.

وأما قول ابن حمديس :

وَقَدْ شَمَلْتَنِي شَيْبَةٌ لَمْ أَيْتْ بِهَا *** فَمَا لِي فِي لَيْلِي قَدْ طَلَعَتْ شَمْسِي (2)

فقد وظف «الليل» كناية عن الضلال والجهل، وأما قوله «طلعت شمسي» فكناية عن ظهور الشيب وبياض الشعر، وكأن الإنسان في هذه السن يصبح محط الأنظار، تزصده العيون وتحصي سيئاته وزلاته، وطلوع الشمس نهار وآيته الإبصار، ولا يكون إلا بالتقوى والعمل الصالح.

4 - القصص القرآني مصدر من مصادر صورهم الشعرية :

لقد احتل القرآن الكريم مكانة مرموقة في نفوس هؤلاء الشعراء، لذلك نراهم قد حاكوا أسلوبه واقتبسوا من معانيه وألفاظه، كما استفادوا من قصصه ووظفوه توظيفاً جيداً، مما يدل على شدة تمسكهم به في حياتهم وفنهم، حتى أننا لا نكاد نجد لهم قصيدة أو مقطوعة واحدة خالية من الأثر القرآني.

فإنهم عندما يتحدثون عن الموت وحتميته، لأنه نهاية كل حي، ومهما عمّر الإنسان طويلاً في هذه الدنيا، فلا بد أنه مفارقها كما فارقها أسلافه، ويجدون في قصة سيدنا نوح عليه السلام مثلاً حياً لذلك، وفي ذلك يقول ابن خفاجة :

1 - الفصل السابق، ص 128 .

2 - الفصل السابق، ص 135 .

فلم يُعِنْ نُوحًا الْمُنُونُ بِمِرْصِدٍ *** تَرَاقِبُهُ أَنْ كَانَ عُمَرُ نُوحٍ (1)

وقد استغل الشاعر قصة نوح عليه السلام في التعبير عن حقيقة الموت، وقد أراد من ذكر هذه القصة التمثيل، إذ أنه لا ينجو من الموت أحد وإن عمّر طويلا في هذه الحياة مثل نوح عليه السلام الذي عمر طويلا، غير أن ذلك لم ينجه من الموت.

وها هو ابن حزم أيضا يضرب ذلك مثلا في قوله :

فَمَا لَذَّةُ الْإِنْسَانِ وَالْمَوْتُ بَعْدَهَا *** وَلَوْ عَاشَ ضِعْفِي عُمَرُ نُوحٍ بِنِ لَامِكٍ (2)

وإذا كان نوح عليه السلام مثلا للإنسان الذي عمّر طويلا في الدنيا، دون أن ينفعه ذلك في ردّ الموت ودفعها، فإنه لا يتفجع بذلك أحد حتى ولو عاش ضعفي عمر نوح، لأنه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...﴾ (3). وقد جاء التذكير بالموت هنا للحث على العمل الصالح والتقوى والعبادة، والترفع عن الدنيا وحطامها الزائل، وغرض التمثيل هنا هو النصح والتوجيه. والصورة الثانية التي وظفت لأجل هذه الغاية هي صورة ما حلّ بإرم

وعاد، وقد جاء ذلك في قول ابن خفاجة :

وَتَرَكْتُهُ وَالْمَجْدُ يُرْغِمُ أَنْفَهُ *** مُتَوَسِّدًا حَيْثُ التَّرَابُ وَسَادُ

فِي مَوْطِنٍ نَزَلَتْهُ جُرْهُمُ قَبْلَهُ *** وَتَحَوَّلَتْ إِرْمٌ إِلَيْهِ وَعَآدٌ (4)

وذكر «جرهم، وإرم وعاد» هنا تعزية واعتبار، إذ أن الموت قد أخذت الأمم العاتية القوية. قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودًا فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمِ نُوحٍ مِن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْفَى﴾ (5). فاعتبر أيها الإنسان ولا تغرنك قوتك، فلا تطغى، وتب إلى ربك وسارع إلى التقوى إنها خير وأبقى. وهذا أبو إسحاق

1 - الفصل السابق، ص 123 .

2 - الفصل السابق، ص 107 .

3 - آل عمران / 185 .

4 - الفصل السابق، ص 165 .

5 - النجم / 49-50-51 .

الإلبيري يستغل القصص القرآني في التعبير عن آرائه ويوظف منه ما يلائم غرضه وفكرته، فهو عندما يدعو إلى الزهد في الدنيا يختار صورة السامري الذي عاقبه الله في الدنيا بالأذى الناس ولا يماسوه إلى يوم القيامة، فيستعير الشاعر هذه الصورة المفزعة ليوظفها في جانب إيجابي في الحياة ألا وهو الزهد فيقول :

فَمِنَ الرَّأْيِ أَنْ تَكُونَ جَبَانًا *** سامريا تدين بالانزواع⁽¹⁾

فالانزواء الذي يريده الشاعر هنا، هو البعد عن كل ملذات الحياة وفتنها، وتلك هي الغاية المنشودة للزاهد العابد.

وأما الصورة الثانية التي وظفت فيها قصة السامري من طرف أبي إسحاق الإلبيري أيضا في قوله :

وخالطهم وزابلهم جدارا *** وكن كالسامري إذا لمست⁽²⁾

فهو هنا يدعو إلى معاملة الناس بحذر، وبخوفه من الناس ودعوته إلى الابتعاد عنهم يكشف عن رأيه في الناس، وسوء ظنه بهم، ولعل نظرته هذه وليدة عصره وبيئته، ذلك العصر الذي كثرت فيه الفتن والدسائس، ومن هنا تأتي نصيحته في محلها.

وقد وفق هؤلاء الشعراء في توظيف القصص القرآني الذي اتخذوه وسيلة لتشكيل صورهم، فهذا أبو إسحاق الإلبيري، يدعو إلى التوبة، وينصح بالدعاء والاستغفار، ويضرب لنا في ذلك مثلا حيا من الأمثلة القرآنية، إنها قصة سيدنا يونس عليه السلام، والتي ذكرها القرآن الكريم لتكون لنا عبرة وموعظة، وكذا يريدنا الشاعر إذ يقول :

ونادِ إِذَا سَجَدْتَ لَهُ اعْتِرَافًا *** بما ناداه ذو النون بن متى⁽³⁾

1 - الفصل السابق، ص 130 .

2 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري، ص 32.

3 - المصدر نفسه، ص 29.

وفي ذلك إشارة إلى الآية الكريمة : ﴿ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (1). وهو من ثمة يرسم للناس طريق التوبة ويبين طريقها معتمدا في ذلك على القرآن الكريم وهو خير سبيل.

وتما سبق يمكننا أن نستنتج بأن مصادر الصورة عند هؤلاء الشعراء كانت مستمدة من القرآن الكريم، بقصصه وتصويره للنار والحشر والجنة، والقيامة، والدينا، كما استفادوا من الطبيعة حولهم.

وكما لاحظنا أن صورهم تأتي حسية، وجزئية - غالبا - وقلما جاءت متكاملة الجوانب.

المحسنات البديعية :

لقد عني هؤلاء الشعراء بالعبارة والأسلوب، فجددوا في بعض الصور القديمة، وأبدعوا في التصوير، وجاءت عنايتهم بالصور البديعية لا تقل عن عنايتهم بالصور البيانية، ومن أهم الصور التي وظفوها :

1 - الطباق : هو من الصور البديعية التي تكررت في شعر شعراء الزهد - في القرن الخامس الهجري في الأندلس - كثيرا، لمواءمتها لشعرهم الذي يتوخون به الوضوح والإقناع، لأن حد الطباق : هو الجمع بين الضدين في الكلام (2) ويؤتى به لتأكيد المعنى وإبرازه.

- وتكون المطابقة بلفظين من نوع واحد سواء أكانا اسمين أم فعلين، كقول البطلبوسي.

تباعدت مجدا واذنيت تعظفاً *** وحلما فانت المدني المتباعد (3)

1 - الأنبياء/86.

2 - العمدة لابن رشيق، ج2، ص5.

3 - انظر الفصل السابق، ص 91 .

ونجده أيضا في قول ابن حزم :

هو الأول المتدي خلقها *** كما شاء إذ شاء فرق وضم
وركب لاميتها كيف شاء *** سكان برّ وسكان يــــم(1)

وقد أكثر الشاعر من الطباق والمقابلة لتوضيح المعنى بإقامة الحجة والدليل
لإبراز قدرة الله عز وجل.

- ومن المقابلة قوله :

نهار مضيء وليل أحم *** وبحر عميق وطود أشم(2)

ومن الطباق الحسن قول ابن حمديس :

كلما تبت ساعة عدت أخرى *** لضروب من سوء فعلي وهجري(3)

فقد وفق الشاعر في اختياره لكل لفظة في هذا البيت، فأداة الشرط «كلما» تفيد
التجدد وتوحي بالكثرة، فكأننا بالشاعر كلما تجددت توبته كلما عاد إلى ارتكاب
الذنوب والمعاصي. والطاق بين الفعلين «تبت وعدت» وهما فعلان ماضيان،
والتعبير بالماضي يدل عقليا على الوقوع قبل زمن التكلم، وبدل عاطفيا على حقية
الحدث، وأنه لا بد كائن ولا مفر، وعليه فاللدلالة الأولى هي منطق العقل.

- ونجد طباقا آخر بين اسمين في قول ابن حمديس :

كلما مر منه وقت بريح *** من حياتي وجدت في الريح خسري(4)

وطباقا آخر في قوله :

يارفقا بعده ومحيطا *** علمه باختلاف سري وجهري(5)

1 - الفصل السابق، ص 95.

2 - الفصل السابق، ص 95.

3 - الفصل السابق ص 89.

4 - الفصل السابق، ص 98.

5 - الفصل السابق، ص 98.

وهكذا يمكننا أن نقول، لقد كثرت هذه الصورة البديعية في شعرهم، لأنها تساعد على توضيح المعنى وتقويته.

أما المقابلة، فهي نوع من الطباق، لكن يؤتى فيها بمعنيين متوافقين أو أكثر، ثم يؤتى بما يقابل ذلك على سبيل الترتيب(1).

« وأكثر ما تجيء المقابلة في الأضداد، فإذا جاوز الطباق صدين كان مقابلة»(2)، ومثال ذلك قول أحمد بن يحيى عيسى الإلبيري :

من فوق فوق الفوق ينفذ حكمه *** في تحت تحت التحت تحت الانتها

قربا وبعدا وهو أبعد من نأى *** من كل شيء وهو أقرب من دنا

فقد عبر الشاعر في هذين البيتين عن إيمانه الصادق، وعقيدته الصحيحة، فأنه عز وجل أقدر على تنفيذ حكمه في خلقه، فهو فوق غايات العلا رفعة وجلالا، وهو قريب من عباده برحمته وعلمه. وقد وفق الشاعر في التعبير عن عظمة الله وجلال قدره فاختر المقابلة بين: «فوق فوق الفوق وتحت تحت التحت» ومع تكرار كل لفظه نحس بتحديد المعنى وقوته، فكأننا به يعبر بلفظ «فوق» عن السموات، ولفظ «تحت» يعبر عن طبقات الأرض. فنحس معه ببعد الطرفين المتضادين، علوا ودنوا. وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على مقدرة الشاعر الفنية وتمكنه من وسيكته اللغوية، أو نقول: إن نور الإيمان قد لاح سناه فأشرقت هذه الكلمات بضيائها وجرت على لسان الشاعر عذبة رقيقة.

ومن المقابلة أيضا قول ابن حمديس :

ولا تسأل من المملوك شيئا فترجع حائبا وسل المليك(3)

فقد قابل بين النهي «لا تسأل» والأمر «سأل» و «المملوك» أي العبد، و «المليكا» وهو الله عز وجل. والمقابلة كالطباق تقوي المعنى وتؤكد.

1 - علوم البلاغة، لأحمد مصطفى المراغي، ص 299.

2 - العمدة لأبن رشيق، ج2، ص 15.

3 - الفصل السابق، ص 115.

2- الجناس :

وهو من الصور التي وظفها هؤلاء الشعراء للتعبير عن أحاسيسهم ورؤاهم، إلا أنهم لم يهتموا به قدر اهتمامهم بالطباق والمقابلة، لأن عنايتهم انصبحت على وضوح المعاني وتقريبها وتوكيدها أكثر من عنايتهم بالشكل، والجناس يدخل في التحسين اللفظي.

والجناس لغة : مصدر جانس الشيء شاكله واتحد معه في الجنس، واصطلاحاً يقصد به تشابه اللفظين في اللفظ واختلافهما في المعنى، ويسمونه التحنيس(1).

وهو نوعان؛ النوع الأول وهو ما يطلق عليه المائلة، وهي : «أن تكون اللفظة واحدة باختلاف المعنى»(2)، أي أن تتفق اللفظتان في عدد الحروف وهيئتها وحركاتها وسكناتها وترتيبها من غير تفاوت، سواء كانا اسمين أو فعلين أو من اسم وفعل أو من اسم وحرف، بشرط أن يكونا من نوع واحد، وهو أكمل صورة للحنيس. وهذا النوع لم يرد في هذا الشعر، وإنما ورد الجناس الناقص وهو : ما اختلف فيه اللفظان في عدد الحروف أو في ترتيبها أو شكلها، نذكر منه على سبيل المثال قول أبي إسحاق الإلبيري :

فَقَوَتْ الرُّوحَ أرواحُ المعاني *** وليسَ بأنَّ طَعِمَتْ وَأَنَّ شَرِبَتْ(3)

وكذلك في قول ابن حمديس :

وَأَنْتِ وَفِي عُقْبَى الشَّبَابِ عَقُوبَةٌ *** أَسْرُبُهَا - بِئْسَ السَّرُورُ - وَأَفْرَحُ(4)

- وقول أبي إسحاق الإلبيري :

ولطالما رَدُّوا بِأرْدِيَةِ الْبَهَا *** فَتَعَوَّضُوا مِنْهَا رِداءَ رَدَاكَ(5)

1 - البلاغة، لأحمد مصطفى المراغي، ص 330.

2 - المرجع نفسه.

3 - الفصل السابق، ص 112 .

4 - الفصل السابق، ص 135 .

5 - الفصل السابق، ص 140 .

3 - رد العجز على الصدر :

وهي صورة كثيرة الاستعمال في هذا الشعر. ومعناها : هو أن يكون فيها لفظان مكرران والغرض من ذلك التأكيد على الكلمة حتى لا تفوت القارئ أو السامع لأهميتها، وتأتي بعدة طرق :

أ - موافقة آخر كلمة في البيت آخر كلمة في النصف الأول.

ب - موافقة أول كلمة في الصدر مع آخر كلمة في العجز.

ج - ومنه ما يكون في حشو الكلام(1).

وأمثلتها كثيرة نذكر منها قول أبي إسحاق الإلبيري :

وأغفلتُ أمرِي بعدهم متبظا *** فيا عجباً مني ومن غفلاتي(2)

وهي من النوع الثاني، أي موافقة آخر كلمة في البيت (غفلاتي) مع أول كلمة في الصدر (أغفليت) وترديد اللفظة يؤكد المعنى ويقويه.

ومنها قول ابن حمديس :

غرسْتُ بكفي المعاصي جاهدا *** ولا شك أنني أجتني ثمر الغرس(3)

ومنها قول أبي إسحاق الإلبيري :

يا عامرَ الدنيا ليسكنها وما *** هي بالتي يبقى بها سُكَّانُ(4)

وكذلك قول أبي الوليد الباجي :

جاهد عن اللذات نفسك جاهدا *** فإنَّ جهادَ النفس خير جهاد(5)

ولعل تكرار لفظة (جاهد) في البيت أربع مرات يؤكد الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر، وهي حالة ألم وحسرة على أيام أتبع فيها هوى نفسه، لذلك نراه حريصاً على إسداء هذه النصيحة القيمة، وهي الدعوة إلى مجاهدة النفس وردها عن غيرها

1 - كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري، ص 385.

2 - الفصل السابق، ص 134

3 - الفصل السابق، ص 135.

4 - انظر الأبيات، ص 141.

5 - الفصل السابق، ص 143.

ومنعها من الاسترسال في حب الدنيا وزخرفها، لذا جعل أول كلمة في البيت وآخر كلمة فيه هي لفظة : «جاهد» ومشتقها «جِهَاد»، لتكون أول كلمة تفرع أسماعنا وآخر كلمة تعلق بنفوسنا، وهنا تكمن بلاغة هذه الصورة.

وأما قول أبي إسحاق الإلبيري :

أحمامة اليبدا أطلت بكاك *** فبحسن صوتك ما الذي أبكاك؟(1)

فهو من النوع الأول، لأن الشاعر جعل آخر كلمة في البيت موافقة لآخر كلمة في النصف الأول منه مما يضيف على البيت جرسا موسيقيا عذبا لتوافق عروضه وضربه. ومما يأتي في حشو الكلام قول أبي إسحاق الإلبيري أيضا :

بل شغله في زاده لمعاده *** فالزاد أكد شغل كل مسافر(2)

إذ نراه يذكر لفظ «شغل» في حشو الصدر والعجز، وتكرار اللفظ يساعد على تقوية المعنى وتثبيته في الذهن بالإضافة إلى الجرس الموسيقي الذي يحدثه تكرار اللفظة.

وما تجدر الإشارة إليه هنا هو قلة عنايتهم بالصور البديعية، لأن العناية بالفكرة ووضوحها وقرب مأخذها، قد استقطبت كل جهودهم فقلت لذلك المحسنات البديعية وما جاء منها كان عفويا لأنه أتى لخدمة المعنى، لذا فقد اكتفيت بذكر الطباق والمقابلة ورد العجز على الصدر - رغم وجود محسنات أخرى - لأن هذه الصور البديعية كانت أكثر استعمالا من غيرها، ولعل ذلك راجع لأهميتها ودورها في تقوية المعنى وتأكيده في الذهن والنفس، مما يؤكد ما ذهبنا إليه سابقا، وهو عناية هؤلاء الشعراء بوضوح المعنى وقوته. لذا نرى أكثر الصور المستعملة هي تلك الصور التي تخاطب فينا العقل والقلب، لتنفعا وتدفعنا إلى العمل الصالح، ومن هنا تبرز أهمية هذا الشعر وقيمه الأدبية والفنية والتاريخية، ويظل زادا قيما للأجيال اللاحقة المتعطشة لمعرفة تراثها العريق لتستمد منه قوتها وتحافظ على أصالتها.

1 - انظر الأبيات، ص 126.

2 - انظر الأبيات، ص 132.

جامعة الأميرة نورة بنت عبدالرحمن
العلوم الإسلامية
إدارة

جامعة الأمير عبد القادر للطب والعلوم الإسلامية

الخاتمة

يستخلص من هذا البحث عدّة نتائج أهمّها :

- إنّ هذا الشعر يمثل الجانب الروحي والديني في الرؤية والأداة. وهو ظاهرة غير مألوفة في الشعر الأندلسي قبل القرن الخامس الهجري، هذا وإن كانت له جذور في القرون الأولى في هذه البيئة، إلاّ أنه لم يعرف بمثل هذه النهضة، وذاك التفرغ لهذا الجانب، حتى أنه أدى إلى ظهور شعر التصوّف مع مطلع القرن السادس الهجري في الأندلس.

- كما أتضح من خلال الدّراسة، أن هؤلاء الشعراء رغم زهدهم وتعبيرهم عن نظرتهم في الحياة والموت، فإنهم ساهموا في الحياة السياسية والاجتماعية، ولم يحبسوا نفوسهم داخل الصوامع والمعابد، فثاروا على الأوضاع الفاسدة، وعملوا بحسّ المسلم المؤمن الذي يرى نفسه مسؤولاً عن الفساد أمام الله عزّ وجلّ، وأمام نفسه وجماعة المسلمين، لذلك لم يتوانوا في حمل رسالتهم الإصلاحية، فحاربوا الفساد في نفوسهم وفي المجتمع، وذلك بمحاسبة النفس ومجاهدتها وردعها، وحملها على الرجوع إلى رياض ربّها الوارفات الظلال، والإقبال على الطّاعات والعبادات، شكراً ورجبة ورهبة.

- وإيمانهم بالله وبرسالتهم جعلهم شعراء متميّزين، فتحرّروا من الشّهوات الدنيوية وأسرها، واتخذوا كلمتهم سلاحاً وأداة لمحاربة الفساد، فجاء شعرهم دينياً ودنيوياً، لأن صلاح الدار الأخرى مبني على صلاح الدار الأولى.

- ومن أبرز خصائص هذا الشعر، تعبيره عن الجانب العقدي، كما يرتبط بنظرتهم وفلسفتهم في الحياة والموت، فالحياة في رأيهم جسر يمرون منه للدّار الأخرى، والموت غاية كلّ حيّ. وجاءت نظرتهم إسلامية، تدل على تشبّعهم بالثقافة الإسلامية وتمسّكهم بالكتاب والسنة.

- كما يُستنتج من دراسة هذا الشعر، تمسّكهم بأصالتهم ومحافظةهم على انتمائهم إلى الأمة العربية، من خلال تمسّكهم بالموروث القديم في بناء القصيدة وأوزانها وقوافيها، فعلى الرّغم من ظهور فن

الموشحات - الذي يُعدُّ ثورة على شكل القصيدة القديمة - ظلوا متمسكين بالأوزان الخليلية، لأنهم رأوا أنَّ ذلك من واجبهم، للمحافظة على ارتباطهم وانتمائهم إلى الأمة العربية المسلمة.

- كما تظهر هذه المحافظة في عنايتهم بالصُّور الشعرية التقليدية المستمدة - غالباً - من القرآن الكريم، أو الموروث القديم.

كما اعتمدوا في صورهم على الذاكرة الواعية، أكثر من اعتمادهم على الخيال الابتكاري، فجاءت صورهم جاهزة بعيدة عن الابتكار، غير أنَّ ذلك لم يمنعهم من الاستفادة من واقعهم وبيئتهم، فحلَّق بعضهم في الخيال، وبلغ حدَّ الرومانسية، كما هو الشَّان لدى ابن خفاجة الذي استطاع أن يبلغ الذُّروة في الخيال والامتزاج بالطبيعة الجامدة، ليخلع عليها من روحه وفكره، وينطقها وهي الخرساء بما يصلح أن يكون عيرة وموعظة.

- كما نرى منهم، من بلغ قمة التجريد الذهني في التعبير عن أفكاره وآرائه، كما هو الشَّان لدى ابن حزم والبطلوسي وغيرهما ممن تشبعوا بالفلسفة.

كما يُلاحظ السُّدَّاس لهذا الشعر، تأثرهم البليغ بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف لغة وأسلوباً وفكراً، فجاءت لغتهم بسيطة سلسة تبعث في النفس راحة ودفئاً.

كما جاء أسلوبهم معبراً عن شخصيتهم، وانتمائهم الروحي إلى المدرسة الربانية، التي تتخذ الكلمة سلاحاً لدرء الفساد، والموعظة الحسنة نهجاً للإصلاح، والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف مدرسة تعلّمهم وتلقّنهم كلَّ ذلك.

الفهارس

جامعة الأزهر الشريف
عبد القادر للعطوم الإسلامية

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الصفحة	رقمها	الآية
		الفاتحة (1)
103	6,3,2,1	« الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... »
221	6,5	« إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ... »
		البقرة (2)
221	55	« ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »
78	151	« فَادْكُرُونِي أذْكُرْكُمْ ... »
218,108	196	« ... وَتَزُودُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى ... »
120	201	« ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »
88	205	« وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ أُتِغَاءً مَرْضَاتِ اللَّهِ ... »
121	220	« ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ ... »
241	221	« ... وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ ... »
100	236	« ... وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ »
90	280	« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ... »
		آل عمران (3)
110	102	« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ... »
76	144	« ... وَسَيَحْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ »
76	145	« ... وَسَنَحْزِي الشَّاكِرِينَ »
282,59	185	« كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ... »
269	191	« ... وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... »
		النساء (4)
241	1	« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... »
77	70	« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ... »

		«... قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا»
144	76	
215	110	«... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا»
		المائدة (5)
153	20	«... وَ اللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...»
		«فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ...»
91	41	
		الأنعام (6)
213	1	«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ...»
220	23	«وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...»
222	33	«وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ...»
242	37	«... وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ»
215	103	«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ...»
		الأعراف (7)
241	25	«يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَاتِكُمْ...»
		الأنفال (8)
243	36	«... وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ»
		التوبة (9)
149	34	«... وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...»
		«... فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ...»
241	35,34	
88	112	«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...»
240	106	«وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ...»

		يوسف (12)
125	87	«إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنَ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمَ الْكَافِرُونَ...»
		الرعد (13)
120	16	وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا...»
		إبراهيم (14)
237- 89	9	«وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ...»
237	36	«وَإِن تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا...»
		الحجر (15)
213	98	«فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ»
		النحل (16)
99	19	«وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ»
120	49	«وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ...»
214	53	«وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ...»
239- 215	75	«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا...»
54	125	«أُدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ...»
		الإسراء (17)
143	13	«وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا»
44	19	«وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ...»
100	78	«أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ...»
250	88	«قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ...»
		الكهف (18)
43	7	«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا...»
218	31	«...مُتَكِبِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ...»

243.218	102	«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...» طه (20)
155	52	«الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا...»
238	108	«وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ...»
237	111	«فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...»
114	111	«... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا»
169	120	«...فَأَمَّا يَا تَيْنَكُم مِّنِي هُدًى»
91 (ماتن)	126	«إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى» الأنبياء (21)
268.96	30	«وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ...»
284.238	86	«وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا»
77	87-86	«وَذَا النُّونِ... * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ...»
76	97	«إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ...» المؤمنون (23)
219	105	«تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ...»
	77	«وَلَقَدْ أَخَذْنَاَهُم بِالْعَذَابِ...»
103	117	«فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ...»
150	65	«حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيَهُمْ...» النور (24)
221	38	«...أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ...» «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ»
217	50	«فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ» الفرقان (25)
238	63	«وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا...»

		الشعراء (26)
211	195.192	« وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ... »
		القصص (28)
122	15	« قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ... »
48.46	54	« أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ... »
240	77	« وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ... »
46	80	« وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ ... »
		العنكبوت (29)
240.144	64	« ... وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ... »
		الروم (30)
47	64	« فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ... »
		لقمان (31)
116	32	« ... إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ... »
		« ... فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ
218.106	32	بِاللَّهِ الْغُرُورُ »
241	33	« ... وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ غَدًا ... »
		فاطر (35)
105	28	« ... إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ... »
219	33	« جَنَّاتٌ عَدْنٌ ... »
		الزمر (39)
		« أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا
217	10	يَحْذَرُ الْآخِرَةَ ... »
102	59	« اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ... »
		غافر (40)
237	2	« غَافِرِ الذَّنْبِ، وَقَابِلِ التَّوْبِ ... »

«...فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا

242 21 مِنْ قَبْلِهِمْ...»

94 44 « فَسْتَذَكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ...»

101 54 «... وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ...»

99 60 « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...»

فصلت (41)

101 42 «... إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ»

الشورى (42)

219 5 «...فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ»

89 21 « وَمَنْ يَتَّخِذْ حَسَنَةَ نِزْدٍ لَهُ فِيهَا حُسْنًا...»

147 25 « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ...»

29 «... وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ»

الجمانية (45)

237 12 « وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ...»

الأحقاف (49)

«... كَانْتُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا

إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ...»

محمد (47)

240.143.137 37 «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهْوٌ...»

ق (50)

220 19 « وَجَاءَت سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ...»

الذاريات (51)

88.67 56 « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ»

الطور (52)

243 15 « إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ»

النجم (53)

282

« وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَنمودًا فَمَا أَبْقَى *... » 51 50 49

القمر (54)

243.170

48 47

« إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ »

219

48

« يَوْمَ يُسْحَبُونَ... »

الرحمن (55)

240.59.48

25-24

« كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ »

الحديد (57)

240.137

19

«... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ »

137

19

« اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ... »

47

22

« لِكَيْلَا لَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ، وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ... »

48

26

«... وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ... »

الحشر (59)

217

24

« هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ... »

الصف (61)

239

9

« هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى... »

التغابن (64)

239

4

« وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ... »

147

15

« إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ... »

الملك (67)

263

8-7

« إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ * تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ... »

238	12	« إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ... »
88	23	« .. وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ... » الحاقة (69)
243.219	21.20	« فَهَوَ فِي عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ » المزمل (73)
198	1	« ... قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا »
133	3	« أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا » القيامة (75)
242	4-3	« أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ * بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِّيَ بَنَانَهُ »
214	37-36	« أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ تُمْنَى * ثُمَّ عَلَقَةً ... » النازعات (79)
93	40.39	« وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى » عبس (80)
131	37.33	« فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ * يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » التكوير (81)
223	14.1	« إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ... »
243	5	« وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ »
243	10	« وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ »

			الانفطار (82)
			« إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * وَإِنَّ الْفُجَّارَ
242	14-13		لَفِي جَحِيمٍ »
			البروج (85)
220	5-4		« قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ »
			الطارق (85)
92	7-6-5		« فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ »
			الغاشية (88)
			« وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ * تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً »
146	4-3-2		
155	18		« وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ... »
			الفجر (89)
97	7-6		« أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ »
			الليل (92)
270	11		« وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى »
220	15-14		« فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى... »
			الزلزلة (99)
			« فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ
146	9-8		مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ »
			القارعة (101)
			« فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ... »
75	10.9.8.7.6.5		

238	1	المسد (111) « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ »
92	2-1	الإخلاص (112) « قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ »

الإمامة الأمير عبد القادر للعطوم الإسلامية

فهرس الأشعار

الصفحة	الشاعر	عدد الأبيات	البحر	القافية	أول البيت
الألف المقصورة					
102	أحمد بن يحيى عيسى الإلبيري	4	الكامل	الثرى	ملك تعالى... الشييب نبه...
129	أبو إسحاق الإلبيري	1	الكامل	انتهى	
الهمزة					
130	أبو إسحاق الإلبيري	14	الرمل	الماء	ما عناء الكبير...
110	الحميدي	2	الكامل	فناؤه	من لم يكن...
231	عمر بن أبي ربيعة	2	الخفيف	أسماء	صرمت...
- ب -					
74	أبو الوليد الباجي	2	الطويل	غائبا	إذا كنت...
118	ابن خفاجة	21	الطويل	نجائب	بعيشك هل...
59	الزبيدي	6	الوافر	عتاب	لقد فاز...
142.78.65	السميسر	7.4.3	مجزوء الرمل	سراب	جملة الدنيا...
162.160	ابن خفاجة	23	الطويل	عتاب	شراب الأمانى...
164	ابن خفاجة	6	المتقارب	خراب	ألا قصر...
89	ابن حزم	5	المنسرح	كثبه	شكر الرب...
104	ابن حزم	16	المنسرح	لغبه	يا نفس جدي...
159	أبو إسحاق الإلبيري	5	الكامل	الذاهب	أين الملوك...
116	ابن حمديس	2	الخطوب السريع		كن واثقا...
124	ابن حمديس	15	المتقارب	الذاهب	وعظت بلمتك..
60	المنذر بن سعيد	7	الخفيف	اللييب	كم تصابى...
82	أبو إسحاق الإلبيري	1	الطويل	ذاهب	تساءلت عنهم..
58	ابن عبد ربه	2	الطويل	جانب	ألا إنما الدنيا...

156	أبو إسحاق الإلبيري	15	الكامل	رقيب	تغازلني المنية...
- ت -					
111	أبو إسحاق الإلبيري	38	الوافر	نحنا	تفت فؤادك...
134	الشاعر نفسه	11	الطويل	لهوات	كأنني بنفسي...
116	ابن خفاجة	4	الطويل	صوتي	ألا صمت...
77	أبو إسحاق الإلبيري	3	الوافر	متى	وناد إذا...
141.79	الشاعر نفسه	10	الوافر	وقتا	فليست...
79	أبو إسحاق الإلبيري	1	الوافر	سجنتنا	سجنت...
- ح -					
135	ابن حمديس	3	الطويل	أربح	أبيع من...
123	ابن خفاجة	4	الطويل	نصوح	كفى حزنا...
31	ابن الفزاز	2	الوافر	جناح	ثناؤك ليس...
- د -					
143	أبو الوليد الباجي	5	الطويل	معاد	تبلغ إلي...
91.81	البطليوسي	162	الطويل	جاهد	إلهي إني...
51	أبو العتاهية	3	الرجز	مفسده	إن الشباب...
145	المعري	1	الرميل	شاد	غير مجد...
64	السمير	3	الكامل	حداد	تحفظ من...
159	أبو إسحاق الإلبيري	5	المتقارب	العنيد	فإن الردى...
165	ابن خفاجة	13	الكامل	أسداد	يا أيها النائب...
33	ابن اللبانة	1	البيسط	عباد	تبكي السماء...
154.73	أبو الحسن الطيطل	12.4	المنسرح	المراد	يا غافلا شأنه...
- ر -					
122	أبو الوليد الباجي	4	السريع	جائرا	يا قلب إما...

108	ابن سارة	5	الكبر	البسيط	يا من يصيخ...
133	ابن حمديس	5	نهارا	المتقارب	أرى الشيخ...
75	أبو إسحاق الإلبيري	3	الضامر	الكامل	وغدا بميدان...
100	أبو إسحاق الإلبيري	3	أعتذر	البسيط	لا قوة لي...
98	ابن حمديس الصقلي	9	عذري	الخفيف	يا ذنوبي ثقلت...
132	أبو إسحاق الإلبيري	14	غادر	الكامل	من جاوز الستين...
145	ابن خفاجة	3	دثور	الخفيف	لا العطايا...
76	أبو إسحاق الإلبيري	2	الشاعر	الكامل	إني لأشكره...
144	ابن سارة	2	الحقيرة	الوافر	بنو الدنيا...
110	الحميدي	2	الزهر	البسيط	الناس نبت...
217	أبو محمد غانم	2	الغرور	السريع	صرف بقايا...
168	أبو إسحاق الإلبيري	13	النار	السريع	ويل لأهل...
99	أبو الوليد الباجي	5	النيرا	الرجز	قد أفلح...
32	ابن عبدون	1	الصور	البسيط	الدهر يفجع...
33	المعتمد بن عباد	5	عمري	الطويل	يقولون صبرا...
149	أبو إسحاق الإلبيري	1	ضائر	الكامل	فمن الغنى...
51	أبو نواس	3	مجزوء الرمل		يا نواسي توقّر..
56	ابن عبد ربه	4	شفيح	الكامل	أتلهو بين...
56	ابن عبد ربه	6	وطر	البسيط	يا عاجزا...
231	عمر بن أبي ربيعة	3	النواضر	الطويل	رأين...
233	السميسر	9	الصبر	السريع	ليس لمن...
209	ابن حزم	9	سور	مجزوء الرمل	إنما العقل...
61	الزبيدي	2	يُقبّر	السريع	ولو لم...
64	السميسر	3	الصور	الوافر	رأيت بني...

67	ابن خفاجة	1	أسرى	الطويل	وما الغي...
68	ابن حداد	2	الأميرا	الوافر	لزمت فناعتي
76	أبو إسحاق الإلبيري	3	النار	السريع	يهوى بها...
79	الشاعر نفسه	2	أسر	الطويل	ولو أنني...
80	السميسر	4	السر	السريع	من كان...
81	الشاعر نفسه	2	الأسر	السريع	يا ليتنا لم...
170	ابن حزم	16	احتضارها	الطويل	تنه...

- س -

202	ابن حمديس	4	نكس	الكامل	كملت...
135	ابن حمديس	5	نفسى	الطويل	إلى كم...
68	ابن الحداد	3	جليسى	الرمل	ذهب الناس...

- ض -

93	حبيب بن أحمد الشطحيري	3	الرضا	السريع	الحمد لله على...
35	أبو بكر بن عطية	3	معرضا	الرمل	أيها المطرود...

- ط -

122	أمية بن أبي الصلت	4	إفراطي	البسيط	حسي فكم...
71.10	ابن العسال	23	الغلط	البسيط	حنثوا رواحلكم..

- ع -

106.99	أبو الوليد الباجي	2	ساعة	السريع	إذا كنت...
30	عبد الله بن هود	4	أجمعا	الطويل	ضللتم جميعا...

- ف -

147	السميسر	3	الكفاف	بجزوء الجنت	دع عنك...
-----	---------	---	--------	-------------	-----------

61	ابن الفرضي	6	عارف الطويل	أسير الخطايا...
- ق -				
123.67	ابن خفاجة	72	رواقا المتقارب	طوبى لعبد...
109	الحميدي	2	الحقوق الوافر	طريق الزهد...
- ك -				
163	ابن حمديس	12	مضجعك مجزوء الرجز	بيتك فيه...
72	ابن حزم	2	البواتك الطويل	فيا نفس...
107.72	ابن حزم	10.5	هالك الطويل	أقول لنفسي...
126	أبو إسحاق الإلبيري	6	أبكاك الكامل	أحمامة البيدا...
141-138	أبو إسحاق الإلبيري	35	زاك الكامل	من ليس...
115	ابن حمديس	4	الشكوكا الكامل	أليس بنو...
152	ابن حمديس	5	هَلْكَ البسيط	إن الليالي...
151	ابن حمديس	5	عليك الرمل	ما الذي...
51	أبو نواس	7	أعدلك مجزوء الكامل	إلهنا ما...
- ل -				
93	البطلبيوسي	3	أهلُ الطويل	أمرت إلهي...
101	أبو إسحاق الإلبيري	7	حالي الوافر	أتيتك...
114	الطرطوشي	2	عملوا المتدارك	اعمل لمعادك...
147	السمير	3	مالُ مجزوء المجتث	المال ذل...
148	أبو إسحاق الإلبيري	6	جهال الكامل	لا شيء أخسر...
153	ابن خلصة	4	المعدول الخفيف	كلنا صائر...

148	أبو إسحاق الإلبيري	5	منفصل المنسرح	وذى غنى...
80	السميسر	2	طويلا الخفيف	قد هجرت...
230	جرير	2	اكتهالي الوافر	دعيني...
231	امرؤ القيس	1	مظفل الطويل	تصد...
81	زهير بن أبي سلمى	1	النعل الطويل	تداركتما...
82	ليد	1	زائل الطويل	ألا كل...

- م -

249	السميسر	2	حكما البسيط	رأيت...
231	عمر بن أبي ربيعة	1	سقيما الخفيف	ودعاء...
108	زهير بن أبي سلمى	1	يحلّم الطويل	إن سفاه...
110	الحميدي	2	الظلم البسيط	دين الفقيه...
142	السميسر	2	بجزوء الخفيف	لا تغرنك...
145	ابن العسال	4	مجزوء الرمل	انظر الدنيا...
157	أبو إسحاق الإلبيري	18	الرمل	قد بلغت...
88	أبو الوليد الباجي	2	الكلم البسيط	الحمد لله ذي...
249.63	السميسر	4	بجزوء الكامل	ناد الملوك...
51	أبو نواس	4	أعظم الكامل	يا رب إن...
49	الفرزدق	4	تمامي الطويل	أطعتك يا...
94	ابن حزم	48	بالشكرم المتقارب	لك الحمد يا...

- ن -

131	أبو إسحاق الإلبيري	6	فارحلن السريع	يا عجباً من...
-----	--------------------	---	---------------	----------------

83	أبو نواس	1	دين	السريع	ما الناس إلا...
109	الحميدي	2	ديني	الوافر	كلام الله...
141.82	أبو إسحاق الإلبيري	4.3	مكان	الكامل	كل امرئ...
144	ابن سارة	2	حيوان	الطويل	وما دارنا إلا...
145	أبو إسحاق الإلبيري	2	ممتحن	السريع	لا غارت الدنيا...
160	الشاعر نفسه	7	مظمتنا	مجزوء البسيط	كم آمن...
102	أحمد بن يحيى عيسى الإلبيري	3	الزمان	الكامل	ياخالقا خلق...
58	ابن أبي زمنين	4	يراد بنا	البسيط	الموت في كل...
78	الحميدي	3	ديني	الوافر	كلام الله...
201	الطرطوشي	3	الفتنا	الرميل	إن لله...
248.70.9	أبو إسحاق الإلبيري	9.1	العرين	المتقارب	ألا قل لصنهاجة...
81	المتني	1	الجنان	الوافر	أبوكم آدم...

- ه -

58	ابن أبي زمنين	2	تأصفتها	الرميل	أيها المرء...
155	أبو جعفر الأعم	12	سواه	مجزء الرمل	الموت شغل...
89	أبو الوليد الباجي	3	نخصيها	المنسرح	الحمد لله حمد...
119	أبو الوليد الإلبيري	10	الله	السريع	يا صاح سر...
128	أبو إسحاق الإلبيري	12	الله	السريع	ياأيها المغتر...
167	الشاعر نفسه	14	الله	السريع	يا طالبا جاها...
127	أمية بن أبي الصلت	4	مولاه	السريع	ما أغفل...

- و -

52	أبو نواس	5	عضوا	الرميل	دب في...
----	----------	---	------	--------	----------

قائمة المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم

2. الآداب الإقليمية في العصر العباسي الثاني. د/حامد حفني داود.

ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط2، 1981م.

3. الإحاطة في أخبار غرناطة - للسان الدين بن الخطيب.

تح: محمد عبد الله عنان، دار المعارف، مصر - القاهرة (د.ت).

4. إحياء علوم الدين - لأبي حامد الغزالي.

(مج5) دار الكتاب العربي (د.ت).

5. أخبار العلماء والحكماء - للقفطي.

تح: محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، مصر، ط 1326هـ.

6. الأخلاق والسير في مداواة النفوس - لابن حزم.

دار الشهاب، باتنة - الجزائر (د.ت).

7. الأدب العربي. د/عبد العزيز عتيق.

دار النهضة للطباعة والنشر - بيروت. ط2، 1976م.

8. الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه. د/مصطفى الشكعة.

دار العلم للملايين، 1983م.

9. أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث لبطرس البستاني.

(مج3)، توزيع دار الجيل - بيروت (د.ت).

10. أزهار الرياض في أخبار عياض - لشهاب الدين أحمد المقرئ.

تح: د/عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي -

المملكة المغربية والإمارات العربية المتحدة، 1980م.

- 11 - أسرار البلاغة - لعبد القاهر الجرجاني.
- تح: محمد رشيد رضا، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح - القاهرة، ط6، 1958م.
- 12 - الأعلام - للأستاذ خير الدين الزركلي.
- دار العلم للملايين - بيروت، لبنان، ط5، 1980م.
- 13 - الأنيس المطرب - لعلي بن أبي زرع الفاسي.
- دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ط1972م.
- 14 - البداية والنهاية في التاريخ - لعقاد الدين أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير.
- دار الفكر العربي، ج11، 12 مج6، (د.ت).
- 15 - بغية المنتمس في تاريخ أهل الأندلس للضبي.
- طبعة مجريط، 1984م.
- 16 - بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة - لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي.
- ط1 - القاهرة، 1326هـ.
- 17 - بناء القصيدة في النقد القديم في ضوء النقد الحديث - للدكتور يوسف حسين بكار.
- دار الأندلس - بيروت - ط2، 1982م.
- 18 - ابن حزم حياته وأدبه - د/عبد الكريم خليفة.
- الدار العربية للطباعة - بيروت (د.ت).
- 19 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - لابن عذري المراكشي.
- تحقيق ومراجعة، كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة - بيروت (د.ت).
- 20 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر سيادة قرطبة - للدكتور إحسان عباس.
- دار الثقافة - بيروت، ط6، 1981م.
- 21 - تاريخ الأدب الأندلسي - عصر ملوك الطوائف والمرابطين - للدكتور إحسان عباس.
- دار الثقافة - بيروت، ط6، 1981م.

- 22 - تاريخ الأدب العربي - لعمر فروخ.
دار العلم للملايين - بيروت. ج4، 5، ط ، 1981م.
- 23 - تاريخ إسبانيا الإسلامية (كتاب أعمال الأعلام) للسان الدين الخطيب.
تح: ليفي بروفنسال - بيروت، ط2، 1956م.
- 24 - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. د/حسن إبراهيم حسن.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، 1962م.
- 25 - تاريخ ابن خلدون.
دار الكتاب اللبناني - مكتبة المدرسة - بيروت، مج4، ط ، 1983م.
- 26 - تاريخ الشعوب الإسلامية - لبروكلمان ، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي. نشر دار
العلم للملايين - لبنان، ط10، 1984م.
- 27 - تاريخ العرب، د/محمد أسعد طلس.
دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت. (د.ت).
- 28 - تاريخ قضاة الأندلس، للشيخ أبي الحسن النباهي المالقي.
المكتب التجاري - بيروت. (د.ت).
- 29 - تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس - لعبد العزيز سالم.
دار النهضة العربية، بيروت. ط1، 1969م.
- 30 - تاريخ النقد الأدبي في الأندلس - د/محمد رضوان الداية.
مؤسسة الرسالة، ط2، 1401هـ - 1981م.
- 31 - تراجم إسلامية شرقية وأندلسية - د/محمد عبد الله عنان.
مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر - ط2، 1970م.
- 32 - ترتيب المدارك وتقريب المسالك - للقاضي عياض.
تح: أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت - ودار مكتبة الفكر طرابلس - ليبيا - (د.ت)

- 33 - تطور النزول في الجاهلية والإسلام - لشكري فيصل.
دار العلم للملايين - بيروت - ط6، 1982م.
- 34 - التفسير النفسي للأدب، د/عز الدين إسماعيل.
دار العودة - بيروت، ط4، 1981.
- 35 - تفسير الكشاف - للإمام الزمخشري.
تح: محمد مرسي عامر، دار المصحف، ط2، 1977م.
- 36 - التكملة لكتاب الضلة - لابن الأبار.
مطبعة السعادة - مصر، ط ، 1965م.
- 37 - تهذيب الآثار - لأبي جعفر الطبري.
تح: أبو فهر محمود شاكر. مطبعة المدني، المؤسسة السعودية - مصر - القاهرة (د.ت).
- 38 - تيارات النقد الأدبي في الأندلس في القرن الخامس الهجري، د/مصطفى عليان عبد الرحيم،
مؤسسة الرسالة - بيروت - ط2، 1986م، 1407هـ .
- 39 - ثورة الخمريات وثورة الزهديات، د/محمد الصادق عفيفي.
دار الفكر - بيروت، ط1، 1971م.؟
- 40 - جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس - للحميدي.
تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتب الإسلامية : دار الكتاب المصري القاهرة، ودار الكتاب
البناني - بيروت، ودار الرفاعي الرياض، ط2، 1403هـ، 1983م.
- 41 - الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح حتى نهاية عصر الطوائف - لألبير حبيب مطلق.
المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1967م.

- 42 - الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس - عصر المرابطين والطوائف - تأليف د/حسن علي حسن. مكتبة الخانجي - مصر - ط1، 1980م.
- 43 - الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية - تأليف أرسلان شكيب. دار مكتبة الحياة - بيروت، (د.ت).
- 44 - حياة وآثار الشاعر أبو خفاجة - لحمدان حجاجي. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ط2، 1982م.
- 45 - خريدة القصر وجريدة العصر - للعماد الأصفهاني - قسم شعراء المغرب والأندلس (2).
تح: آذرتاش آذرنوش، تنقيح: محمد المزوقي ومحمد العروسي المطوي والجيلاني بن الحاج يحيى، الدار التونسية للنشر، والشركة الوطنية - الجزائر 1971م.
- 46 - وقسم شعراء المغرب والأندلس (3).
ط 1972م.
- 47 - الخيال الشعري عند العرب - لأبي القاسم الشابي. الدار التونسية للنشر، 1975م.
- 48 - دار معارف القرن العشرين - لمحمد فريد وجدي. دار الفكر - بيروت، ط2، 1979م.
- 49 - دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة - د/ الطاهر أحمد مكي. دار المعارف - مصر - ط3، 1987م.
- 50 - دراسات في علم العروض والقافية - لأحمد محمد الشيخ. الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - ليبيا، ط2، 1988م.
- 51 - دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي - للدكتور محمد عبد الله عنان. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ط1، 1960م.
- 52 - ديوان أبي إسحاق الإلبيري. تح: د/رضوان الداية، دار قتيبة، ط2، 1981م.

- 53- ديوان أمية أبو الصلت بن عبد العزيز الداني.
تح: محمد المرزوقي، دار الكتب الشرقية تونس (د.ت).
- 54- ديوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م.
- 55- ديوان أبي العلاء المعري (سقط الزند).
دار بيروت - دار صادر للطباعة والنشر. بيروت - 1376هـ - 1957م.
- 56- ديوان أبي نواس - دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، 1986م.
- 57- ديوان أبي حمديس - تحقيق د/ إحسان عباس.
نشر دار صادر - ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت - 1960م.
- 58- ديوان بن خفاجة، تحقيق د/ سيد غازي، الناشر منشأة المعارف بالأسكندرية، ط2، (د.ت).
- 59- ديوان جرير، دار بيروت للطباعة والنشر، 1978م.
- 60- ديوان الخطيئة، تح نعمان محمد أمين طه. مكتبة الخانجي - القاهرة. ط1، 1987م.
- 61- ديوان زهير بن أبي سلمى. دار بيروت للطباعة والنشر، 1982م.
- 62- ديوان عمر بن أبي ربيعة. دار بيروت للطباعة والنشر، 1978م.
- 63- ديوان الفرزدق (مج2). دار بيروت للطباعة والنشر، 1984م.
- 64- ديوان المتنبي. تح: عبد الرحمن البرقوقي - مصر 1930م.
- 65- الديباج المذهب، لابن فرحون. طبعة ابن شقرون - مصر، (د.ت).
- 66- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام.
تح: د/ إحسان عباس. الدار العربية للكتاب - ليبيا - تونس، 1981م.
- 67- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، لابن عبد الملك المراكشي.
السفر الخامس. ق1 و2، تح د/ إحسان عباس، نشر دار الثقافة - بيروت، (د.ت).
- 68- الرسالة القشيرية في علم التصوف، لعبد الكريم بن هوازن القشيري.
مكتبة محمد علي صبيح وأولاده - ميدان الأزهر (د.ت)
- 69- رسالة الزهد زالورع والعبادة، لابن تيمية.
تح: حماد سلامة، نشر شركة الشهاب - الجزائر، (د.ت)

- 70 - رسائل ابن حزم الأندلسي.
- تح: د/إحسان عباس، نشر المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ج1، ط1، 1981م و ج2، ط1، 1981م.
- 71 - الروض المعطار في خبر الأقطار، لمحمد عبد المنعم الحميري.
- تح: د/إحسان عباس، مكتبة لبنان - ساحة رياض الصلح - بيروت، 1974م.
- 72 - سنن ابن ماجه. تح محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت - (ج2) (د.ت).
- 73 - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لأبي الفلاح عبد الحي بن العماد.
- تح: لجنة إحياء التراث العربي، نشر دار الآفاق الجديدة - بيروت، (د.ت).
- 74 - الشعر الأندلسي، غرسية غومس، ترجمة د/حسين مؤنس. مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، 1956م.
- 75 - الشعر والشعراء في العصر العباسي، د/مصطفى الشكعة. دار العلم للملايين - بيروت، ط7، 1991م.
- 76 - الشعر والشعراء، لابن قتيبة، تقديم ومراجعة الشيخ حسن تميم ومحمد عبد المنعم العريان. دار إحياء العلوم - بيروت، ط3، 1987م.
- 77 - الشعر الحديث بين التقليد والتحديد، لأبي سليمان الأحمدي. دار العربية للكتاب، 1983م.
- 78 - صحيح الترمذي.
- تح: عبد الواحد محمد التازي، ج8، مطبعة الصاوي - مصر، ط1، 1934م.
- 79 - صحيح مسلم.
- تح: محمد فؤاد عبد الباقي. نشر دار الكتاب المصري واللبناني (د.ت)
- 80 - صفة جزيرة الأندلس عن كتاب الروض المعطار، لأبي عبد الله محمد بن عبد المنعم الحميري
- تح: ليفي بوفنسال (د.ت)
- 81 - الصلة لابن بشكوال.
- الدار المصرية، ط، 1966م.

- 82 - الصناعتين، لأبي هلال العسكري.
- تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية - بيروت، 1986م.
- 83 - الصورة الأدبية/مصطفى ناصف.
- دار الأندلس، ط2، 1981م.
- 84 - طبقات الأمم، لأبي القاسم صاعد بن احمد الأندلسي.
- مطبعة التقدم الحديثة - مصر، (د.ت)
- 35 - طبقات الشافعية الكبرى، لأبي نصر عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي.
- ج2، مصر (د.ت)
- 86 - طوق احماسة، لابن حزم.
- تح: فاروق سعد، دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان، (د.ت)
- 87 - ظهر الإسلام، لأحمد أمين.
- دار الكتاب العربي بيروت، ط5، 1969م.
- 88 - العروض وإيقاع الشعر العربي. د/سيد البحرأوي.
- الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993م.
- 89 - عقيدة المسلم، محمد الغزالي.
- دار الشهاب - باتنة - الجزائر، (د.ت)
- 90 - علوم البلاغة، لأحمد مصطفى المراغي.
- دار العلم - بيروت (د.ت)
- 91 - العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق.
- تح: محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجيل - بيروت، ط5، 1981م - 1401هـ.
- 92 - عيار الشعر، لابن طباطبا.
- تح: محمد زلول سلام، دار المعارف الاسكندرية - مصر، ط3 (د.ت)
- 93 - عمون الأنباء في طبقات الأطباء، لابن أبي أصيبعة.
- ط، بيروت (د.ت)

- 94 - فقه اللغة، محمد خضر .
- دار الكتاب العربي - بيروت، ط 1981م.
- 95 - فلاسفة الإسلام في الغرب العربي، جمعية نيراس الفكر. ط 1، 1961م.
- 96 - الفن الإسلامي في إسبانيا، تأليف مانويل جوميث مورنيو، ترجمة لطفي عبد البديع والسيد محمود عبد العزيز سالم، الدار المصرية للتأليف والترجمة. ط ، 1968م.
- 97 - الفن ومذاهبه في الشعر العربي - لشوقي ضيف.
- دار المعارف - مصر - ط7، 1969م.
- 98 - فوات الوفيات والذيل عليها - تأليف محمد بن شاکر الکتبي.
- تح: د/إحسان عباس، دار صادر - بيروت - (د - ت).
- 99 - في الأدب الأندلسي، د/جودت الركابي.
- دار المعارف - مصر - ط3، (د - ت).
- 100 - في الأدب الجاهلي، د/طه حسين.
- دار المعارف - مصر - ط2، (د - ت).
- 101 - في التاريخ العباسي والأندلسي، د/ أحمد مختار العبادي.
- دار النهضة العربية - بيروت - ط2، 1972م.
- 102 - في التركيب اللغوي للشعر العراقي المعاصر، لمالك يوسف المطليبي.
- دار الرشيد للنشر العراق. ط 1981م.
- 103 - في النقد الأدبي لإيليا الخاوي.
- دار الكتاب اللبناني - بيروت - (ج1) ط 4، 1979م.
- 104 - قصص الأنبياء، لابن كثير.
- مكتبة الشركة الجزائرية، ط. 1981م.

- 105 - قضايا النقد الأدبي، د/بدوي طبانة.
دار المريخ للنشر - الرياض 1984م.
- 106 - قلائد العقيان في محاسن الأعيان - لأبي نصر الفتح بن خاقان.
مصورة عن طبعة باريس؛ قدم له ووضع فهرسه : محمد العنابي - الناشر دار الكتب
الوطنية، تونس (د - ت).
- 107 - الكامل للمبرد، دار الفكر، (ج3) (د - ت).
- 108 - لسان العرب - لابن منظور، ط، دار المعارف (د - ت).
و مج3 نشر دار بيروت للطباعة والنشر، 1388 هـ - 1968م.
- 109 - اللغة بين العيارية والرصفية - تمام حسان، مكتبة الأنجلو المصرية، 1958م.
- 110 - اللغة والشاعرة - لجنس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية - بيروت - صيدا (د - ت).
- 111 - المبين عن متانني ألتناظ الحكماء والمتكلمين، رسالة أبي الحسن علي بن أبي علي ابن محمد
الأمدي.
- تح: عماد صالبي، نشر المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1983م.
- 112 - مجمع الأمثال - للميداني - منشورات دار مكتبة الحياة بيروت (د - ت).
113 - محاضرات في فقه اللغة - زبير دراتي.
ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر. 1992م.
- 114 - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء - لأبي القاسم حسين محمد الراغب
الأصبهاني. (ج1) منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت - (د - ت).
- 115 - المحمدون من الشعراء وأشعارهم - لعلي بن يوسف القفطي.
تح: حسن معمرزي منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر - الرياض السعودية،
1390 هـ - 1970م.
- 116 - مدارج السالكين للإمام ابن قيم الجوزية.
تح: محمد حامد الفقي. نشر دار الكتاب العربي لبنان، (مج2)، ط2، (د - ت).

- 117 - المطرب من أشعار أهل المغرب - لابن دحية.
- تح: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي - مراجعة د/ طه حسين. دار العلم للجميع - مصر - (د - ت).
- 118 - معجم البلدان - لياقوت الحموي.
- تح: وترتيب محمد أمين الخانجي. مطبعة السعادة - مصر (ج5 - 6)، ط1، 1906م.
- 119 - معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، لياقوت الحموي.
- نسخه وصححه. د. س. مرجليوت. مطبعة هندية بالموسكي - مصر - ط2، 1923م.
- 120 - المعجم المفصل في علم العروض والقافية وفنون الشعر. لإميل بديع يعقوب.
- دار الكتب العلمية - بيروت - ط1، 1991م.
- 121 - مع شعراء الأندلس والمنتجبين، لغارسية غومس.
- ترجمة د/ الطاهر أحمد مكّي. دار المعارف القاهرة. ط3، 1982م.
- 122 - المعيار في نقد الأشعار - لأبي عبد الله جمال الدين محمد بن أحمد.
- تح: عبد الله محمد سليمان هندراوي. مطبعة الأمانة - مصر - ط1، 1987م.
- 123 - المغرب في حني المغرب لابن سعيد المغربي.
- تح: د/ شوقي ضيف - دار المعارف - مصر ط2، (د - ت).
- 124 - مقدّمة ابن خلدون. المطبعة الأميرية. بولاق ط3، 1320هـ.
- 125 - ملامح الشعر الأندلسي. د/ عمر الدقاق.
- دار الشرق العربي. بيروت (د - ت).
- 126 - منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان. لمحمد أمين الخانجي.
- مطبعة السعادة - مصر - ط1، 1907م - 1325هـ.
- 127 - منازل العباد من العبادة (أو منازل القاصدين إلى الله) للترمذي.
- تح: محمد إبراهيم الجيوشي، دار النهضة العربية (د.ت)
- 128 - موسوعة التاريخ الإسلامي - د/ أحمد شلي.
- مكتبة النهضة المصرية. ط7، 1984م.

- 129 - الموسوعة الفلسفية - روزنتال ويودين.
ترجمة سمير كرم. دار الطليعة بيروت. ط6، 1987م.
- 130 - موسيقى الشعر - د/إبراهيم أنيس.
مكتبة الأنجلو المصرية. ط3، 1965م.
- 131 - الموطأ للإمام مالك، رواية يحيى بن يحيى الليثي، إعداد أحمد راتب عرموش.
دار النفائس - بيروت - ط8. 1984م.
- 132 - نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرئ التلمساني، مج1.
تح: محمد محي الدين عبد الحميد، نشر دار الكتاب العربي - بيروت - 1949م. والمجلدات
(من 2 إلى 5) تح: د/إحسان عباس، نشر دار صادر - بيروت - 1968م.
- 133 - النقد الأدبي الحديث في الأدب العربي. د/محمد مصايف.
الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - 1979م.
- 134 - النقد الأدبي وقضايا الشكل الموسيقي في الشعر الجديد - لعللي يونس، مطابع الهيئة المصرية
العامة للكتاب، 1985م.
- 135 - النقد الأدبي أصوله وسنانهجه - السيد قطب.
دار الشروق بيروت (د - ت).
- 136 - النقد التطبيقي والموازنات - د/محمد صادق عفيفي.
مكتبة الخانجي - القاهرة - ط8، 1978م.
- 137 - نظرات في القرآن لمحمد الغزالي:
دار الشهاب - باتنة - الجزائر (د - ت).
- 138 - وفيات الأعيان لابن خلكان.
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد.
مكتبة النهضة المصرية - القاهرة - ط1، 1948م.
- 139 - الوفيات لابن قنفذ.
تح: عادل نويهيض، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت - ط3، 1400هـ - 1980م.
- 140 - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر. لأبي منصور الثعالبي.
تح: محمد محي الدين عبد الحميد، القاهرة، 1956م.

الدوريات

- 141 - مجلة الأزهر، ج9، مج18.
142 - مجلة الأمة، السنة الخامسة عدد58.
143 - مجلة العربي، أكتوبر 1966م، عدد95.
144 - مجلة العربي 1/1985م، عدد315.
145 - مجلة الكاتب، ماي 1979م، عدد217.

عبد القادر للعطوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
- الإهداء	
- المقدمة	أ- هـ

الفصل الأول

لمحة عن الحياة العامة في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري

1- الحياة الساسية.....	2
- قيام دويلات الطوائف.....	2
- دولة بني عباد.....	3
- دولة بني جمهور.....	5
- الدولة العامرية.....	6
- دولة بني الأفطس ودولة بني هود.....	7
- دولة بني ذي النون.....	8
- الدولة الزيرية.....	9
- الأندلس بعد الزلاقة.....	11
2- الحياة الاجتماعية والاقتصادية.....	13
- الناحية الدينية.....	17
- الناحية الاقتصادية.....	17
3- الحياة الثقافية والفكرية.....	18
- العلم والعلماء.....	20
- المساجد والمكتبات.....	24
- مصادر ثقافتهم وطرق تعليمهم.....	25
- الشعر والشعراء.....	29

- 35 الرسائل -
 39 فن العمارة -

الفصل الثاني

شعر الزهد : أسبابه ومصادره

- 43
 47 1- نشأة شعر الزهد.....
 54 2 أسباب نشأة شعر الزهد في الأندلس.....
 57 أ - شعر الزهد في الأندلس قبل القرن الخامس الهجري
 63 ب - شعر الزهد في الأندلس في القرن الخامس الهجري
 75 3- مصادر شعر الزهد في القرن الخامس في الأندلس.....
 75 أولا : القرآن الكريم.....
 78 ثانيا : السنة النبوية الشريفة.....
 80 ثالثا : الموروث القديم.....

الفصل الثالث

موضوعات شعر الزهد ومضامينه

- 85 - توطئة.....
 87 أولا : طاعة الله والتوبة إليه.....
 88 1. التهجد والحمد والشكر.....
 103 2 ذكر واعتبار.....
 121 3. التوبة والندم على المعصية.....
 137 ثانيا : التحذير من الدنيا وفتنها.....
 138 1. ذم الدنيا وإظهار حقيقتها.....
 146 2 ذم المال والغنى.....

151 ثالثا : ذكر الموت والقبور
151 1- ذكر الموت
163 2- ذكر القبور

الفصل الرابع

الدراسة الفنية

174 - توطئة
177 أولا : بناء القصيدة
178 1- الأوزان والقوافي
181 أ - علاقة أوزن بالموضوع
185 ب - الأوزان المستعملة
192 ج - القافية
198 2- التصريح
200 3- المطلع
204 4- الوحدة في القصيدة
211 ثانيا : اللغة والأسلوب
211 1- اللغة
212 أ - أثر القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في المعجم الشعري
229 ب - الموروث القديم والمعجم الشعري
235 2- المعاني
248 - المعنى وعلاقته بالحياة
250 ج - الأسلوب
259 ثالثا : التصوير الفني
261 1- التصوير بالتشبيه
271 2- التصوير بالاستعارة

